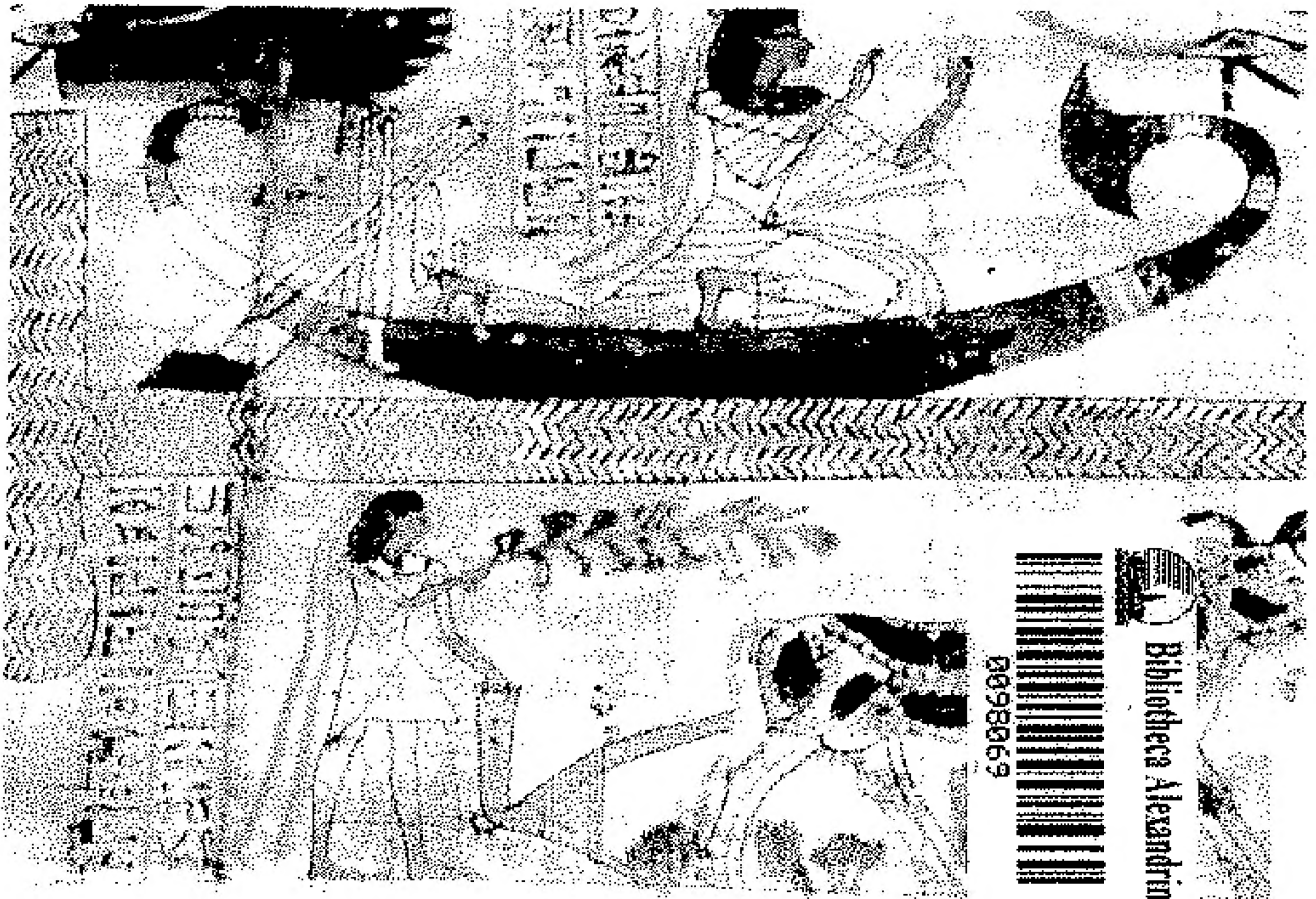


آله شوره

الحياة اليومية في مصر القديمة



Bibliotheca Alexandrina

ترجمة : د. نجيب ميخائيل إبراهيم

الهيئة المصرية
العامة للكتاب



الحياة اليومية
في مصر القديمة

الألف كتاب الثاني

الإشراف العام

د. سمير سرحان

رئيس مجلس الإدارة

مدير التحرير

أحمد صليحة

سكرتير التحرير

عزت عبدالعزيز

الإخراج الفني

لمياء محرم

الحياة اليومية في مصر القديمة

تأليف
ألف شورتز

ترجمة
د. نجيب ميخائيل إبراهيم

مراجعة
محسّر كمّال



المكتبة المصرية المتبناة للكتاب

١٩٩٧

هذه هي الترجمة العربية للكتاب :

EVERYDAY LIFE IN ANCIENT EGYPT

BY

ALAN W. SHORTER

الفهرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٧
مقدمة	
لمحة عن تاريخ مصر	١١
الفصل الأول :	
نرعون الاله الطيب	٢٣
الفصل الثاني :	
الرياضة والمرح	٤٠
الفصل الثالث :	
الآلهة وعبادتها	٥٥
الفصل الرابع :	
الكتاب المتنازون	٧٣
الفصل الخامس	
دفنة جليلة بالجبانة	٩١
الفصل السادس	
العمال والصناع	١١٠
الفصل السابع	
المجرمون الكبار	١٣٠
الفصل الثامن :	
كنوز الماضي	١٤١
الفصل التاسع :	
روح مصر	١٥٣

مقدمة

هذا الكتاب محاولة لتقديم صورة مبسطة واضحة بقدر الإمكان عن الحياة في مصر القديمة في أوج مدنيّتها واختبرت لها شكل القصة بمعنى أنني اخترت عدداً من الشخصيات الحقيقية أو الخيالية ونسجت حولها قصصاً تتألف مع ما لدينا من معلومات توصل إليها البحث الأثرى وذلك لكي تكون سلسلة يسيرة على القارئ غير المتخصص وما دام الأمر كذلك فلعله من الخير أن نبين في جلاء - لمنع أي لبس - الطريقة التي تم بها هذا العمل .

إن المناظر التي يتناولها هذا الكتاب ترجع إلى عهد الدولة الحديثة (ما لم تكن هناك إشارة إلى فترة أخرى) تمتد خلال الفترة الواقعة بين عام ١٤٥٠ ق.م أي أواسط الأسرة الثامنة عشرة وبين عام ١١٠٠ ق.م نهاية الأسرة العشرين . وهي فترة خلفت لنا تراثاً أكثر وضوحاً لإعادة بنائه من أية فترة أخرى .

ومن الواضح أنه من خطئ الرأي القول بأن الظروف الاجتماعية والسياسية طوال تلك الأعوام لم تتغير وعلى ذلك فإن هذه الفترة وحدها تستطيع أن تزودنا بمادة نكون منها صورة عن الحياة المصرية ، ويجب على القارئ لهذا الكتاب أن يتذكر أنه لا يقرأ جولييات أحداث حقيقية رغم أن كثيراً من الحوادث المختلفة المعروفة تمت في فترات معينة خلال هذه الحقبة وهي ثلاث أهدافنا فالمؤامرة المشهورة مثلاً التي قامت ضد (رعمسيس) الثالث والمسجلة في بردية تورين القضائية

ومستند آخر كانت مصدر رحي للمؤامرة ضد فرعون المذكورة في الفصل الأول . كما أن الفصل السابع توسع خيالي للأحداث المذكورة في بردية أمهر ست التي نشرها وترجمها الأستاذ بيت في كتابه « السرقات الكبرى لقبور الأسرة العشرين المصرية » .

وانني لأدرك تماما انني قد عرضت نفسي لتهمة التبسيط غير العلمي باتخاذى هذه الطريقة من الكتابة ولكن شيئا من ايمان النظر في الأمر يكشف عن أن الخيال أمر مشروع تماما حين تكون المادة التي أمامنا مبثورة وهو أمر واضح بالنسبة لحضارة قديمة .

وهذه القصص المركبة مقصورة على الفصل الأول ومعظم الفصل الثاني وبعض صفحات قليلة من الفصل الثالث والنصف الأول من الفصل الرابع ثم الفصلين الخامس والسابع . أما ما عدا ذلك فمعرض للمسائل كما كشف عنها علم الآثار . وقد أضيفت الى ذلك مقالة قصيرة هي الفصل التاسع عن بعض مظاهر فرعون ومملكته .

أما اللوحات فقد أختيرت بعناية لتكمل النص المكتوب من صور لأدوات مادية ترتبط بالحياة اليومية للمصريين ومن بينها عدد ضخم محفوظ في المتحف البريطانى حيث يمكن مشاهدتها مع غيرها . أما لوحة المقدمة ولوحاتها ٢٠ و ٣٠ فقد رسمها خصيصا لهذا الكتاب صديقى ناردتو ميلنز الذى بذل جهدا مشكورا لاستخدام المادة التى تحت يديه .

واننى أقدم أخيرا خالص شكرى للأستاذ أدولف أرمان والدكتور بلاكمان لسماحهما لى بنقل عدد من النصوص المصرية التى يعويها كتاب «آداب المصريين القدماء» وكذلك الى السادة ماثيون والدكتور الهى جاردنر والدكتور بلاكمان ومسترجع للأذن لى فى النقل من تراجمهم . وللأستاذ بيت

ومفوضى مطبعة كلارندون للسماح لى باستخدام المادة العلمية
من كتابه «السرققات الكبرى لقيور الأسرة العشرين المصرية»
والى أمنساء المتحف البريطانى وأمين قسم الآثار المصرية
والآشورية ومدير متحف العلوم والى جمعية الكشف المصرى
المسماح لى ينشر صور فوتوغرافية ولوحات * ولزوجتى
ومستر سدننى سميث ومستر جاد ومستر جالانفيل لمعاونتهم
الكبيرة فى قراءة الأصول ومساعدتى عن طريق النقد
والمقترحات أما الفهرس فقد أعده مستر هيوز *

لندن * سبتمبر ١٩٣٢

مقدمة

لمحة عن تاريخ مصر

« خلف لنا السكان الأوائل الذين سكنوا مصر في العصر الحجري القديم (الباليوليتي) - حين كانت البلاد مستنقعات - أسلحة الطران والأدوات التي استعملوها مبعثرة فوق الصحراء العالية وليس هنالك بعد هذا شيء يحدثنا عنهم * وحين تطالعنا أول لمحة للسكان البدائيين في مصر نرى البلاد اتخذت المظاهر التي تتخذها اليوم * كان سكان مصر في عصر ما قبل التاريخ من المجموعة الحامية التي يرجع إليها كذلك النوبيون في هاتيك العصور وهم يختلفون اختلافاً بيناً عن الزنوج إذ ذاك الذين لم يتخطوا شمالاً خط الاستواء ، وكان شعرهم أسود قصيراً مجعداً وأنوفهم مدببة وعيونهم لوزية الشكل ولحاهم مدببة وأما سحنهم فكانت متباينة كما هي اليوم ، فهي سمراء تميل إلى الحمرة القاتمة في الجنوب وهي صفراء تميل إلى الحمرة في الشمال * »

« وإلى الغرب كان يوجد الليبيون وهم شسحب فاتح البشرة * وأما إلى الشرق فعدد من قبائل الصحراء وأما إلى

شمال وشرق مصر فكان ساميو فلسطين وبلاد العرب .
ويظهر أن المصريين اعتقدوا في عصور متأخرة أنهم اتوا أصلا
من بونت وهي اقليم الافريقي الذي كان على اتصال تجارى
بمصر طوال تاريخها والذي ربما يقابل بلاد الصومال اليوم .
وهناك وجه شبه كبير بين اهل بونت كما يظهرون على الآثار
المصرية وبين المصريين أنفسهم ومن المحتمل كثيرا أن مصريي
ما قبل الأسرات وجدوا طريقهم من الجنوب مارين بشاطئ
البحر الأحمر وداخلين الى مصر عن طريق وادى الحمائم
ومن هناك انتشروا كذلك جنوبا في النوبة » .

ولقد خلف لنا الأقوام الذين عاشوا فيما قبل الأسرات
— أى الفترة السابقة للأسرة الأولى من الملوك المصريين والتي
ترجع الى حوالي ٣٣٠٠ ق م — بقايا كثيرة من حضارتهم
نستطيع أن نكون من ورائها فكرة طيبة عن صورتها . ذلك
أن أقدم الحضارات وهي المعروفة بالحضارة التاسية
والحضارة البدارية اللتين اكتشفتا منذ سنوات قليلة كان لها
طراز غريب من الفخار خدش سطحه الخارجى بأمشاط قبل
حرقه . وبالمتحف البريطانى مجموعة طيبة من الأدوات التى
عثر عليها فى قبور أقدم المصريين وتحتوى عقودا من الأصداف
وأشكالا وصورا غريبة وحليا من العاج وأشياء أخرى .
وكان المصريون قد تعلموا أول مبادئ الحرف والصناعات
التي مهروا فيها فيما بعد واستطاعوا أن يخطوا حبات من
الستياتيت بتزجيح أخضر أو يحفروا قطعة العاج ويحولوها
الى أناء زينة غريب على شكل فرس البحر .

واننا لتعرف الكثير عن الجزء الأخير من عصر ما قبل
الأسرات الذى استطاعت الحفائر الحديثة أن تكشف عن بقايا
متعددة منه . وقد كان المصريون فى ذلك العصر يسكنون فى
أكواخ مبنية من سعف النخيل والطين ويميشون على الزراعة
والصيد . وحين يموتون كانوا يدفنون فى قبور قليلة الغور
تحفر فى رمال الصحراء ويوضع الجسم مقرفصا بحيث

تلامس الركبتان الذقن أو تكادان وكان الميت يلف في جلد
أو حصير • وكانت توضع حوله الأدوات والأشياء التي كان
يستخدمها خلال حياته والتي قد يحتاج إليها في الحياة
الأخرى وهي أوان للطبخ وخزن الطعام أسلحة من الطران
ولوحات حجرية لصحن الصبغة الخضراء التي تزين العين •
وهناك جثة لواحد من هؤلاء الذين كانوا يعيشون في عصر
ما قبل الأسرات معروضة في المتحف البريطاني ويمكن
مشاهدتها وقد جففتها رمال الصحراء حتى لم تبق منها سوى
اللحم والجلد والشعر •

أما فيما يتصل بالتاريخ السياسي لمصر في عصر ما قبل
الأسرات فإن معلوماتنا عنه غير مؤكدة رغم أن علماء
الدراسات المصرية حاولوا إقامة هيكل لها • ومع ذلك فأننا
نستطيع أن نصور التركيز التدريجي للسلطة في مختلف
الجهات وتجمع المدن المتعددة تحت لواء قائد هام ثم اتحاد
بين الرؤساء وهزيمة الحكام الضعفاء وتسلط الأقوياء عليهم
• • • ومهما يكن سير الأحداث فإن النتيجة تظهر حوالى عام
٣٣٠٠ ق م حين نرى مصر مكونة من مملكتين منفصلتين
الواحدة في الشمال والأخرى في الجنوب وكانت عاصمة
المملكة الجنوبية هي المدينة التي عرفها اليونان تحت اسم
هيراكونبوليس المعروفة اليوم باسم الكاب ولقد أعلن ملوك
هيراكونبوليس الحرب ضد منافسيهم في الشمال حتى استطاع
أحدهم المدعو مينا (نعرمر كذلك) أن يتغلب على القوة
الشمالية تماما وأن يجعل من نفسه حاكما على مصر المتحدة •

ويحدثنا القصص الذي انحدر اليه أن مينا (أو مينس
كما يسميه اليونان) أسس مدينة منف وجعل منها عاصمة
له • ونحن نعرف أنه كان يعتبر في المصور التالية رأسا
للأسرة الأولى من الملوك • ومنذ ذلك الوقت نرى أنه رغم
أن الفراعنة كانوا يسيطرون سلطانهم على دولة غير منقسمة
فإن فكرة ازدواج المملكة ظل محتفظا بها حتى نهاية التاريخ

المصري • فالإدارة كلها كان يفترض فيها الازدواج وكان هناك القصر المزدوج ومخزن الحبوب المزدوج • الخ وكان يرمز الى ازدواج الملكية المصرية في كل العصور بالتاج المزدوج لفرعون وهو المكون من التاجين الأبيض والأحمر اللذين كان يلبسهما حكام المملكة الجنوبية والشمالية على التوالي •

على هذه الصورة بدأت الفترة الأولى العظمى للحضارة المصرية وهي الفترة التي يطلق عليها الدارسون اسم « العصر العتيق » وهو العصر الذي استمر حتى نهاية الأسرة الثالثة حوالي ٢٩٠٠ ق م ، أما الفترة التالية التي تبدأ بالأسرة الرابعة وتستمر حتى سقوط الأسرة السادسة حوالي ٢٤٠٠ ق م فتعرف بـ «الدولة القديمة» وهذا العصر هو عصر نمو مصر وهو العصر الذي نشهد فيه انتعاشا وفخوة لا تتحققان لها بعد ذلك • كانت لفرعون سلطة وسيادة مطلقة وكان يحكم مصر من قصره يحيط به النبلاء العظام الذين يقربهم منه ويلتفون من حوله في حياته وبعد موته ذلك لأن مقابرهم كانت تلتف حول هرمه • وكان يحكم الأقاليم المقسمة اليها مصر حكام محليون أو مفوضون يشغلون مناصبهم طبقا لرغبة الملك • ويمرود الزمن ترى السلطان الملكي يضعف كما نجد كبار النبلاء ينصرفون عن البلاط ويبدأون في حكم أقاليمهم بأنفسهم ثم يدفنون في الفواحي التي يباشرون فيها منسلطانهم بدلا من أن تدفن مقابرهم حول مقبرة الملك وكان من أثر ذلك أن وجد فرعون نفسه يعتمد على سند نبلائه كما ترى سير الأمور في البلاد يشبه ما كان يحدث في أوروبا خلال عصر الاقطاع • • • وطالما كانت للملك قوته فإن الأمور كانت تأخذ مجراها الطبيعي أما أولى علامات الضعف في السلطة المركزية فكانت تعنى ثورة من الحكام الأقوياء تعقبها الفوضى •

وكان النظام الإداري في البلاد يتركز حول قصر الملك وكان الملك محور الحضارة المصرية وأنا لنرى في العصور التالية أن الملك يعرف تحت اسم « برعا » أي البيت الكبير أو القصر وهكذا أصبحت « برعا » في المصرية فرعون ونستطيع في هذه الناحية أن نعقد مقارنة بين هذا الأمر وما كان يطلق على سلاطين الأتراك العثمانيين من لقب « الباب العالي » .

ولعل أروع أثر خلفته الدولة القديمة هو الأهرام ومقابر الجيزة عند القاهرة بالقرب من مكان العاصمة القديمة منف . فعلى هذه الهضبة الصخرية بنى الملوك هذه الآثار الخالدة من الحجر وهي التي أثارت إعجاب السياح والتي كانت تغد خلال العصور اليونانية والرومانية ضمن عجائب العالم السبع . وأعجبها جميعا هو الهرم الأكبر الذي يرباه خسوفو والذي يرتفع إلى ٤٥١ قدماً فوق الصحراء ويشغل مساحة ١٢ فدانا . أما هرم خفرع الذي خلف خوفو بعد حكم واحد متداخل فهو كذلك ذو حجم ضخم على حين بنى هرم منكاورع الذي خلف خفرع على مساحة أصغر . وقد بنيت هذه الأهرام لتكون مقابر يحفظ فيها جسد فرعون إلى الأبد سليماً وقد بنيت في واجهاتها الشرقية معابد جنزية تقوم هيئة كهنتها الدائنة بأحياء العلقوس التي يقدم فيها الطعام والشراب لحفظ كيان الملك الميت .

وقد خصصت المساحة القائمة حول الأهرام لمقابر رجال البلاط الذين تابعوا بهذه الصورة خدمة مولاهم في العالم الآخر . وقد بنيت هذه المقابر على شكل مصاطب مرتبة في صفوف وتتخللها طرقات حتى يرى الزائر نفسه يشير في مدينة حقيقية للموتى . ويمكن اعتبار الهرم وما يحيط به من مقابر كرمز مادي متماسك لهذه الفترة الأولى العظيمة من الحضارة المصرية في فرعون العالي فوق مستوى البشر يقوم على خدمته نبلؤه . . . ومن هذه وغيرها من المصاطب

استطعنا أن نحصل على التماثيل الرائعة التي تحفل بها المتاحف والتي توحى وجوها بقوة واتزان مقتربين بوقار ملحوظ ولعل تمشال ننخفتكا بالمتحف البريطاني أحد هذه الأمثلة البديعة .

وهكذا نجد أن الدولة القديمة كانت فترة تقدم ونمو . . . أما في الداخل فقد استتمعت البلاد بحكومة وطيبة الدعائم قادرة على تسيير دفة الأمور وأما في الخارج فإن علاقة مصر بجيرانها لم يهمل أمرها فقد أرسلت البعث الدائمة إلى أرض بونت فشقت طريقها في الياضية عبر وادي الحمامات إلى الشاطئ ثم اتخذت بعد ذلك طريق البحر الأحمر . كما وجهت الحملات إلى سينا (من أجل مناجم الفيروز) وإلى فلسطين . ومنذ الأسرة الثالثة كان الخشب الذي يستعمل في بناء السفن يستورد من سوريا وقرب نهاية الدولة القديمة نرى السفن تعبر البحر إلى بيلوس (جبيل) على الشاطئ السوري .

ومع ذلك فإن النهاية كانت قريبة . . . ففي خلال الأسرة السادسة امتد الوهن إلى السلطة الملكية وأصبح الملك غير قادر على مباشرة سلطاته على نبلائه الذين كانوا قد استقروا عندئذ في أقاليم كأصحاب أقطاعات . . . وانتهت الأسرة السادسة في فوضى وارتباك ويظهر أن مصر استطاع أن يفتروها خلالها آسيويون من الشمال .

وبعد حوالي مائة عام - بعد صراع وحشي مع حكام هراقليويوليس وهي مدينة في مصر الوسطى - نرى أن عرش مصر يسترده بيت أمراء أرمنت الواقعة قرب طيبة كما نرى الأسرة الحادية عشرة تؤسس . . . وبهذا البيت المالك الجديد تظهر الفترة الثانية العظيمة للحضارة المصرية وهي التي يطلق عليها علماء الدراسات المصرية اسم « الدولة الوسطى » وقد وصلت إلى القمة في عهد فرعون

الأسرة الثانية عشرة * وقد ظلت سلطة أمراء الاقطاع تهدد العرش بيد أن اليد الحديدية لملوك الأسرة الثانية عشرة أضعفتها باستمرار إلى أن قضى عليها نهائيا سنوسرت الثالث فيما يبدو (لوحة ٣٦) وقد اشتهر هذا الحاكم الأخير بروحه الحربية النزاعة إلى العنف والتي استطاع بفضلها أن يقضى على ثورة القبائل الزنجية في السودان وأن يوجه كذلك حملة ضد فلسطين * وقد خلفه أمنمحات الثالث (لوحة ٣٧) وقد وصلت الدولة الوسطى في عهده إلى ذروة مجدها وكان أهم أعماله تنظيم بحيرة مورييس في الفيوم * وقد استطاع بفضل القناطر أن يسيطر على فيضان المياه إلى النيل كما استطاع بواسطة إقامة سد أن يستنقذ رقعة من الأرض للزراعة * وبمسوت أمنمحات الثالث بدأ الانهيار الذي انتهى كذلك بفوضى حتى لنرى مصر الشمالية تسقط مرة أخرى حوالي عام ١٧٠٠ ق م فريسة غزو ضخم لشعوب من الشمال هم الهكسوس أو ملوك الرعاة *

وقد نجح هؤلاء الغزاة الأجانب في الاستيلاء على مصر الشمالية مدى مائة عام على الأقل استطاعوا أحيانا خلالها أن يسيطروا سلطانهم على الحكام الوطنيين في الجنوب عند طيبة * ومع ذلك فإن الخلاص جاء أخيرا من طيبة فأعلنت الحرب ضد الهكسوس بواسطة ثلاثة ملوك متعاقبين يحملون اسم سقنن رع حتى تم طردهم ومطاردتهم إلى فلسطين على يد أحمس بن سقنن رع الثالث مؤسس الأسرة الثامنة عشرة أزهى عصور تاريخ مصر القديمة (١٥٨٠ - ١٣٢١ ق م) *

وكان الهكسوس قد أحضروا معهم عند غزوهم للبلاد الحصان والعربة ولم يكونا قد عرفا إذ ذاك في مصر * وكان من أثر أداة الحرب هذه بالإضافة إلى الروح الحربية الجديدة التي اكتسبها المصريون منذ أجيال نتيجة صراعهم ضد المقتصب الأجنبي أن استيقظت روح جديدة لدى المصريين * فمنذ هذه اللحظة نراهم يمدون أبصارهم نحو الخارج

واستطاعوا عن طريق سلسلة من الملوك الممتلئين حماسة أن يكونوا امبراطورية عالمية . وقد أتم هذا الأمر تحوُّلُ الشمس الثالث الرائع الذي أخضع فلسطين وسوريا في خلال حملات استمرت ستة عشر عاما متتالية ومدَّ سلطانه جنسوبا الى ما وراء الجندل الثالث في الثوبة وأصبحت الثوبة وفلسطين وسوريا معروفة كمستعمرات وبدأت الجزى تفيض في كميات ضخمة الى مصر حتى اعترف بقوتها الملوك المجاورون لبابل وآشور وميتاني . وحين كان يخلف الفرعون قرعون أخسر كنا نرى قيمة مصر تزداد وسلطانها يوطد ، حتى ارتفعت طيبة مقر البيت المالِك الى مرتبة العاصمة للمسلم القديم وحتى شغلت معابد الهها آمون رع - الذي يمنح السلطة والنصر للفرعون ابنه - مساحة ضخمة . وقد حكم أمنحتب الثالث - الذي بلغت الأسرة الثامنة عشرة في عهده ذروتها - مصر كحاكم دولي فالشمس الثَّوَرُ اليه ملوك البلاد الأجنبية ولم يتردد من جانبه في التزوج من أميرات أجنبيات بقصد تحقيق أهداف سياسية . أما ابنه أمنحتب الرابع فكان مصلحا دينيا أنصرف الى احياء عبادة اله الشمس القديم والقضاء على الاله آمون الذي كان قد اغتصب مكانه . وفي الوقت الذي كان الأمر يستدعي عناية مرهفة للاحتفاظ بكيان الامبراطورية الآسيوية نرى أمنحتب الرابع يغيّر اسمه الى أخناتون وينقل معابد آمون وينقل عاصمته شمالا الى مكان يعرف اليوم باسم تل العمارنة (لوحة ٣٤ شكل ١ و ٢) وقد بنى هناك مدينة لنفسه ولبلاطه وقضى أيامه في الخدمة الدينية والأعياد الأخرى التي تتصل بالطبيعة المادية وذلك حين كانت الامبراطورية في سوريا تقوضها معاول تقدم الحيثيين الى الجنوب وغزوات القبائل من الشرق وثورة الأسر الحاكمة السورية نفسها . . . وحين مات أخناتون أخيرا بعد حكم دام نحو ١٨ عاما نجده الامبراطورية الآسيوية قد تقلصت كثيرا .

وقد جاء في أعقاب الملوك الذين حكموا مددا قصيرة.
بعد اخناتون وهم سمنخ كارع وتوت عنخ امون واى - جاء
رجل لم يكن من الدم الملكى الا ان قوته استطاعت ان تعيد
البلاد الى وضعها الطبيعى وقضى هذا الحاكم - واسمه
حرمحب - مدة حكمه الطويلة في انفاذ مشروعات اصلاحية
في مصر وهكذا استطاع ان يعيد الطريق امام خلفائه
ليستعيدوا مركزهم في العالم .

وتنتسب الأسرة التاسعة عشرة الى فترة الامبراطورية
الثانية لأنه قامت خلال حكم سيشى الأول ورعمسيس الثانى
سلسلة من الحملات ضد فلسطين وسوريا أمكن عن طريقها
استعادة النفوذ المصرى فى الاقليم السابق . ثم ان جندور
الحيثيين كانت قد تشعبت فى سوريا بصورة يصعب معها
اقتلاعها . وأكبر الأحداث المعروفة لهذه الحروب هى معركة
قادش المشهورة على نهر العاصى التى كادت القوات الحيثية
تهزم فيها رمسيس الثانى بسبب قيادته الفاشلة ولكنه
استطاع بفضل شجاعته الشخصية أن يستنقذ نفسه
وينسحب . وبعد معارك استمرت عدة سنين عقدت معاهدة
سلام بينه وبين الملك الحيثى . وبدا استطاع رمسيس أن
يقضى بقية عمره فى أعمال انشائية سلمية من بينها عمائر
المشهورة اذ نرى فى كل أنحاء مصر معابد اقامها تشهد
بعظمته (لوحة ٢١ شكل ١) كما نرى فى الجنوب البعيد
فى النوبة عند «أبو سنبل» تماثيله الأربعة الضخمة التى يبلغ
ارتفاع كل منها ٦٥ قدما منحوتة فى الصخر الصلب تتطلع
الى اللانهاية . ويرى اسم رمسيس منقوشا على الآثار فى
طول مصر وعرضها حتى أصبح معروفا فى العالم الحديث
أكثر من غيره من الفراعين ، على حين اختلط فى العصور
القديمة بملوك الأسرة الثانية عشرة المعروفين تحت اسم
سنوسرت وعسرف فى القصص اليونانى كأنما هيسو
سيزوستريس وقد مات بعد أن حكم ٦٧ عاما .

وعندما حكم مريبتاح بن رعمسيس وخلفه نرى قوة مصر في الشرق القديم تبدأ في الذبول وقد امتدغى في العام الخامس من حكمه ليصت هجوما من القبائل الليبية في الغرب التي اتحدت مع شعوب البحر الأبيض المتوسط * واستطاع الفرعون المصري أن يسحق الغزاة ومع ذلك فإننا نجد مصر منذ ذلك الوقت تبذل قصارى جهدها لتستعيد امبراطوريتها ولتحتفظ على نفسها * وبعد ثلاثين عاما نرى الامور تبلغ ابانها في عهد رمسيس الثالث ثاني ملوك الأسرة العشرين حين بدأ الهجوم يقتل الهجوم ضد مصر عن طريق الليبيين وشعوب البحر ورغم ذلك فإن رمسيس الذي ربما كان جنديا أعظم من تحتمس الثالث كان ندا لأعدائه فهزم الحلف في غرب الدلتا وضرب جموع شعوب البحر الذين كانوا يتقدمون جنوبا من ناحية سوريا واستطاع أن يقضى على القوات الأخيرة برا وفي معركة بحرية هي أولى المعارك من نوعها التي سجلها التاريخ ولا تزال صورها حتى اليوم قائمة على حائط معبد رمسيس في طيبة الغربية وكأنما عادت أمجاد الماضي وأضحت لمصر السنيادة مرة أخرى *

ولكن هذا لم يكن ... ذلك لأن نفوذ كهانة آمون رع في طيبة كان يتزايد في اطراد مدى قرون طويلة * وكان جانب كبير من الجزية الأجنبية المقدمة الى مصر منذ تكوين الامبراطورية الأجنبية يكرسه الملوك لاله آمون رع حتى أصبح كهنته أكثر الناس ثراء في مصر وأقواهم نفوذا في البلاد كلها * وهكذا استطاع كبير كهنة آمون أن يصل الى مركز من الخطورة بمكان وحتى أصبحت النهاية محتومة * وجاء بعد رمسيس الثالث ملوك ثمانية يحملون نفس الاسم وكل منهم أضعف من سلفه حتى لنرى في نحو عام ١١٠٠ ق م عند وفاة رعمسيس الحادي عشر أن حريحور كبير كهنة آمون رع « ملك الآلهة » يغتصب العرش وكانت الدلتا قد

ثارت ووضعت على العرش فرعوناً منافساً ولم تعد هناك
امبراطورية آسيوية • ولم تبق لمصر سوى النوبة •
... وقد ظلت مصائر مصر مدى سنين عرضة للتشاكل
والتنوع فمرت على التوالي تحت ثلاثة ألوان من الاحتلال
الأجنبي : ليبي (الأسرة الثانية والعشرون) ونسوبي
(الأسرة الخامسة والعشرون) ثم الآشوري • • وجاء الحكم
الأخيرة بالخراب الشامل حتى أن طيبة « ذات المائة باب »
نهبها جيوش آشور بانيبال العاتية • • ومع ذلك فإن مرحلة
من مراحل العظمة كانت تنتظر مصر ذلك أن آشور انغمست
في الصراع مع بابل وهو الصراع الذي انتهى بانهيارها
فانسحبت حاميتها من مصر واستقل بسمتك وهو الأمير
الوطني لسايس في الدلتا وأسس في عام ٦٦٣ ق - م الأسرة
السادسة والعشرين وهي الفترة المعروفة بـ « النهضة » •
وكان التفكير المصري قد طرأ عليه بعض التغيير ذلك
أن مصر أخذت تنظر إلى الماضي فالتفتت إلى أمجادها السابقة
التي حاولت جاهدة أن تقلدها • ونظر المصريون في عصر
النهضة إلى الأيام التي كانت تسبق الامبراطورية • •
وأخذوا لهم مثالا يحاكونه هو مدنية الدولة القديمة • وكان
فن الأسرة السادسة والعشرين يستهدف إنتاج فن يشبه
فن تلك الفترة واستعيدت الألقاب القديمة كما استعيدت
النصوص الدينية القديمة ونقشت مرة أخرى على المقابر
والتوابيت •

ولكن مصر في عصر الأسرة السادسة والعشرين كانت
شيئاً جديداً حقاً تحت قناع الرجوع إلى القديم • فلقد تغير
الشرق القديم وبدأ ركب الحضارة يتحرك من الشرق إلى
الغرب • وبدأ يظهر في الوجود العالم الاغريقي وتأسست
المستعمرات الاغريقية في كل مكان وكانت السفن اليونانية
تنشر قلوها في البحر الأبيض المتوسط • وفتح فراعنة
الأسرة السادسة والعشرين أبواب مصر للمستعمرين اليونان
الذين استقروا في أنحاء متفرقة من البلاد وكانت نقراطيس

ودافنى أشهر مراكزهم وتكون الجيش المصرى من اليونان
ومن الكاريين ومن السوريين ومن الليبيين ولم يتردد فرعون
فى عقد ائتلاف اجنبية بقصد الحرب أو التجارة . وهكذا
قامت دولة عالمية تختلف كثيرا عن مصر فى العصور السالفة
• أقامها الحكام المستثمرون حتى وصلوا بها الى درجة عالية
من النجاح والتقدم . وحتى بدأ الفراعنة يفكرون مرة
أخرى فى امبراطورية فى اسيا ولكن احلامهم من هذه
التاحية لقيت مصيرا مؤسسا لأن الكارثة النهائية كانت نتيجة
هزيمة الأمير البابلي نبوخذ نصر للفرعون نيكاو فى معركة
قرقميش عام ٦٠٥ ق م ومنذ ذلك الوقت ضاع الأمل فى
استرجاع سوريا وفلسطين كما أن الجهود التى بذلها بسمتك
الثانى ليعاود حكم النوبة السفلى باءت بالفشل .

كان الانتعاش القصير للمجد المصرى أمرا لم يقدر له
الاستمرار ذلك لأن ظهور كيوش الفارسي الذى انتقل من
نصر الى نصر كان نذير فناء للدولة المنهوكة القوى وسرعان
ما نرى خلفه قمبيز يضيف مصر الى الامبراطورية الفارسية
فى عام ٥٢٥ ق م ورغم أن الدين المصرى والعادات المصرية
قدر لها أن تظل محتفظة بكيانها مدى قرون كثيرة تحت الحكم
الفارسي والمقدوني ثم تحت الاحتلال الرومانى الا أن تاريخ
مصر القديمة كدولة مستقلة انتهى عند هذه المرحلة .

الفصل الأول

فرعون الإله الطيب

« كان جيش ضخم يأخذ مسراه عبر السهل الترايى على مدى النظر وكانت تتقدمه فرق العربات وقد غطت أصوات العجلات وحوافر الخيل على أصوات غناء المشاة الذين يخبون من ورائها كان فرعون عائدا من حملة موفقة في سوريا كما عاد مرات من قبل وكان قلبه مزهوا بالنصر » وكان يقود عربته الفاخرة بنفسه وكانت العربة مغطاة بالذهب ومزينة بمناظر القتال وعلى رأس الملك تاج الحرب الأزرق بالصلب الذهبى يبرز من مقدمه ملتصقا فى ضوء شمس الصباح . وكان يسير الى جانب العربة أسده المدلل بمقوده المربوط الى عربته وهو الأسد الذى صاحبه دائما فى حملاته بل وخاض المعارك الى جانبه .

« وكان فرعون فى رحلة العودة يستعيد بذاكرته الصراع الذى خرج منه منتصرا كما كان يفكر فى أعياد النصر التى سيحتفل بها فى طيبة حين يضع الغنائم والاسلاب فى كومات أمام أبيه آمون رع ملك الآلهة وسيد الكرنك (لوحة ١ شكل ٢) . ألم يسنده آمون رع مدى خمسة أيام من قبل حين فصله العدو مع فرق حرسه عن بقية الجيش؟ وكاد مدى لحظة يتصور أنه قد فقد كل شيء ولكن ابن آمون

رع صرخ ملتجئاً الى أبيه الالهى وسط الضوضاء وسرعان
ما رأى يدي الهه تمتد له . . وللتسو استبعاد الملك المصرى
شجاعته وقاد عرباته بصرخة فى هجمة على العدو حتى جعله
يعدو مسرعاً نحو النهر وصاح « أنا مونتو . . (١) أنا أفوق
سهمى بيمناى وأحارب بيسراى . . أنا فى حضرتهم مثل
بعل فى ساعته أنا أشهد الألفين وخمسمائة عربية التى أقف
فى وسطها تذهب بددا أمام جياى » .

« وعند هذه اللحظة اوقفت تيسار ذكرياته أصوات
التهليل الصادر من جيوشه حين لمحت على البعد قلعة الحدود
عند « ثل » وهى بوابة مصر . وأخذ الجند يعدون ولقى الضباط
الكثير من العناء فى حفظ النظام حتى وصلوا الى الأسوار
الأولى . وكانت القلعة من قسمين على جانبي قناة تصل بين
ما نعرفه اليوم ببهيرتى المنزلة والبلاح . وكانت الحملات
البحرية الى فلسطين وسوريا تبدأ عادة من « ثل » وتعود الى نفس
القاعدة لأنها تتحكم فى أهم الطرق ولأنها لم تكن تبعد كثيراً
عن الفرع البلوزى الذى يصب فى البحر مخترقاً شرق الدلتا
وكانت قد وضعت على هذا الفرع عشرات السفن الحربية
على استعداد لاستقبال الجيش العائد الذى كان يستقلها بعد
استراحة يوم فى « ثل ليبدأ رحلته النيلية » .

وكان يمر يوم بعد يوم ومدن الدلتا تبتعد الواحدة بعد
الأخرى حتى يستدير النهر الى الجنوب وتتجه الوجوه نحو
مصر العليا حيث طيبة ذات المائة باب . ها هى ذى منف ذات
الحائط الأبيض مدينة بتاح اله الفن وكانت يوماً من الأيام
عاصمة مصر وهى التى أسسها مينأ أول ملوك الأسرة الأولى .
وعلى الهضبة من الحجر الجيرى تنهض أهرام خوفو وخفرع
ومنكاورع الى السماء تلتصع بلون الذهب فى أضواء الشمس
الغاربة التى أضفت لمعانا على مساكن الموتى هذه . وكان
من المتفق عليه أن ينزل الملك فى منف ويتجه فى جلاله نحو

معبد بتاح العظيم ليقدم له صلاة شكر من أجل النصر . .
ولكننا سنترك هذا المنظر للخيال محتفظين لأنفسنا بمنظر
أشد روعة في طيبة . وبدأت مدن الصعيد تمر الواحدة بعد
الأخرى : أسيوط مدينة الاله الذئب وب وأوت ثم أبيدوس
أقدس قلعة في مصر حيث دفن أوزيريس (لوحة ١٨ شكل ١)
اله الموتى ثم دندرة مدينة حاتحور الهة الحب الرقيقة
ومرضعة الملوك ثم قفط مدينة مين الاله القوى للنسب
والاخصاب وأخيرا ها هي ذى طيبة . ان أسطول القوارب
الذى أبحر الى العاصمة كان يتقدمه صفان صغيران من
قوارب التجديف يتقدمها الشرطة لابعاد بقية القوارب عن
الطريق رغم أن ذلك لم يكن أمرا ذا بال لأن السلطات في
طيبة كانت قد عنيت بذلك الأمر ثم يلي ذلك القارب الملكي
نفسه وعلى ظهره تحت مقصورة كان يجلس فرعون . وكان
التاج الأزرق مستقرا فوق رأسه وكان يرتدى الكتان الرقيق
المنشئ ذا الثنيات والذى تبرز أكمامه من وراء ذراعه وكان
يحتدى نعلا من الجلد المذهب وحسول عنقه قلادة ثقيلة من
حبات الذهب والأحجار نصف الكريمة ويمسك في يده عصا
خشبية مكفتة بالذهب وصولجا بقبضة من المرمر المعرق
باللون الأزرق . وكان يلتف حول العرش قادة الجيش وهيئة
قيادة السفن وهم يرتدون زيهم الرسمي : نقية من الكتان
القصير وزرر من البرونز ويمسكون بحرايهم ويدروهم
المصنوعة من جلد الفهد في أيديهم . وكان هؤلاء الضباط
بدورهم محوطين بخدماهم الخصوصيين يحملون الأقواس
وجعاب السهام وغيرها من العتاد الحربى . ولعل أروع
ما كان يشهده الناظر . . أكثر حتى من فرعون وقواده منظر
مقدم السفين الذى يبعث على الرعب لأن فوقه كان يعلق سبعة
من زعماء السوريين الذين ثاروا ضد مولاهم ورعوسهم الى
أسفل فوق الماء وهم يقاسون أشد الآلام ولم يكن لديهم
أمل . . وهم يؤدون دورهم التعس فى مسوكب النهر
ويقتربون من نهايتهم المحتومة التى لم تبرح مخيلتهم .

« ثم بدأ التهليل والترحيب يتدفق من الجماهير المتجمعة على طول ضفتي النهر حين شهدوا الاله الطيب رع المجسّد الذي يجلس على عرش حوريس الحي وحين أخذ قاربه يتقدم في بطء نحو رصيف الكرنك • ومن هذا الرصيف كان طريق المراكب يؤدى الى معبد آمون رع المسمى « المختار بين الأماكن » وعلى كل جانب من جانبيه صف من وحيدات أبى الهول العجري برءوس الكباش وكل منها يمسك بتمثال لفرعون بين مخطبيه » • ومن ورائها كان يمكن مشاهدة بروج الصروح الضخمة القائمة أمام ساحة المعبد الأمامية وفى واجهاتها المائلة ثبتت ساريات الأعلام تتطاير عن أعلاها الشرائط ذات الألوان الزاهية • •

كان هذا بيت آمون رع (لوحة ١ شكل ٢) ملك الآلهة محبوب الدولة فى مصر الذى تقدم له الامبراطورية جميعا ولأهلها • أنه لم يكن فى أول الأمر سوى معبود محلى ضئيل القيمة ولكن قيام البيت الطبى على العرش جعله يرتفع ويتقدم الى المكان الأول الذى كان يشارك فيه الآن رع اله الشمس • • •

لقد كان رع أتوم اله الشمس فى العصور الغوالي سيد الآلهة المصرية ولكن آمون اغتصب مكانه الآن • • آمون اله الخصب والانتاج الذى اضطر الى أن يرتبط بالمعبود القديم حتى يستطيع أن يحتفظ بمركزه ومن هنا أصبح يسمى آمون رع والد فرعون وهو نفسه اله الشمس وله أكبر معبد وأضخم كهانة فى البلاد • • • أنها هذه الكهانة التى تجمعت الآن على الرصيف لترحب بفرعون عند عودته الى عاصمته • وكان فى المقدمة الكاهن الأكبر باكن خونسو فى ثيابه الكتانية الناصعة ورأسه الحليق الذى يلتصق فى خضسوء الشمس وحوله الخدم يذودون عنه بمراوحهم ضربة الشمس • وخلف الكاهن الأكبر كان يقف الكاهن الثانى والكاهن الثالث وخلف أولئك جميعا على ميمدة منهم الطبقات الدنيا

من الكهنة مع جماعة الكاهنسات ومن يحملن الهياكل في أيديهن (لوحة ٥ شكل ١) *

وحين رسا القارب الملكي على الرصيف انحنوا الى الامام ورفعوا ايديهم عبادة لجلالة الملك وهم يفتنون مرتلين له فيقول ياشن خونسو « ما اروع من يعود منتصرا » ويرد عليه الكهنة قائلين : « ذلك لأن امون جعله يضرب أمراء فلسطين » « كل الناس * * * كل اهل بيت أمون في عيد » « لأن أمون رع يحب الحاكم » ثم تمت الموارض الخشبية عبر الماء الى السفين ويخطسو المحبوب من الآلهة تلف حوله حاشيته الى الشاطئ * وعندئذ ينخر الجميع على وجوههم « يشمون الأرض » ما عدا الكاهن الأكبر وزملاءه الذين يظلون يحنون رعوسهم احتراماً *

وينظر فرعون الى الامام ويتجه نحو عرش على هودج يرفع فوق الأكتاف وحين يعتليه يحمله اثنا عشر نبيلاً يعدون عملهم هذا من أسمى الاعمال وأشرفها في الأرض * ويتناول الملك غذاءه في بيت كبير الكهنة الملحق بالمعبد ثم يعبر النهر بعد ذلك الى قصره على الضفة الغربية ليستريح قبل أن يأتي اليوم الملىء بالعمل الشاق والذي يقام فيه الاحتفال المهيّب الذي يلي ذلك *

« أشرق الصباح التالي وكانت الألوان اللامعة التي ترافق ظهور رع فوق الجبال الشرقية تعكس الانتصار المرموق لابنه الذي لا يزال نائماً في القصر والقصر لا نراه مبنياً بالكتل الحجرية التي كانت تستعمل في هياكل الآلهة لأن الحجر كان أهلى من أن يستعمل في المباني الدنيوية كما انه لم يكن مرضياً من وجهة النظر المصرية مثل اللبن الذي كان يستعمل في كافة المباني ما عدا الدينية منها * ذلك لأن المصريين فضلوا سكنى المباني الخفيفة التي يستطاع اجراء تعديل فيها أو تجديدها * وهكذا كان قصر فرعون القائم

أمامنا يمثل صورة كوخ ضخم أكثر منه قصرا والمبنى محاط بأسوار ضخمة بأحدها بوابة ذات برجين يحرسها الجند » .

وبالقصر ابهاء ذات عمد وأفخرها قاعة الاجتماعات (لوحة ٢) حيث أقيم عرش الملك تحت مقصورة على منصة يؤدي إليها درج * وفوق بوابة القصر بين الصرحين شرفة أو « نافذة الظهور » حيث يظهر فرعون أمام الجماهير في المناسبات الكبرى ويلقى منها بهدايا ومكافآت من حلل ذهبية لخدمه الأمتاء الواقفين أسفلها * وحوائط القصر من الداخل المبنية من اللبن تغطيها طبقة من الجص المنقوش برسوم لامعة وبازهار وفاكهة ويطر رموسه الى أسفل وتمثل الوحدة الزخرفية الرئيسية على حين نجد الأرضية ملونة تلويناً جميلاً لتمثل البحيرات التي ينمو بها السوسن الرقيق والأسماك اللامعة تملؤها * .

لقد استيقظ الملك لتوه وسرعان ما سرى نداء أحسد يتنقل من فم الى فم « ولقد استيقظ الاله الطيب » لقد استيقظ الاله الطيب » ويسرع عشرات الموظفين والخدم للقيام بأعمالهم ، أما فرعون فيساعده على تزيين نفسه أحد أمتاء القصر الوقورين ويحمل عصا من الاينوس ورأسها من القاشاني الأزرق ثم يرتدى الملك زيا من الكتان الأبيض ويضع على رأسه شعرا مستعارا أسود قصيرا وصلا ذهبيا ثم يتقدم نحو المعبد الخاص لأدام وأجبائه الصباحية الدينية . وهذا المبنى الجميل يقوم في وسط فناء القصر على هيئة كشك مستطيل تؤدي اليه مجموعة من الدرج * وهناك يركع فرعون لمعبد رع حوراختي عند شروقه ويتلو كذلك أدعية لآمون وموت الهى الطيبة * ثم لابنهما الطفل خونسو الأمير الالهى توأم الملك .

وحين تنتهي الصلاة يتجه الملك نحو غرفة الافطار حيث يتناول وجبة خفيفة وقبل انتهاء منها يعلن الخادم أن الوزير الأكبر وناظر الخزانة في انتظار المشول بين يديه ذلك

لأنهما جاءا فى الصباح الباكر ليشهدا الملك قبل بدء الاحتفالات وذلك لالتماس الرأى الملكى فى الأمور العاجلة التى تهم فرعون عقب عودته من الخارج * ويترك الملك وجبته التى لم يتمها وينتقل الى بهو الاجتماعات حيث يأخذ مكانه على العرش فيستقبل أولا الوزير الذى يقدم تقريراً عن تقدم البلاد ويوضح له مختلف الوسائل التى اتبعت لتحسين الرى أخيراً ثم يقدم له قائمة بأسماء المسجونين الذين تحقق عليهم عقوبة الإعدام التى لا يمكن توقييعها دون موافقة فرعون على الحكم * وبعد أن ينتهى الوزير من عمله وينصرف يتقدم ناظر الخزانة ليشغل نصف ساعة من وقت الملك فيناقش حالة الحكومة المالية والنظم الضريبية التى يمكن اتباعها فى العام المقبل *

ثم يخلص الملك لنفسه بعد انصراف الرجلين فيتقدم نحوه رجلان مهمتهما الباسه ويقودانه الى غرفة الملايس حيث يجهزانه ليوم النصر * ويبدأن بوضع نقبه حول وسطه من القماش المزين بالذهب وهو زى الملوك والآلهة منسد العصور الاولى * ثم يضعون فوق النقبة دثاراً شفافاً من الكتان المنشئ ذى الثنيات * وتتدلى من حزامه من الأمام فوق الدثار حلية رائعة من الخرز الملون بأسفلها صل ذهبى على رأسه قرص الشمس ينشئ من الناحيتين * وإلى الخلف ثبتت قطعة طويلة من قماش على صورة تحاكي ذيل حيوان برى * وحول عنقه يضع الخادمان عقداً من حبات الذهب والعقيق الأحمر * وعلى ذراعه سوار من الذهب المرصع بالأحجار شبه الكريمة المتعددة الألوان تمثل صورة الآلهة الوليد حريو قراط جالسا فوق زهرة اللوتس (لوحة ٣) *

أما الأقدام الملكية فتنزلق فى نعل من الجلد المذهب كما يوضع التاج الأزرق فوق رأس الملك * ثم يمسك الملك بعضاً مغطاة بالذهب وبصولج الاحتفالات ويتقدم الى عربته محوطاً بحرسه وإلى الخلف منه مباشرة ناظر القصر ذو الجثة

الضخمة • وحين يمر الملك في أحد الأبهاء ذات العمد يتوقف ليحيى الملكة وحاشيتها اللواتى يبرزن من تلك الناحية من القصر حيث يقمن فى عزلة شأنهن فى ذلك شأن نساء الشرق جميعا • والملكة فى زيتها للاحتفالات ولكنها لا تصحب فرعون بل تتقدم مع حاشيتها مباشرة الى معبد الكرنك حيث تشغل منصب كبيرة الكاهنات خلال الاحتفالات • وحين يقترب فرعون تركع فى احترام أمامه وسرعان ما يأمرها بالوقوف وعيناه المتألفتان باهتسامة مريحة تنمان عن حبه لها •

ولكن جبينه يتعقد فى اللحظة التالية حين يلاحظ قلة عدد الزوجات والمحظيات اللواتى قدمن لتحيته فيسأل الملكة « واين الباقيات » فيحمر وجهها وتهمس له حتى لا يسمع الآخرون حديثها « انها نبت تاوى • • انها تشيرهن لقد طلبت اليهن ان يبقين بالداخل » فيستدير فرعون دون ان ينطلق بحرف وان كست وجهه سحابة ضيق ثم يتقدم نحو البوابة وهو لا يكاد يكترب بهتليل الجماهير المتجمعين عند بوابات القصر منذ الفجر ليشهدوا طلعة الملك ثم يمتطى عربته ويبدأ موكبه متجها نحو النهر •

وبعد فترة قصيرة يصل الموكب الى الرصيف المقابل لمعبد الأقصر حيث يكون القارب الملكى فى الانتظار فينزل اليه فرعون ويقوم بالتجديف المجدقون المهرة ويتقدم مبحرا الى الكرنك مصحوبا بأسطول يحمل موظفى البلاط وشرطة النهر والحاشية الحربية • أما ضفتا النهر فزاحرتان بجموع الرجال والنساء والأطفال من سكان طيبة ومن فرق الجنود المصطفين على جانبي النهر ومن المجموعة الأخيرة المحاربون من الامبراطورية المصرية فى الخارج ومن مصر نفسها فقيهم الليبىون الملتحون وفيهم الزنوج بلون الفحم الأسود وفيهم كذلك مرتزقة من شعوب البحر الأبيض المتوسط من الشردانا بلباس الرأس ذى القرون وسيوفهم المثلثة الثقيلة • وتحمل الفرق المصرية شارات مميزة عجيبة تميز مختلف الفيالق

بعضها في صورة مراوح ضخمة للاحتفالات مزينة بأسم
الملك وبعضها على شكل مذبة مدلاة من عصا طويلة . وحين
تبدأ الرحلة مارة بطيبة متجهة نحو الكرنك نشهد الجند
يجرون على طول الضفتين وهم يحيون مولاهم في حماسة
شديدة فتختلط صيحات المحاربين من الفرق المصرية بالزمجرة
الوحشية للسود والليبيين .

وعندما يصل الموكب أخيرا إلى معبد امون رع في الكرنك
وينزل الملك إلى البر يحمل على عرش يمر به في سوابات
الصرح والجزء الامامي من المعبد إلى غرفة معينة بالقرب
من قدس الافداس تسمى « بيت الصباح » حيث يتركه
أتباعه لدى كاهنين يتعهدانه . وهذه الغرفة هي المكان الذي
يقوم فيه الملك بإداء الاحتفالات الهامة التمهيدية لأنه
سيكون اليوم الكاهن الأكبر . وهو حين يقف هناك وسط
سكون المعبد الكبير يلاحظ دخول شخصين آخرين إلى القاعة
وهما شخصان يفرق المرء من مرأهما أحدهما له رأس أبي
منجل بمنقاره الطويل المعقوف والآخر له رأس صقر .
وهما من الكهنة الذين يلبسون أقنعة تنكرية ويجسّدون إله
الصقر حوريس والاله برأس أبي منجل تحوت إله الحكمة .
وهما يأخذان مكانيهما في سكون إلى جانبي فرعون على حين
يسلمهما أحد الكهنة الأتباع أوانى من الماء ملئت من البعيرة
المقدسة في حرم المعبد ثم يباشران طقسا سحريا على الملك
تبلغ من قوته أنه يجعله يولد من جديد كما يولد أبوه رع إله
الشمس كل صباح عند الفجر بعد أن يستحم بواسطة
حوريس وتحوت .

وينثر الاثنان في وقار الماء فوق الملك وهما يرتلان
الطقوس ثم توضع الأنية جانبا وتسلم المباخر (لوحة
شكل ١) إلى حوريس وتحوت اللذين يتابعان تبخير الملك
يدخان البخور ثم يهديانه أخيرا حبات النطرون (الصودا)
ليمضغها حتى تتطهر كلمات الطقوس التي يعتزم النطق بها
من الدنس الأرضي كله .

ثم تترك المعبودات عندئذ بيت الصباح ويُعجل محلها « باكن خونسو » كاهن آمون الأكبر الذى يتقدم نحو فرعون فى اجلال عميق ويقوده نحو أقدم مكان فى البناء وهو الهيكل الداخلى أو قدس الأقداس حيث يحفظ تمثال الإله . وهناك خلف الأبواب المغلقة يشهد فرعون وجه أبيه آمون رع ويأمر أمام تمثاله تلك الطقوس السرية التى سنقرأ عنها فى الفصل الثالث .

ثم يعود فرعون والكاهن الأكبر الى بيت الصباح ليتجهزا للحادث الأعظم لميد النصر وهو العمل الذى يرعب قلوب البلاد التى تحكمها مصر فيخلع موظفون من الاتباع الدثار الكتانى الخارجى للملك حتى لا يبقى عليه سوى النقبة البسيطة لباس الآلهة ثم يأخذون بعد ذلك من فوق رأسه التاج الأزرق الذى لا يزال يرتديه ويضعون مكانه التاج المزدوج الأحمر والأبيض وفى العصور السحيقة الغامضة حين كانت مصر مقسمة الى دولتين : الشمال والجنوب ، كان ملك مصر العليا يلبس التاج الأبيض وهو قمعى الشكل ذو قمة كروية على حين يلبس ملك الوجه البحرى التاج الأحمر ذا الشكل العجيب . ومنذ اتحد القطران تحت حكم ملك واحد أصبح الملك يضع التاجين معا الأبيض داخل الأحمر .

وهكذا يضع الملك التاج المزدوج على رأسه وهو تاج أسلافه ويمسك فى يده صولجا برأس من المرمر ثم يفادر القاعة مصحوبا بالكاهن الأكبر والكاهن الثانى وطبقات أخرى من طبقات الكهنة أدنى مرتبة ويشق طريقه نحو بهو الأعمدة . وفى هذه القاعة الكبرى ذات الأعمدة الضخمة المنقوش عليها مناظر الآلهة والملوك والتى تصل الى سقف المعبد من كل الجوانب والتى تضيئها فتحات صغيرة يتسرب منها الضوء خلال نوافذ طويلة . . . فى هذا البهو تتجمع أفواج كبيرة من الناس وفى المقدمة الملكة مصحوبة بالكاهنات المحظيات يمسكن فى أيديهن الصلاصل التى تصدر عنها

أصوات كنما تحركن وفي مجموعة أخرى يقف كبار موظفي الدولة : الوزير وناظر الخزانة ورؤساء المصالح الحكومية وكبار قواد الجيش . وفي مجموعة ثالثة نرى كبار رجال الدين الذين قدموا من مدنهم ليشهدوا الاحتفال وعلى رأسهم كبير كهنة رع أتوم في هليوبوليس المعروف بلقب « الرائي (الناظر) العظيم » وكبير كهنة بتاح في منف صاحب لقب « سيد الفنانين » . . . وخلف هذه الشخصيات النبيلة نرى القاعة مليئة بأشراف من طبقة أدنى أما الفناء المفتوح ففيه عامة الشعب الذين يسمح لهم بالدخول بهذه المناسبة السعيدة .

ثم يأخذ فرعون وياكن خونسو مكانيهما الى يمين الباب المؤدى الى الهيكل وبعد دقائق قليلة يظهر الكهنة في هذه البوابة حاملين القارب المقدس لئلا على أكتافهم وهو قطعة من الفضة الدقيق مقدمه منحوت على شكل رموس كباش والجوسق (المقصورة) في وسطه حيث يقف التمثال المقدس محلى بصفوف منقوشة من المعبودات ومحجوب بخمار . . أما القارب جميعه فمغطى بأوراق الذهب وتلتمع فيه في ذلك الضوء الخافت عين حوريس المرصعة من كلا الجانبين بأحجار ملونة وزجاج .

ويقف الكهنة دون حراك والقارب على أكتافهم . . ان الاله قد خرج من هيكله ليشهد حادثا معيناً وهو يتوقع حدوثه . وكأنما حل السكون على الجماهير كذلك فانتظروا وفجأة تسمع قرقرة الحراب وترى مجموعة من الجنود تتقدم نحو القاعة معها سبعة الأسرى الرؤساء من سوريا الذين كانوا مربوطين الى مقدم مركب فرعون في اليوم السابق . . ها هم أولاء يقفون وأيديهم مقيدة في وضع مؤلم وأثوابهم المصبوغة صبغة تدل على الثراء قدرة وممزقة وشعرهم ولحاهم شمشاء ورغم ذلك فإنه لا يظهر على وجوههم ما ينم على الخوف لأنهم يعرفون تماماً كيف سيموتون .

ولا يستمر المنظر المرعب طويلا . . . اذ يضطر
الرؤساء الواحد بعد الآخر أن يخروا راكعين على ركبهم أمام
الملك وهو من ناحيته يمسك بهم من شعورهم ويسحق
رعوسهم بصولجة حتى يترك الأجساد السبعة على الأرض
الحجرية جثثا أقفرت من الحياة وهي تسبح فى دمائها *
وأخيرا تهز الملكة وكاهناتها صلاصلهن فى وحشية وينكسر
ذلك السكون بهممة الموافقة من الجماهير التى يتردد صداها
فى القاعة الكبرى ثم تتناقلها الجماهير فى الخارج وهو على
آية حال صوت لا يسر سماعه وسرعان ما يعود الكهنة حاملين
القارب المقدس الى الهيكل . . ان آمون رع راض بالضحايا
التي قدمها له ابنه . . ان الاحتفال قد انتهى *

فى غرفة من مبنى تابع للقصر كان يجلس رجالان فى
الليل المتأخر يتسامران احدهما بنامون كبير أمناء القصر
وحورى الساقى الملكى وكانا يتحدثان بصوت خفيض وكانا
يعاودان النظر الى الباب من وقت لآخر كأنما كانا يتوقعان
قدوم أحد * وكان كبير الأمناء رجلا مسنا ضخما البشة بعيون
غائرة وبوجه كثير التجاعيد الشبكية الشكل وكانت عصاه
التي تشير الى مركزه مستندة الى الحائط بالقرب من الباب *
أما الرجل الآخر حورى فكان فى سنى شبابه بوجه صبيح
وعينين لهما لمعة ونظرة نافذة ولم يكن الاطمئنان يظهر على
أحد الرجلين وقد شبا واقفين حين سمعا طرقة خفيفة على
الباب كأنما أعصاهما قد أصابها الارهاق ورغم أن الباب
كان محكم الاغلاق فانهما لم يحاولا فتحه بل ظلا بغير حراك
وهما يصغيان فى انتباه ووصل الى سمعهما همس من الخارج
يقول : « الليلة صافية ونوت تكشف عن نجومها » وسرعان
ما فتح بنامون وخورى الباب وسمعا بالدخول للغريب الذى
كان يلف رأسه وكتفيه فى عباءة وحسين انزلت وبانت
شخصيته انحنى له الموظفان فى احترام وتقديما له برجام
الجلوس *

كان الغريب شابا فى الثانية والعشرين من عمره يلبس
كتانا رقيق النسيج وفى حزامه خنجر ذهبى . وكان وجهه
يسر الرأى أما عيناه فكانتا جميلتين وملامحه متناسقة وأما
قمه فيوحى بالضعف أكثر مما يوحى بالقسوة ولعل أهم
ما يلفت النظر فى هيئته هو غطاء رأسه المصنوع من قماش
مطرز يتدلى منه هدى على أحد الجوانب وكان الهدى فى هذه
الفترة يحل محل الخصلة الجانبية من الشعر المضفور التى
تنم عن صفة الأمير الملكى والواقع أن ذلك الزائر لم يكن
سوى « آمون أم وا » الابن الثانى لفرعون وأقرب الناس
الى العرش باستثناء الابن الأكبر ولى العهد مرى آمون .

وسأل بنامون فى لهفة « ما الأخبار يا مولاي ؟ اكل شىء
يسير على ما يرام ؟ » فأجاب آمون أم وا وعيناه تلتصقان
فى ثورة : « لقد حدث تقدم رائع سوف يحكم أبى لبضعة
أيام أخرى ويرهق مصر بأثقال لا تستطيع احتمالها لقد
كان خيرا لو أن الآلهة أياهم ضموه اليهم منذ عشرين عاما حين
دوت البلاد بمجد حملاته قبل أن تزيد كآبتها بكرامية حكم
رجل مسن لقد جعلت أمى نبت تاوى الرسالة تنتقل فى
الحريم حتى ان كل امرأة تعرف أنه بعد أسبوع من اليوم
سنتوقف حياة فرعون حين يغيب رع وراء التلال القريضة
ويلف الليل الأرض بين طياته » . فأجاب بنامون « حسنا
صنعت يا مولاي وينخيل الى أنها ليست بعيدة تلك الساعة
التي سنضع فيها التاج المزدوج فوق رأسك ولكن ماذا تم
بشأن الخطاب الذى كان على المحظية أست أن تحمله لأخيها
قائد فيلق الرماة المرابط على الضفة الغربية ؟ » فأجاب
الأمير « لقد تسلمه ولكن حتى ولو كانت الجيوش على هذه
الضفة من النهر فأترة من ناحيتنا فانه ليس من المحتمل أن
يستطيع أخى مرى آمون المقاومة . . ان فرعون سيكون قد
مات وسيفقد أخى قبل الفجر وسوف لا يكون من الصعب أن
نتغلب على البقية الباقية من الجيش مع العلم بأنه اذا أحسنت

رشوته فليس يهمه من يحكم وخاصة وقد قدم الجند الكثير
من المظلمات ضد أبي . . والآن فلنفكر في أمر أشد حيوية
بالنسبة لخططنا ، هل استطعت الحصول على أدوات السحر
يا حورى ؟ » .

وقد أبرز حورى من ثنايا ثوبه رداً على ذلك حزمة
ملفوفة في الكتان بدا يحلها في عناية كبيرة وتنساول أولاً
نفسه من البردى مربوطة بخيط ومختومة بخاتم من الطين
ووضعها أمام أمون أم وا وقال « هذه الرابطة الثمينة يامولاي
أحضرت من مكتبة معبد بتاح في منف وقد بذل في الحصول
عليها أحد زملائي في الكلية الكثير من الجهد والمغامرة .
وهي تحوى رقية يبلغ من قوتها أن من يتلوها تسحر له السماء
والأرض وتجعل الآلهة ينحنون أمام إرادته أنها رقية كتبها
تحت بيده . . وان نحن تلوناها في ليلة مغامرتنا فسوف
نتنصر » ثم تناول حورى من الحزمة عدداً من تماثيل الشمع
الصفيرة في هيئة الرجال ووضعها أمام الأمير قائلاً : « ستبدأ
الليلة في ممارسة السحر مع هؤلاء . . ألا نضيع الوقت »
وحين قال ذلك سلم إبراهيم البرونز الحاد إلى الأمير وإلى
بنامون كما سلم دمية شمعية إلى كل منهما وبدأ يتلو :

« لهب عين حوريس يقضى أعداء رع

حرية حوريس تقضى على أعداء رع

يا حراس غرفة نوم فرعون أنتم منهزمون

أهلكوا وأسقطوا إلى الأرض . . ألا لتقتلوا وتصبحوا
ضعفاء

لقد حطمتكم حرية حوريس »

وعند ترداد الكلمات الأخيرة غرس أمون أم وا وبنامون
وحورى إبراهيم في الدمي الشمعية اللينة وهم يمتقدون أن
حرس فرعون التعساء سيحسون في نفس اللحظة آلام مرض

مميت وسيهلكون في وقت قريب . وقال الأمير حين انتهى ذلك الأمر « حسنا يجب أن أترككما الآن وأعود الى القصر قبل أن يصبح غيايى موضع شكوك وسأزوركما مرة أخرى في الغد في نفس الساعة » ثم قام لينصرف ولكن حورى استوقفه بأن وضع يده على ذراعه قائلا « ان مولاي لم ير بعد كل الدمى التى حصلت عليها . . لا يزال هذا هنا » وسحب من حزمته دمية أكبر من الدمى الأخرى ووضعها فى كف أمون أم وا ونظر اليه فى الوقت نفسه نظرة متفحصة بعينية . وكاد الأمير يفقد صوابه بعض الوقت وأمسك بمسند مقعده ليستند اليه وأبيضت مفاصله تحت جلده المشدود حين نظر مبهورا الى الدمية التى كانت تمثالا صغيرا هو صورة دقيقة لفرعون نفسه وكادت تتوقف أنفاس الموظفين وهما يراقبان الأمير وهو يتأمل الأداة التى ستفصل فى مصير آبيه المقدس وقد لاحظا التماعا يدب فى عينيه ثم التقط فجأة ابرة برونزية وضربها فى صدر الدمية وهو يردد « اهلك واسقط الى الأرض . . لتتلف وتضعف ولتقضى عليك حربة حوريس » وأمسك بالدمية المشوهة بعض الوقت فى يده ثم تركها تسقط الى الأرض وهو يتنهد وفتح الباب واختفى فى الظلام .



وبعد أربعة أيام وشى خادم بالمؤامرة لأنه لم يتسلم كل أجره الذى كان قد طلبه ليقوم بنصيبه فيها وقبض على المتآمرين للتلو وحاكمهم فرعون بنفسه . . . ولنصف المنظر الذى حدث بعد أسبوع من تلك الليلة المشؤومة حين زار (أمون أم وا) كبير الأمناء بنامون والساقى الملكى حورى .

لما كانت المؤامرة موجهة ضد شخص الملك المقدس نفسه فان الدور الافتتاحى من المحاكمة حدث فى قاعة الاحتفالات فى القصر الملكى واجتمع القضاة ليتلقوا توجيهاتهم من يدى

فرعون وحين جاء موعد الجلسة امتلأت القاعة بكبار أعضاء الحكومة والبلاد واقفين في جماعات يناقشون الموقف في أصوات خفيضة أما مقعد القضاة الذي نصب خصيصا لتنظر القضية فكان يضم رئيسين للبيت الأبيض أى موظفين من الخزانة وكاتبين وخمسة سقاة ومناديا يمثل البلاط وحاملي لواءين يمثلان الجيش .

ولم ينتظروا طويلا لأنه سرعان ما ظهر مناديان على جانبي البوابة يعلنان اقتراب الاله الطيب فانحنى القضاة المجتمعون في ولاء ودخل فرعون الى القاعة .

ولكم تغير شخص الاله الطيب منذ ذلك اليوم منذ عشرين عاما حين شهدنا احتفاله بالنصر في مغرب أمون رع فلقد كان اذ ذاك في ريسن فتوته يغيض صحة وقوة أما الآن فهو رجل مسن ترهل من جراء سنن البطالة كما أن عينيه يتشيع فيهما الغباء والاجهاد . . وأما صحته فليست طيبة لأنه يتنقش في صعوبة ويتكىء على عصاه المذهبة وهو يسير في بطء نحو المنصة (لوحة ٢) ويجلس على العرش حيث يستريح بضع دقائق في صمت متأملا الموظفين الواقفين منحنين بغير حراك أمامه والتاج المزدوج فوق رأسه يشير الى أن المناسبة خطيرة (أنظر لوحة المقدمة) .

ثم يقوم فرعون أخيرا ليتكلم فيلخص الأحداث التي دعته لاستدعاء كبار الموظفين لحضرته . ويرتجف صوته من وقت لآخر حين يذكر اسم ابنه أمون أم وا الذي سعى الى قتل أبيه أو اسم نبت تاوى الملكة التي تأمرت على حياة فرعون وابنه البكر حتى تؤمن العرش لابنها . وحين كان الملك يتكلم كان الحاضرون يدركون مدى الألم الذي يحتوى فرعون بسبب هذه المؤامرة لقد جرح في بيت أصدقائه وقد كانت ضربة مميتة وهو في صحته المتداعية . وكانت كلماته الأخيرة للمحكمة التي ترك لها السير في الدعوى أنه لا يكثر حتى بما تسفر عنه المحاكمة فقال « أما بالنسبة لما فعله

المتآمرون فأنا أجهله . ابحثوا الأمر وحين تنتهون من تحقيقه دعوا المجرمين يموتون بأيديهم دون أن تخبروني . سوف تنفذون العقوبة في الآخرين كذلك دون أن تخبروني ولكن اياكم وتوقيع العقوبة ظلما على برىء ، والحق اقول لكم انه بالنسبة لما حدث وما فعلوا ليقع ما فعلوه فوق رؤوسهم وأنا محمى ومصون الى الأبد . وأنا بين الملوك العدول الذين أمام آمون رع ملك الآلهة وأمام الوزير حاكم الأبدية » .

وحين غادر فرعون قاعة الجلسة سرت همهمة بين القضاة : لم هذه الإشارة العجيبة الى أوزيريس اله الموتى في نهاية حديث الملك ولكنهم عرفوا الجواب بعد عشرة أيام لانه في نفس الصباح الذى شنع الأمير أمور أم وا نفسه طبعا لحكم المحكمة وتجرعت الملكة نبت تاوى السم وصرت صرخة من غرفة نوم الملك :

« لقد مات الاله الطيب ، طار فرعون الى السماء واتحد مع الشمس » .

انه يحكم فى مملكة أوزيريس »

الفصل الثانى

الرياضة والمرح

حصل الشاب نخت المعروف فى حياته الرسمية « كقائد جيش سيد الأرضين » على أجازة ثلاثة أيام وكانت فرقته قد عادت مع فرعون من موسم الحملة فى سوريا منذ وقت قصير وهكذا أتيج له بعض الفراغ . ولم يكن نخت ممن يضيعون الفرص فكان يشغل كل يوم خال فى الصيد أو فى صجبة الفتاة « نومت » ابنة « جدختسو » التى استولت على قلبه .

وهكذا نراه فى هذا الصباح يخرج لرياضة اليوم فى صجبة عدد معين من الرجال النبلاء بمجرد شروق الشمس . وقد نصبوا خيامهم فى الصحراء العالية الممتدة من التسلال الواقعة خلف طيبة الى ناحية البحر الأحمر لمسيرة بضعة أيام وكان الصيد الطيب ميسورا هناك فى العصور القديمة ولو أن الحيوانات اختفت الآن منتقلة الى أقاليم جنوبية - كان بها اذ ذاك الغزلان والوعول . وكانت تؤمها السباع والفهود ولكن أصحابنا لم يكن خروجهم اليوم لمثل ذلك الأمر .

وصلت الجماعة فى اليوم السابق للصيد وقضى الضاربون الوقت فى اقامة شبكة خفيفة لتضم رقعة من الأرض ترك أحد جوانبها مفتوحا معتزمين أن يسوقوا الحيوانات البرية الى هذه الحظيرة .

ولما أصبح كل شيء معدا أخذ نخت وأصدقائه مكانهم قرب مدخل الحظيرة وانتشر الضاريون فوق الصحراء المحيطة في أنحاء متفرقة ليخيفوا أكبر عدد ممكن من الصيد ويوجهوه نحو الجماعة وشهد نخت ورفاقه من الرياضيين أقواسهم القوية على حين كان خدمهم يحملون البجائب مليئة بالسهام وسرعان ما سمع نباح كلاب الصيد مشيرة إلى ازعاجها بعض مخلوقات الصحراء وظهر وعسل وغزال يتسابقان في جنون فوق الحصى والرمال في اتجاه الحظيرة وخلفهما كلاب الصيد والرجال يصرخون بصوت عال وكان رئيس الصيادين قد نظم رجاله تنظيما طيبا كان من جرائه أنهم استطاعوا بفضل صراخهم ويفضل ما أتته كلاب الصيد من مهارة في التضيق على الحيوانات التعيسين أن سيقا إلى الحظيرة * وهنا جاء دور نخت وأصحابه الذين انهلوا على الفريستين بسهام فسقط الغزال لتوه بعد أن أصيب في قلبه أما الوعل فجرح فقط واندفع يدور في المكان وهو يجار بالألم - أما كلاب الصيد التي كانت قريبة من أعقابه فسرعان ما طرحت أرضا وأنشبت في رقبة الحيوان التعس أنيابها لتكمل عمل الرماة *

وتتابع ذلك الأمر في رياضة الصباح وكان محصل الصيد غزالا آخر واثنين من الوعول وثلاث غزات برية وزوجا من الأرناب وهكذا حصلت الجماعة على غذائها واتخذت طريق العودة نحو المعسكر حيث الراحة والظل استعدادا لوجبة الظهيرة *

والوصف الذي قدمناه كاف ليبين نوع الصيد الذي كان يستطيع الرجل المتوسط الثراء أن يمارسه ولكن بعض الصيادين الأكثر جشعا كانوا يسعون إلى صيد أكبر * وكان رئيس الرياضيين جميعا هو فرعون الذي كان يساعده أن يستغل حملاته الأجنبية لتسلية نفسه بالصيد حين لا يكون للحرب مكان في عمل اليوم - ولما كان الفاتح العظيم تحتمس

الثالث فى مشارف « نى » فى شمال سوريا شغل بصيد الفيلة على نطاق واسع فصاد منها مائة وعشرين وتعرضت حياة الملك نفسه للخطر عند اندفاعه ضد قيل غضوب لولا أن أنقذ أحد قواده المدعو « آمون أم حب » الذى اندفع الى الأمام وقطع خرطوميه فكافأه تعتمس من أجل ذلك مكافأة سخية .

وكان أمنتب الثالث كذلك صيادا عظيما وهو الذى أطلق عليه المؤرخون اليوم لقب « الرائع » والذى ربما كان والدا لتوت عنخ آمون وقد كان يفخر بصيد الأسود حتى أنه كرس مجموعة خاصة من جعلان الحجر اللامع نقشت على قاعدتها الصيغة التالية :

« حوريس الثور القوى : المتجلى فى الحق . »

السيد تان : واضع القوانين ناشر السلام فى الأرضين
حورس الذهبى : العظيم فى قوته ضارب الأسويين .
ملك مصر العليا : نب ماعت رع .

ابن رع : « أمنتب حقا واست » المعطى الحياة .

وكذا الزوجة الملكية العظمى تى (لتعش) .

بيان الأسود التى رجع جلالته وقد صادها بنفسه من السنة الأولى الى العاشرة ١٠٢ من الأسود .

وقد قاد نفس الملك المتحمس حملة صيد كبيرة عسلى الماشية البرية فى الدلتا خلال السنة الثانية من حكمه ، وقد سجل هذا الحادث كذلك على قاعدة جمل محفوظ فى المتحف البريطانى :

« فى السنة الثانية تحت حكم جلالته حوريس الحى . » الخ (١) حدث شىء عظيم لجلالته : أتى رجل ليعلن

(١) القاب أمنتب الثالث والملكة فى السابقة .

جلالته (قائلا) هناك ماشية برية فى الصحراء فى ناحية شتب * .

فأبحر جلالته فى القارب الملكى خع ام ماعت فى المساء وبعد رحلة موفقة وصل فى سلام الى ناحية شتب عند الفجر واستقل جلالته مركبة وجيوشه تتبعه وقواد الجيش كله وجنده وأطفال الناحية أمروا أن يراقبوا الماشية البرية .

وأمر جلالته أن تحاط هذه الماشية بسور وحفرة وأمر جلالته أن تحصى كل هذه الماشية البرية وبيانها = ١٧٠ (١) من الماشية البرية .

بيان ما صاده جلالته فى ذلك اليوم ٥٦ من الماشية البرية * .

وبعد أن استراح الملك أربعة أيام ذهب مرة أخرى وصاد واستولى على عدد أكبر .

★★★

عمل نخت وأصحابه الترتيبات اللازمة لرحلة صيد فرس البحر فى اليوم التالى لرياضة الصحراء وهى عملية مثيرة فيها بعض الخطورة . وكان كل فرد من أفراد الجماعة مسلحا بحربة خاصة بأفراس البحر وهى عصا خشبية طويلة بأحد أطرافها نصل معدنى مربوط الى نهايتها ويمكن فصله منها وقد ربط اليه حبل طويل يجرى على طول العصا وفوق خطاف عند قاعدتها (طرفها الآخر) وحين كان يظهر أحد أفراس البحر فوق سطح الماء ليلتقط أنفاسه كان يسرع كل واحد الى رمحه يسدده الى أى جزء ظاهر من جسد القريسة . وكان السلاح المعدنى يغور فى الجلد واللحم وتكفى هزة خفيفة لتفصله عن العصا فلا يبقى فى يد الصياد بعد ذلك

(١) أى مجموع ما حوصر فى الحظيرة لرياضة الملك .

سوى الحبل الذى يربط النصل . أما فرس البحر المذعور من الألم فيغوص تحت الماء وتسحب الحبال حتى يرتفع مرة أخرى ليتنفس حيث تسدد اليه ضربات أخر وبهذه الصورة نراه بعد فترة من الزمن قد أرهق بسبب نزف الدماء حتى ليستطيع الصائدون سحبه الى البر وقتله . وكانت الفريسة تحاول أحيانا الثأر بأن تهاجم صائديها الذين كان عليهم أن يحذروا دائما هذه المفاجأة .

ورغم أن المصريين بلغ حبهم للصيد بأنواعه حدا كبيرا إلا أن ذلك لم يستتبع أن يكونوا أحرارا دائما فى الانغماس فى ذلك المرح . فقد كان لكل مقاطعة حيوانها المقدس وكان البلاد ينزل بالصائد المهمل الذى يحاول صيد واحد من هذا النوع فى الناحية الخاصة به فى مصر ، ذلك لأنه يصبح دنسا مثال ذلك كل من يصيد تمساحا فى منطقة يكون فيها الاله التمساح « سبك » معبودا كاله محلى رئيسى وربما كان عقاب مثل هذه الجريمة هو الموت . ومن هنا كان من الضرورى مراعاة الحذر حتى لا تعصى أوامر الدين فيما يتصل بالمحرمات المقدسة .

أما اليوم الثالث والآخر من الأجازة القصيرة للشباب نخت فقد خصصها لصيد الطيور (لوحة ٦) وهى رياضة مسلية يمكن ممارستها على شواطئ مستنقعات النيل . وقد أخذ قارباً صغيراً خفيف الوزن من سيقان البردى المربوط بعضه الى بعض وخرج بمفرده يحمل معه طعامه القليل وأدوات صيده وقطة كبيرة . وبعد تجديد أسلحته استمر ساعة وصل الى ناحية من المستنقعات تتكاثر فيها سيقان البردى وتعلو وبهذا تصبح مخبأ كافيا ثم شق مقدم زورقه خلالها حتى استطاع أن يتوسطها ووقف فى زورقه واختار عددا من العصي الخشبية التى تنحنى بطريقة خاصة وبعضها ينتهى برأس ثعبان وأمسك بثلاثة أو أربعة منها فى يسراه ثم نقل واحدة الى يمينه وصرخ صرخة عالية وسرعان ما ردد الهواء رفيف أجندة طيور من مختلف الأنواع من بط وبلشون

وحمام وغيرها من الطيور التي أزعجها الصوت المفاجيء وفي نفس اللحظة أسرع نخت بمجرد رؤياها وآلقي عصا الرماية بيتها ثم أردفها بغيرها مما كان يحتفظ به قبل أن تختفي الطيور ، وطارت العصي من يده بحركة دائرية عجيبه فأصابت عددا من الطيور سقطت فاقدة الحس أو مهبطسة الجناح بين أدغال البردى وهنا جاءت فرصة القطعة التي قفزت من الزورق الى الأدغال وأحضرت الصيد لصاحبها دون أن يتل من غير شك (لوحة ٦) .

على هذه الصورة استمرت الرياضة حتى نبه الصياد اقتراب رع من قصة التلال الغربية الى أنه من الخير له أن يعود قبل أن تلحقه رعشة المسام المفاجئة . . فربط نخت جمبته في عناية وعارود التجديف نحو مدينته حيث خلف القارب الى الرجل الذي كان قد استأجره منه ثم شق طريقه الى حي الضباط حتى يستعد لوجبة العشاء التي كان قد دعاه « نس آمون » في بيته منذ وفاة أمها وأبيها . ولقد كان « نس » كبيرا لمهندسي فرعون المعماريين وهو بهذه الصفة من أهم الشخصيات في طيبة . وقد كان في هذه الفترة مشغولا في ملاحظة اقامة مبنى جديد في حرم معبد آمون بالكرنك وكان من بين المدعوين لتناول العشاء في ذلك المساء كبير كهنة آمون والكاهن الثاني مع عدد من الموظفين الكبار المتصلين بالمعبد .

وكان بيت « نس آمون » في الطرف الشمالي من طيبة ولما كانت الأرض فسيحة أمامه عند بنائه استطاع أن يقيم بيتا فسيحا متسع الأرجاء من الطراز الفاخر لنتمش فيه وندرسه بالتفصيل (أنظر لوحات ٧ - ١٠) .

ان المنظر العام للمبيت هو منظر كوخ بالغ الضخامة بنى بالطين المجفف في الشمس ويحيط به سور له بوابة بصرح صغير وقد طلي بالملاط الأبيض ولون بالوان زاهية وهو يؤدي الى الحديقة والى ملحقات البيت الرئيسي .

أما مدخل البيت (لوحة ٩ شكل ٢) فالى الشمال وتؤدى اليه مجموعة من الدرج ذى الارتفاع القصير . وبعد الدخول يجد الزائر نفسه (١) فى مسكن لبواب (١) الذى يؤدى الى دهاليز (٢) ومنه الى غرفة طويلة (٣) يستند سقفها على أعمدة خشبية تعتمد على قواعد من الحجر الجيرى واما الضوء فيتسرب خلال نوافذ شبكية الطراز (لوحة ٩ شكل ١) فى أعلى الحائط من الخارج أما الحوائط من الداخل فمكسوة بطبقة من الطين رسمت عليها صور ذات ألوان وضاعة زاهية . وهذه الغرفة الشمالية مزينة بأفرينز يحاكي النوافذ الشبكية الشكل وذلك بواسطة عمل ما يشبه القضبان من الطين تثبت فى الحائط وتلون . أما الرسوم فوق الباب المؤدى الى داخل المنزل فتمثل رسم اكليل زهر سنتناول رسمه فيما بعد . ومن خلال هذا الباب تنتقل الى الغرفة الوسطى (٨) (لوحات ٧ شكل ١ و ٨ و ١٠) وهى الغرفة الرئيسية للمنزل ويرتكز سقفها على أربعة أعمدة رفيعة تتوجهها زهور اللوتس المنقوشة عليها . والغرفة أعلى من غرف البيت حتى يصل اليها الضوء عن طريق فتحات منقورة فى الحائط عند أعلى جزء فيها . وفى أحد جوانب الغرفة منصة قليلة الارتفاع من اللبن وملتصقة بالحائط ويوضع عليها مقعد صاحب البيت وهى أن غطيت بسجادة أو وسائد تتحول الى ما يشبه الأريكة (الديوان) . وفى الجانب الآخر من الغرفة منصة أخرى أرضيتها من الحجر وسور صغير يحيط به وستار خلفى من نفس المادة (لوحة ١٠) وهذا هو المعروف بحوض الغسيل حيث يغتسل الناس قبل تناول طعامهم إذ يصب الماء على أيديهم من اناء كبير معد لذلك . وفى أرض الغرفة صحن قليل الغور من الفخار موضوع فى مبنى بحجمه من الطوب يستعمل كمدفأة لتدفئة الغرفة فى الأمسيات الباردة .

(١) هذه الأرقام وما يتلوها تشير الى غرف فى الرسم شكل ٢ لوحة ٧ .

وقد رسمت حول الغرفة في الاجزاء العليا من الجدران
المغطاة بالطين رسوم بألوان وضاعة تمثل أكاليل الزهور
والفاكهة ويحوى كل اكليل صفوفًا من أوراق اللسوتس
البيضاء تتحول الى زرقاء عند الأطراف وكذا أوراق
الخشخاش الحمراء والبنفسج الأزرق وثمار تفاح الجن
الصفراء ويختلط بزهور الخشخاش بطم مذبوح برعوس
خضراء وحمراء يتدلى الى اسفل اكليل زهر الخشخاش من
خارج حافتها . أما سقف غرف البيت فمن سقف النخل
المغطى بالطين والموضوع فوق الواح خشبية مغطاة بملاط
من الطين الملون والعارضة الخشبية الكبرى في الغرفة
الرئيسية مزخرفة بزخارف حمراء وزرقاء وخضراء وصفراء
أما الألواح الأخرى فلونها برتقالي وأما السقف فمدهون
باللون الأبيض وللغرفة الرئيسية بابان يؤديان الى قاعة (٩)
التي تقع في الناحية الغربية من المنزل مخصصة لجلوس الأسرة
في أيام الشتاء ويدخل اليها الهواء دون أن يحس الجالس
فيها بقصر الرياح التي تهب في ذلك الوقت من السنة .
وهناك باب آخر يؤدي الى غرفة تشبه الغرفة الرئيسية وان
كانت أصغر حجمًا (١٦) وهي الغرفة المخصصة للنساء حيث
يقمن في هذه الناحية من المنزل .

أما غرفة نوم (٢١) صاحب البيت نفسه فقد اعتنى
بتصميمها فالحوائط أكثر سمكا حول المنصة المرتفعة التي
يوضع السرير فوقها حتى لا يحس ببرد الشتاء أو بحرارة
الصيف الشديدة وأما السرير نفسه فمصنوع من شبكة من
الخيوط الكتانية المثبتة في اطار من الخشب وقوائم السرير
منحوتة على شكل قوائم الأسد أما اللوح الخلفي فتزينه صور
الاله بس والالهة تاورت والسرير لا تستند قوائمه على
الأرض بل على دعائم صغيرة من الحجر الجيري . أما الوسادة
المستعملة على السرير فهي مصنوعة من الخشب أو العاج
(لسوحة ١٣ شكل ١) وهي أداة لا تتمشى مع فكرتنا عن
الراحة المنشودة .

ويقع الحمام الى جانب غرفة نسوم صاحب البيت .
وليس فيه ما يشبه حوض الاستحمام بالمعنى الذى يفهم من
هذه الكلمة ذلك لأن من يريد الاغتسال كان يقف على منصة
حجرية ذات حافة مرتفعة ويصب الخادم الماء الدافئ فوقه
وينصرف الماء بواسطة ثقب الى اناء كبير مدفون فى الأرض .
وعلىنا أن نذكر أن الشرقيين يكرهون فكرة النزول الى الماء
الذى يفتسلون فيه وهم يفضلون أن يصب الماء فوقهم حتى
ينزل بالأقدار عن أجسامهم . وأرض الحمام وحوائطه
مغطاة بملاط من الأسمنت حتى تقساوم ما يتناثر من ماء
عليها ويلى الحمام مرحاض أرضى له مقعد من الحجر
الجبرى المحفور .

وهناك باب من الناحية الشرقية للغرفة الرئيسية يؤدى
الى سلم (١١) يصل الى الطابق الأول حيث توجد قاعة بطول
واجهه البيت وهى مكان تفضل النساء قضاء يومهن فيسه
ويحيط بالمنزل حائط يضم المباني الملحقة بالمنزل وهى
المطابخ والمخازن والشون وغرف الخدم وحظائر الحيوان
وكذا الحديقة والحديقة معنى بتصميمها وتزويقها
ففيها أحواض مستطيلة منتظمة وفيها بركة تحوى الأسماك
وتنمو بها زهور اللوتس .

والآن وقد حان وقت مجيء المدعوين للعشاء نرى
« نسامون » فى ملابس الكتانية النظيفة ينتظر وصول ضيوفه
فى الغرفة الرئيسية وسرعان ما تلحق به زوجته التى تساعده
فى الاشراف على وليمة المساء وكانت نظرة المصريين الى
المرأة نظرة تقدمية فى حين المعقول . . فكان للرجل أن يتخذ
أكثر من زوجة شرعية (١) وكان يستطيع أن يقتنى محظيات
عديدات فى نفس الوقت ولكن زوجه الشرعية كانت تلعب
دورا له قيمته فى حياة الأسرة . وفى صور المقابر تمثل

(١) لم يكن هذا أمرا شائعا بل أنه حال معظم المصريين اكفوا بزوجة واحدة وان
كنا أحيانا نجد زوجتين فى وقت واحد .

الزوجة دائما وهى تصحب زوجها سواء أكان يلهو أم يصيد
وكان اسمها يقرن بنعوت مثل « زوجته المحبوبة » . الأثرة
لديه « تكتب على كل الحوائط » . وكانت فى الحياة رفيقه
المبجل ومند أقدم العصور كان الأمر كذلك ودليلنا على هذا
أن الحكيم « بتاح حتب » فى كتاب وصاياه يقدم النصائح
التالية :

« إذا كنت رجلا معروفا فكون لنفسك أسرة وأحب
زوجك فى البيت كما يليق بها . املا بطنها واكس ظهرها
واعلم أن الضمox علاج لأعضائها » . أسعد قلبها ما دامت
حية لأنها حقل طيب لمولاه (١) » .

وبالإضافة الى ذلك فإن هناك أمرا أشد أهمية ذلك أن
التسب الى الأم كان أمرا يبرز بوضوح وكان يبين فى صورة
أوضح فى حالة الأسرة المالكة لأن فرعون لم يكن يستطيع
الوصول الى العرش أو يكتسب شرعية كاملة له ما لم يتزوج
من وريثة ملكية لأن ذلك كان يؤكد أن دم اله الشمس يجرى
فى عروق وريثه وأن الخط الشمسى النقى يظل مستمرا على
هذه الصورة . وقد شجع هذا المعتقد الدينى الملوك على
الزواج من أخواتهم وهو أمر لم يكن مستغربا لدى المصريين
بل وكان شائعا فى كل طبقات المجتمع .

أما المعظية فكانت شيئا آخر غير الزوجة الشرعية ولم
يكن لها وضع قانونى من أى نوع وكان من الممكن طردها
طبقا لأرادة مولاهم والأغلب أن المعظيات كن من طبقة
الخدمات اللواتى يستخدمن فى البيوت .

ان الضيوف يصلون تباعا بعضهم فى عربات وبعضهم
سيراً على الأقدام ويرحب بهم المضيف والمضيفة فى القاعة
الرئيسية . وللتو تبدأ الوجبة ولكن على كل ضيف أن يفتسل
فيصب الماء على يديه فى حوض الاغتسال قبل أن يأخذ مكانه

(١) الترجمة مأخوذة من أرمان وبلاكمان فى كتاب « آداب قدماء المصريين » .

المعين له ولما كان الكاهن الأكبر لأمون وكاهنه الثانى. أكبر الضيوف مقاما فانهما يجلسان على مقاعدالى جانبى «نسامون» وزوجته فوق منصة الطوب المرتفعة أما باقى الضيوف من ذوى المراتب الرفيعة كذلك فلهم كراسيهم فى أنحاء الغرفة وأما الباقون فيجلسون على الحصائر فوق الأرض *

وحيث يجلس الضيوف جميعا يقدم خادم لكل مدعو من المدعوين زهرة لوتس وكان من المعتاد أن يلهو الانسسان بالزهرة فيشمها أو يقربها من أنف جاره أو جارته *

وتمثل المجموعة من المدعوين منظرا يبعث السرور فى النفس (لوحة ١١) فالرجال والنساء يرتدون الكتان الأبيض المقوى (لوحة ١٢) ويلبسون شعورا مستعارة مجمدة (لوحة ١٣ شكل ٢) سوداء اللون فوق شعورهم الأصلية (٦) * وحول رقابهم قلائد لامعة من الخرز المزجج من مختلفه الألوان (لوحة ١٤ شكل ٢) كما أن هناك معاضد وخلاخيل حول الأذرع والسيقان وكان بعضهم مثقوب الأذن حيث يضع حلقانا دائرية ضخمة من القاشانى الملون * أما الحواجب عند الرجال والنساء فكانت تطلّى بطلاء أسود * وأما أظافر اليدين والقدمين فكانت تصبغ بالحنة * وكان خضاب العين الذى يماثل الكحل اليوم فى مصر من نوعين الأسود والأخضر وكان يوضع فى أوان صغيرة من المرمر أو القاشانى أو أية مادة أخرى وهناك نماذج لهذه الأواني فى المتحف البريطانى (تمثلها لوحة ١٥) ومعها مراودها الصغيرة التى تستخدم فى التكحل ولعل أجدرها بالعناية هما رقما ٢٧٣٧٦ و ٢٥٧٣ أما الأول فمن القاشانى الأزرق وعليه اسم ثوت عنخ آمون باللون الأسود * وأما الآخر فمن القاشانى الأبيض

(١) كان المصريون يصبون شعرهم عادة مصا تعبيرا تحت الشعر المستعار أما شعر النساء فلم يكن من الضرورى أن يكون كذلك وكان الشعر المستعار يصنع عادة من الشعر البشرى *

وعليه اسم توت غنخ آمون وزوجه الملكة غنخ اس ان آمون،
وكان الجفنان والحاجبان تدهن بالكحل جميعها بنفس
الخصاب وكان يضاف خط سميكة تحت العينين لتظهر
متسمتين ويمكن مشاهدة صندوق خشبي للزينة لسيدة
مصرية فى لوحة ١٦ التى يظهر بها أثناء ان من المرمر للدهون
واناء كحل مزدوج ومشط وزوج من النعال وأشياء أخرى .

ها هو ذا الطعام يوضع بالقرب من الضيوف على مواثد
منخفضة وفى كل جوانب القاعة جرار النبيذ مثبتة فى قواعد
ومزينة بالزهور . أما العشاء فوافر الكمية يحوى شواء
اللحم البقرى والدجاج والبط الحمام والخضراوات والفاكهة
وكمية ضخمة من مختلف أنواع الخبز المصنوع فى مختلف
الأشكال . أما الشراب فجعة الشعير والنبيذ الذى يوضع فى
جرار النبيذ التى تحمل اسم الكرم والعام الذى تم فيه تعبئته
(لوحة ١٧ شكل ١) ان الضيوف يشربون فى هذه الوليمة
من أكواب يعنى الخدم بأن تظل دائما مليئة وهناك طريقة
تختلف عن ذلك تماما فيما يتصل بامتصاص النبيذ كان
يستخدمها المصريون وهى أسلوب ربما نقل عن آسيا مؤداه
استعمال مصاصة تظهر أهم أجزائها فى (لوحة ١٧ شكل ٢)
وهى عبارة عن أنبوبة على شكل الزاوية من المعدن وهو هنا
من الرصاص تثبت فى كل من فرعيتها قصبة فى جرة النبيذ
حيث تنتهى بمصفاة من الرصاص . هكذا كان الشخص الذى
يشرب على هذه الصورة قادرا على الجلوس على كرسى مريح
وهو احتياط ثراه بالغ الضرورة حين نتخيل النتائج التى
قد تنجم عن مزاح يشك فى آثاره وهو ما فعله اليوم حين
نغرى شخصا بأن يشرب كوبا من ال « بورت » عن طريق
المصاصة .

وفى نفس الوقت تلعب إحدى الفرق الموسيقية المكونة
من فتاة ومعهما جنك خفيف (لوحة ٥ شكل ١) ورجل يلعب
على العود وآخر يداعب أوتار جنك ضخمة ينهض على الأرض .
وتضم هذه المجموعة امرأتين : احدهما تضرب على دف مستطيل.

والأخري تعزف على المزمار (لوحة ٤ شكل ٢) ثم ثلاث نساء
اخرى يجلسن على الأرض ويصفقن بأيديهن في ايقاع
منتظم مع الموسيقى . ومن وقت لآخر ينشد الموسيقيون
أغنية يمجّدون فيها روعة حليبه وإلهها آمون رع ، مثل :

« ما أقوى آمون رع المحب الإلهي حين يشرق في الكرنك
مدينته سيده الحياة » أو « ما أسعد معبد آمون . . حتى تلك
التي تقضي أيامها في اعياد مع ملك الآلهة فيها . . انها مثل
امراة مخمورة تجلس خارج غرفتها بشعرها غير
المربوط (١) » .

وحين يتناول الضيوف طعامهم يتقدم خادم يدور باناء
من المرمر مليء بالدهون ذات الرائحة ويأخذ منه جانبا
يضعه فوق رأس كل ضيف . وحين تمتد الحرارة الى الدهن
يذوب ويسيل على رأس الشخص ووجهه فيدخل الى نفسه
سرورا او سعادة كبيرين أما ما يحدث للشعر المستعار بعد
ذلك فامر نتركه للخيال (٢) .

وخلال ذلك كله كان الشراب يدور في حرية والنساء
يقرعن أكوابهن مع الرجال وتقول واحدة « ناولني ثمانية
عشر قدحا من النبيذ اننى أريد أن أشرب حتى انتشى . . أن
داخلي مثل القش » وسرعان ما يحل السكر بنصف الجماعة
وتبدأ الأحداث التي تدعو الى الأسى تحل بها فواحدة من
الجالسات على الحصر ترى شعرها المستعار على جانب من
رأسها وتوبها ينزلق عن احدى كتفيها ومن الواضح أنها
تحس بأنها ليست على ما يرام فيندفع نحوها خادم باناء . .
ولكن الوقت يكون قد فات للأسف .

(١) توجمة الدكتور جاردينر The Tomb of Amenemhet, D. 63 .

(٢) في الصور الملونة نرى ذى المصرى يظهر دائما منطى ببقع مائلة الى السمرة نتيجة
سقوط الدهن عليها (مثل لوحة ١١) .

١ . أما كاهن آمون الأكبر الذى تناول وجبة عشاءه فى زهد واضح فقد بدا يلقي نظرة على المنظر الصاخب بعينين نفاذتين . . . وأما « نسامون » فيدرك ان الوليمة يجب ان تنتهى عند هذا الحد . . . فينادى احد خدمه وينبه عليه بأن يخبر أتباع هؤلاء الضيوف الذين امسوا غير قادرين ان يأتوا لأخذ ساداتهم وسيداتهم . . . وحين تتم معاونة أولئك على الوصول الى الباب يحس بقية الزوار أنه من الواجب عليهم كذلك ان ينصرفوا ولذا فانهم يستأذنون فى أن يفسادوا الدار وأخيرا يذهبون جميعا ولا يبقى سوى صوت عازف الجناك يغنى أغنية تسمع عادة فى ولائم الجنائز ، ولكنها تمثل وجهه نظر المصريين فى الحياة .

« تذهب الأجساد وتبقى أخرى منذ زمن أولئك الذين مضوا من قبل : أن الآلهة الذين كانوا فيما مضى يستقرون فى أهرامهم وكذلك النبلاء والمجسدون المدفونون فى أهرامهم .

وأولئك الذين شادوا المنازل . . . أين سكانها .

وماذا جرى لهم .

لقد استمعت الى أحاديث أمحتب وحرددف (١) التى يرددها الناس فى كل مكان . . . أين مسكناهما الآن ؟ لقد سقطت جدرانها ولم يبق لها أثر كأن لم تكن موجودة من قبل .

لا أحد يعود من هناك حتى يقص علينا ما جرى لهم .
أو ما يحتاجون اليه . حتى تستريح نفوسنا الى أن نذهب نحن كذلك الى حيث ذهبوا .

(١) حكيمان قديمان مشهوران .

أمرح حتى ينسى قلبك أن الرجال سيطوبونك يوما (١)
اتبع رغبتك طالما أنت حي . . ضع المر على رأسك
وارتد الكتان الرقيق .

وضمخ نفسك بما وهب الله من الروائع الحقيقية .

ضاعف أفراحك ولا تدع قلبك يذوى . . أتبع رغبات
قلبك واصنع الطيبات لنفسك ، افعل ما تريد على الأرض
ولا تجعل قلبك يضيق ذرعا بك حتى يأتي يوم العسويل . .
ومع ذلك فإن ذا القلب الساكن (٢) لا يسمع عويلهم . . .
والصراخ لا ينجي الانسان من العالم السفلي (٣) » .

(١) احتفال من الجازة .

(٢) أوزيريس إله الموتى .

(٣) ترجمة أرمغان وبلا كما السابقه

الفصل الثالث

الآلهة وعبادتها

« لقد سمعنا حتى الآن بعض الشيء عن آلهة المصريين وعن آمون بصفة خاصة فلنتعرف اليهم في هذا الفصل أكثر من ذي قبل لنذكر أية صورة اتخذتها عبادتهم »

أنه لم يكن هناك شيء يعرف باسم « دين مصرى » ذلك لأن كل مقاطعة كان لها آلهها الخاص وقصة الدين فى مصر القديمة هى القصة التى تحكى كيف أن هذا الإله أو ذاك نجح كنتيجة لأحداث سياسية فى أن يستحوذ على الزعامة فترة من الزمان . ومع ذلك فقد كان هناك إلهان ظلا أهم الآلهة طوال التاريخ هما : إله الشمس وأوزيريس (لوحة ١٨ شكل ١) الذى كان هو النيل والتربة والزراعة فى وقت من الأوقات . ولقد كانت الشمس والنيل بالنسبة للمصريين أقوى مظاهر الطبيعة التى تتحكم فى حياتهم ولذا اتجهت العبادة الأساسية إليهما . ولقد كانت المعتقدات المتصلة بإله الشمس وأوزيريس متباينة أصلا ، فالأول كان فى نظرهم ملكا يحكم فى السماء على حين كان الآخر يحكم المملكة الموحدة تحت الأرض . وكان إله الشمس يستقبل رعاياه حين يموتون فى مملكته السماوية أما أولئك الذين يعبدون أوزيريس فينزلون إلى العالم السفلى . وبمرور الأيام اختلط الدينان ببعضهما حتى لفرى فى الدولة الحديثة أنهم كانوا يعتقدون أن إله الشمس كان يزور دولة أوزيريس فى الليل وينيرها بضوئه .

وكان مقر اله الشمس مدينة هليوبوليس وهي تقع في شمال شرق القاهرة الحالية وكان يعبد هناك كرع وأتوم وهو كرع يمثل على شكل رجل برأس الصقر يضع فوق رأسه قرص الشمس المحوط بصصل وهو كأتوم يظهر في الصورة الانسانية لابساً التاج المزدوج لمصر * وكان رع أتوم طبقاً للأساطير خالق نفسه بنفسه وهو الذى خلق أولاً الآلهة بأن يصق من فمه الاله شو والآلهة تفنوت وهما تجسيدان للهواء والرطوبة على التوالي ثم رزق هذا الزوج بطفلين هما جب اله الأرض ونوت الهة السماء وحين تعانق الاثنان فصلهما شو ورفع نوت عالياً تاركاً جب مستلقياً الى أسفل * وهكذا استقرت السماء والأرض كل في مكانها ثم رزقت نوت من جب بأطفال أربعة : هم أوزيريس وايزيس وست ونفتيس * ويكون هؤلاء الآلهة التسعة التاسوع الأكبر لمدينة هليوبوليس *

وفى المصور العتيقة المبهمة قبل أن يلى الرجال العرش كانت الآلهة تحكم مصر وكان رع اله الشمس أول ملك الهى * وكان حكمه مجيداً ولكن حين تقدمت به السن وأصبحت «عظامه فضة وجسده ذهباً وشعره لازورداً حقيقياً» بدأ البشر يأتمرون به وسمعهم رع واستشاط غضباً فدعا مجمع الآلهة ليروا رأيهم فيما يصنع بالبشر الذين خلقهم وجاء القرار بأن تخرج عين رع فى اشد صورها رعباً وهي صورة حاتحور وتذبح الجنس البشرى ونفذ القرار وبعد أن أفنت الآلهة عدداً ضخماً من البشر هدأت نفس اله الشمس * ورأى أن حاتحور تستمتع بذلك الأمر وانها لا تطيق أن تكف عنه فاتبعت الحيلة للأبقاء على البشر وذلك بأن عصرت وجهت سبعة آلاف جرة من الجعة القوية ولونت باللون الأحمر حتى تحاكى دم البشر وأريقته على الأرض حتى غمرت الحقول فلما جاءت حاتحور فى اليوم التالى لتستأنف مهمة الذبيح وجدت صورة وجهها منعكسة على

صحفة الجمعة فتوقفت لنشر بها « وشربت واستمتعت بالشراب حتى انتشيت فلم تعد تعرف البشر » *

وكان إله الشمس يبحر كل اليوم في قاربه عبر السماء من الشرق إلى الغرب وكان الآلهة هم بحارته الذين يقومون على خدمته * وكان هو طفلاً صغيراً حديث الولادة عند الفجر ولكنه كان يسارع في النمو كلما تقدمت الساعات حتى لنراه في وسط النهار رجلاً مكتمل القوة ثم يبدأ يتقدم في السن بعد الظهر حتى تأتي ساعة الغروب فيتحول إلى شيخ أحنى الضعف ظهره *

وكان يسعد المصري أن يشهد الشمس ساعة شروقها وكانت قصارى آماله أن يحيا بعد الموت وقد جاء في الفصل الخامس عشر من كتاب الموتى « تحية لك أيها القرص يا سيد الأشعة الذي يضيء في الأفق كسل يوم » أشرق في وجهه الأوزيريس (س) (١) إلا ليتقدم نحوك بالعبادة في الصباح الباكر إلا ليهدئك في المساء دع روح الأوزيريس (س) تصعد معك إلى السماء * دعه يرتحل في قارب المعنجات (٢) « دعه يدخل إلى المرقأ في قارب المسككت * دعه يمتزج بـنجوم السماء التي لا تفنى * * الولاء لك أي حورختي الذي هو خيرى خالق نفسه * ما أجمل اشراقك في الأفق حين تضيء الأرضين بأشعتك * ان الآلهة جميعاً يسعدون حين يشهدونك كملك في السماء » *

وعلى ذلك فإن الشخص كان يأمل سواء أكان رجلاً أم امرأة أن يحمل في قارب الشمس وأن يبحر عبر السماء في حضرة رع ذى البهاء *

(١) يوضع هنا اسم الميت *

(٢) اسمان لقاربى رع اللذين يستعملهما الأول قارب الصباح والثاني قارب المساء والليل *

ولم يكن إله الشمس يرتحل عبر السموات في هيئة رجل برأس صقر فحسب بل في صورة جعل هو الجعل المقدس . وكان من عادة هذه الحشرة أن تضع بيضها في كتلة من الروث كمثرية الشكل تدفنها بعد ذلك وحين تفقس اليرقات تغتذى الصغار على الروث . ذلك إلى أن الجعل يصنع كرة من الروث لطعامه يدحرجها على الأرض بين ساقيه . . ولما كان المصريون يجهلون كتلة الروث الكمثرية الشكل ويظنون أن كرة الطعام هي التي تفقس منها اليرقات فقد رأوا في الجعل رمزا لإله الشمس يدحرج أمامه قرص الشمس عبر السماء . ولما كانت الشمس مصدر الحياة وهي في الوقت نفسه خالقة نفسها فانه كان يظن كذلك أن صغار الجعلان كانت تأتي من لا شيء . . وكانت المقارنة صارخة ولذا فأنت تجد إله الشمس يصور غالبا في صورة الجعل المقدس من الأحجار المزججة أو القاشاني برسوم ونقوش محفورة على قاعدتها واستخدمت كأختام وتمائم وتزخر بها اليوم المتاحف والمجموعات الخاصة .

وحين يحل المساء وينزل إله الشمس خلف التلال الغربية كان يدخل إلى بوابة العالم السفلي . ولقد أبحر قاربه حتى الآن عبر النيل السماوى أما الآن فالنهر يجرى فى جوف الأرض خلال اثني عشر كهفا مظلمة تقابل ساعات الليل الاثنتى عشرة . ولاوزيريس السيادة فى هذا الاقليم فهو يحكم الموتى . بل أن إله الشمس نفسه يعتبر من بين الأموات ذلك لأنه فى هذا الجانب من رحلته لا يدعى « رع » بعد بل يدعى « أيوف رع » التى تعنى « جثة رع » . وكل قسم من الدوات أو « العالم السفلى » تحميه بوابة تحرسها أفاع مفترسة تنفث النار وتعتمد أرواح المرتحلين المبحرين مع إله الشمس على قوته فى حمايتهم وفى اختراقهم إياها سالمين . وبين القسمين : الخامس والسادس من الدوات تقع قاعة المحاكمة لأوزيريس وهنا يقرر مصير الأرواح . وحين يشق قارب « أيوف رع » طريقه يجره شياطين العالم السفلى

يشاهد الموتى المياركون والأشرار المعذبون فيضرح الأخيار لفترة قصيرة بالضياء الذى أتى به إله الشمس إلى عالمهم المظلم . أما أقسى معنة يمر بها قارب الشمس فهي مقابلة الشعبان المسمى عابى الذى يحاول ابتلاع الإله وحاشيته ولكن سحر أيوف رع بالغ حد القوة مما يرد الوحش مهزوما على الدوام . وعلى ذلك فإن إله الشمس يتدفع فى كل بهاته فوق الجبال الشرقية حيث يبدأ يوم جديد . وطالما تتردد قصة هذه المرحلة بالكلمات والصور فوق حوائط المقابر الملكية الكبرى « فى وادى مقابر الملوك » بطيبة وهى ما يعرف بـ « كتاب الـ » ايمى درات « وهناك قصص مشابهة للرحنة كقصة « كتاب البوابات » ويستطيع القارئ أن يجد مثالا طيبا له منقوشا على تابوت من المرمر الجصيل صناع الملك سيتي الأول ثانى قراعتة الأسرة التاسعة عشرة (حكم بين ١٣٢٠ - ١٣٠١ ق م) محفوظ فى متحف سون فى لنكولنز ان فيلدر .

وكان ملك مصر الممثل الأرضى لإله الشمس فهو ابنه وتجسده الفعلى . وكان الإله الصقر القديم حوريس وهو صورة من إله الشمس هو المعبود الراعى للخط الملكى وطالما كان يشار إلى الملك كأنما هو « الحوريس » . وكان الملك نفسه فعلا واحدا من الآلهة ولكنه كان يسمى فقط « بإله الطيب » خلال حياته وهو « يصبح » الإله « العظيم » بعد موته . وحين يولد الملك كان يظن أن إله الشمس يظهر لأمه فى صورة زوج لها وعلى ذلك فإن الطفل الذى يحمل به كان كله إلهيا .

ولما استولى أمراء المدينة الجنوبية (طيبة) على عرش مصر وأسسوا الأسرة الحادية عشرة ارتفع إله هذا الاقليم إلى مركز السيادة حتى تساوى مع إله الشمس . وكان هذا الإله يسمى آمون وكان أصلا معبود الريح ثم عبد فيما بعد كتجسيد لقوة الطبيعة المنتجة وكمعبود للتناسل الجنسى . ويمثل عادة (لوحة ١ شكل ٢) على هيئة رجل ملتحي يضع

فوق رأسه ريشتين ويمسك في يده بصولج أو في صورة
إله المتطقة المجاورة وهو الإله « من » يضع نفس الريشتين
ولكن ذراعه اليمنى مرفوعة تمسك بسوط وعضو تناسله
منتصب .

ولكى يؤمن كهنة طيبة مركز الصدارة لإلههم قرنوه باله
إشمس القديم ومن هنا عرف تحت اسم آمون رع إله الدولة
الاب الإلهي للملك الأسرة الثامنة عشرة والأسرات التالية .
وأمون رع « ملك الآلهة » هو الذى ساعد أمراء طيبة على
طرد الهكسسوس المكروهين ملوك الرعاة من مصر وعلى
تأسيس الأسرة الثامنة عشرة . وأمون رع هو الذى ساعد
فرعون ابنه على الانتصار فى حملاته الخارجية وعلى إخضاع
سوريا وفلسطين والنوبة لجيوشه الفاتحة . واننا لنرى
الفرعون تحوتمس الثالث الذى كسب لمصر امبراطوريتها
الآسيوية يقف أمام آمون فىخاطبه الإله قائلاً :

« أنت تأتى الى وتيسعد حين تشهد مفاتنى أى بنى
وحارسى « من خير رع » الذى يعيش الى الأبد . . . أنا
أضئ حياً لك . قلبى يسعد بقدمك الجميل الى معبدى
ويداى تفيضان الحماية والحياة على أعضائك .

لقد جئت لأجعلك تظاً أمراء فلسطين . . .

اننى أنثرهم تحت قدميك فى اتجاه بلادهم .

اننى أدعهم يشهدون جلالتك كسيد للأشعاع .

أنت تضيئ فى وجوههم .

لقد أتيت حتى أدعك تظاً أولئك الذين فى آسيا .

أنت تضرب رموس آسيوى رتنو .

أنا أجعلهم يشهدون جلالتك مزوداً بكامل عدتك الحربية
حين تمسك بأسلحة الحرب فى العربة .

لقد أتيت لأجعلك تطأ أولئك الذين في
أراضي متن ترتعد خوفا منك .
أنا أجعلهم يشهدون جلالتك كتمساح .
سيد الرعب في الماء الذي لا يستطيع أحد أن يقترب منه
لقد أتيت لأجعلك تطأ أولئك الذين في الجزر .
أولئك الذين في وسط البحر الأخضر الكبير يخشون
صرختك للحرب .
أنا أجعلهم يشهدون جلالتك كبطل .
ظهر في بهائه على ظهر فريسته (١) » .

و حين كان يعود كل فرعون بالغنائم والجزى ليسلا
خزائنه كان يضيف مبنى وراء مبنى لبیت آمون في طيبة
حتى أصبح أكبر هيكل في العالم القديم . ولم يلق آمون
تقديره في مصر وحدها بل أن هناك معابد بنيت تكريما له
في فلسطين وسوريا وفي النوبة في الجنوب . وأما في مصر
فإن كهنته سرعان ما أصبحت أقوى العوامل السياسية .

أما مجال نفوذ أوزيريس في أبيدوس مركز عبادة
الاله اذ ذاك فكانت جد مختلفة عن دائرة آمون رع . وكان
الاعتقاد يسود بأن أوزيريس نفسه (لوحة ١٨ شكل ١)
كان مدفونا في هذه الناحية وكان كل مصري يأمل أن يدفن
هناك كذلك في كنف « سيد الأبدية » ولما لم يكن هذا
مستطاعا دائما لجأوا الى وضع بديل فأصبحت العادة السائدة
أن يقام أثر من نوع ما في النواحي المجاورة . وكانت تمثل
كل عام مأساة دينية في أبيدوس تصور آلام الاله وموته
وأنه لمن حسن الحظ أن حفظ لنا ملخص لها قصة أحد الموظفين
الذين كان لهم دور فيها .

(١) ترجمة أرميان وبلاكمان السابقة

ومنذ بدء الأسرة التاسعة عشرة كانت قبور قدماء ملوك الأسرة الأولى في أبيدوس قد أعيد الكشف عنها * وكنتيجة لخطأ في نطق اسم واحد من هؤلاء الملوك ظن خطأ أنه قد عثر على قبر أوزيريس الحقيقي ولذا فإن مكان القبر غطى في السنوات التالية بمسد لا يحصى من الأوانى التى تحوى التقدّمات التذرية التى يقدمها الحجاج *

وكانت أبيدوس على ذلك مرتبطة فى الفكر المصرى بالموت * وكان كل مصرى ومصرية يرى من واجبه أن يحج الى هذه الناحية ليتعبد لأوزيريس وليلتمس منه نصيبا من مملكته فى العالم الآخر * ومن بين المناظر الملونة التى تزين حوائط المقابر المصرية نستطيع أن نميز صور الحج وكان من الواضح أنهم اعتقدوا أن هذه الصور كان من الممكن أن تحل محل عملية الحج إذا لم يكن الميت قد استطاع أدائها خلال حياته *

وكان هناك إله آخر بالغ الأهمية هو « بتاح » الذى كان يعبد فى منف وكانت هذه المدينة تعرف فى الأزمان القديمة تحت اسم « الحائط الأبيض » وتقع على الضفة الغربية للنيل مقابل المكان الذى تشغله مدينة القاهرة الحالية * وفى بدء العصر التاريخى كان لها المكان الأول فى مصر * وتحدثنا الأساطير أن مينا مؤسس الأسرة الملكية الأولى اختار هذا المكان ليجعل منه عاصمة له * ويمثل الإله بتاح دائما على صورة رجل ملتج يرتدى ثيابا محبوكة تبرز منها يداه حاملة الصولج وكان يعتبر الإله الفنان ولذا قرنه اليونان فى العصور المتأخرة بـ « هيفاستوس » وكان الكاهن الأكبر لبتاح يحمل لقب « رئيس الصناع » وكان له مركزه البالغ الخطورة بين مختلف كهانات البلاد * وكان أشهر من شغلوا هذا المنصب على مجرى التاريخ المصرى « خع أم واس » الابن المقرب لرعمسيس الثانى ثالث ملوك الأسرة التاسعة عشرة وأشهر فراعينها والذى لم يعش ليخلف أباه ولم يكن « خع أم واس » كاهنا فحسب بل كان كذلك ساحرا عظيما

وظلت قصص سحره وما آتاه من أعمال عجيبة تروى حتى
العصر الروماني وهناك تمثال جميل له كان قد نصب أصلاً
في أبيدوس يوجد الآن في المتحف البريطاني وعليه نقوش
ذات صبغة سحرية .

وكان كهنة بتاح يعارضون الثعاليم اللاهوتية لهليوبوليس
معارضة مباشرة إذ كانوا يعتقدون أن بتاح كان خالق العالم
وأنه تبعاً لذلك لم يلعب أتوم إله الشمس سوى دور ثانوي .
ولدينا بالمتحف البريطاني نص ديني يتحدث عن كيفية
ظهور أتوم في أول الأمر كفكرة في قلب بتاح وكلمة
استطاعت أن تتردد على لسانه . ولعل هذا يذكرنا للتو
بمذهب الـ « كلمة الأبدية » الـ « لوجوس » .

وهناك إله آخر هام جداً التقينا به من قبل هو إله
« تحوت » الذي كان يعبد في هرموبوليس في مصر الوسطى .
ولا يمثل تحوت بتاتاً في صورة بشرية كاملة ولكن على شكل
رجل برأس أبي متجمل وكان « تحوت » كاتب الآلهة ومخترع
الكتابة وحامي العلم والمتعلمين عامة . وكان رئيس كهنته
يحمل لقب « كبير الخمسة » .

أما خنوم إله برأس الكيش فقد شكل أجساد الرجال
والنساء على هيئة الفخار وكان يعبد في أماكن عدة في
مصر . وهو يعرف أكثر ما يعرف لدينا كمعبود للاقليم
الواقع حول الجندل الأول ، الحد الجنوبي لمصر ، حيث كانت
تقوم عبادته مع الهتين هما : ساتت وعنقت .

وكان الناس يعبدون في مدينة سايس في الدلتا إلهة
تسمى « نيت » وهي تمثل عادة تلبس التساج الأحمر للدلتا
وتمسك بقوس وسهام في يدها . وهناك الهتان أخريان
هامتان هما نخبت العقاب واورتوصل الكوبرا وهما المعبودتان
الحاميتان لمصر العليا والسفلى على التوالي في عصور ما قبل
التاريخ وقد ظللنا كذلك حتى نهاية التاريخ المصري . وكان
فرعون يلبس على جبهته العقاب والصل . كرمزين لسلطانه

على مصر كلها . وكان الصل بصفة خاصة هاما وهو أولا وقبل كل شيء رمز الملكية وحين كان فرعون يذهب الى ساحة الحرب كان يقال ان الصل على تاجه ينفث النار على أعدائه .

أما الالهة التي لعبت الدور الأكبر بعد ايزيس وكانت تقترب منها غالبا فهي «حاتحور» التي كان هيكلها الرئيسي في دندرة . وكانت «حاتحور» أصلا الهة على شكل البقرة وانها لتشاهد بهذه الصورة وهي ترضع الملوك الصغار . ولكن أهم أدوارها في هذه الصورة هو دورها كالهة للسماء . بيد أن السماء كانت تمثل في الصور المصرية عادة كاتما هي الالهة «نوت» وهي امرأة تنحني فوق الأرض ورأسها الى الغرب وجسدها مغطى بالنجوم وهكذا تلد اله الشمس كل صباح ويرتحل فوق جسدها في قاريه حتى يدخل الى فمها في المساء ثم تبدأ العملية ثانية وهكذا دواليك . ولكن كان يحدث غالبا ان تمثل السماء في هيئة بقرة كبيرة هي الالهة «منحت ورت» أو الالهة «حاتحور» . ويرتحل اله الشمس عبر جسدها بنفس الطريقة . وكانت «حاتحور» تعبد كذلك كالهة الحب والمتع الجسدية كما تعبد كذلك كحامية لحيوانات طيبة وهو أمر على نقيض ما عهدناه . وكانت آله موسيقية تعرف باسم الصلاصل (لوحة ٥ شكل ٢) تعتبر مقدسة «لحاتحور» وهي التي كانت تستعملها الكاهنات في خدمة المصابيد في مصر كلها . وتمثل «حاتحور» في صورتها البشرية كامرأة تضع فوق رأسها قرني بقرة يتوسطهما قرص الشمس (لوحة ١٨ شكل ٢) .

«ولنعبد أخيرا الى طيبة حيث يرتبط الاله آمون رع بمعبودين آخرين هما زوجه موت وهي في الأصل الهة العقاب ولكنها تصور الآن عادة في صورة بشرية ثم ابنه خونسو ويرى دائما في زي أمير صغير يضع خصلة الشعر الجانبية الخاصة بالشبان على رأسه . ويكون آمون رع وموت وخونسو معا ثالوثا . ولقد كان الأمر كذلك في كثير من المدن

المصرية . وقد دعت الأحداث السياسية الى ادخال عدد من الالهة فى مجموعات مترابطة وهكذا تكون « ثالوث » من أب وأم وابن . وكان الأب هو الاله الاصلى للمدينة . وقد ارتبط بتاج منف بهذه الصورة بالالهة برأس اللبؤة سخمت كزوجة له ونفرتم الاله الذى يحمل اللوتس فوق رأسه كاين له . كما أن حوريس اله ادفو تزوج من حاتحور الهة دندرة . . الخ .

اما مظهر الدين المصرى الذى ربما يصدم الدارسين المحدثين اكثر من غيره فقد كان عبادة عدد من الحيوانات والالهة اشباه الحيوانات التى كانت تعبد ، ولتردد كلمات ملنون فى فردوسه المفقود :

« وبعد ذلك ظهرت جماعة وراء أسماء ذات شهرة قديمة مثل أوزيريس وايزيس وحوريس وأتباعهم ولسكنهم فى صورة كريمة أسماء استعمال السحر . . . لقد سعت مصر المتعصبة وكهنتها وراء آلهة فى صور حيوانية بدلا من الصور الانسانية » .

وقد ربطت غالبية آلهة مصر والهاثا بعبادتها مخلوقا كانت تظهر فيه أمام البشر وكانت غالبا ما تمثل فى الصورة الانسانية برأس المخلوق المذكور . وقد تبع ذلك انه فى الناحية التى كان فيها حيوان ما يعتبر مقدسا لآلهة المحلي فان النوع كله كانت تمتد الحماية اليه وكانت توقع عقوبة قاسية على من يقتله أو يصيبه بأذى . وقد رأينا عددا من الآلهة الحيوانات وسنتناول بالوصف بعضها . وفى الاقليم الخصب المعروف اليوم باسم الفيوم كان الاله سوبك يعبد فى صورة تمساح وفى اقليم أسيوط كان الاله الذئب يسمى وب واوت « فاتح الطرق » وفى طيبة كان الكبش مقدسا لآمون وفى تل بسطة (بوباسطة) كانت الالهة القططة باستت تقدس (لوحة ١٩ شكل ٢) وفى كل مكان تقريبا كان الصقر مقدسا لحوريس اله الشمس . وحين كانت

تموت هذه المخلوقات سواء أكانت خاصة بمعبد أم يحتفظ بها كحيوانات مدللة فأنها كانت تحتفظ بعناية وتدفن في مدافن خاصة تكرس لها . وتحتوى خزانات المتاحف اليوم عددا من الموميات الحيوانية من كل نوع من قطط وصقور وثعابين وأبي منجسل وسماك الخ . (لوحة ١٩ شكل ١) ومعظمها يرجع الى العصر المتأخر من التاريخ المصرى ذلك لأن عباد الحيوانات المقدسة لم تتخذ صورتها المتعصبة سوى فى فترة انحلال الحضارة المصرية رغم أن العبادة ترجع الى أقدم العصور .

« وأشهر الحيوانات المقدسة كانت ثلاثة ثيران : الواحد منها فى هليوبوليس هو ثور منيفس والثانى فى منف وهو الثور ابيس والثالث فى أرمنت قرب طيبة وهو الثور المسمى بأخيس وأشهر هذه جميعا هو ابيس الذى قدس لبشاح اله منف وكان يعتبر تجسيدا لأوزيريس . وحين كان يختار ابيس كانت تميزه علامة مثلث ابيض على جبهته وعلامات أخرى وكان يحمل فى مركب الى منف وسط أفراح كبيرة وهناك كان يحتفظ به فى محراب خاص ويستشار فى العرافات . وفى ايام الأعياد كان يقساد فى موكب خلال المدينة وحين يموت كان يحتفظ تحنيطا فخما ويدفن فى قبر العجول المقدسة ويختار ابيس آخر بدلا منه » . ويستطيع من يزور مصر اليوم أن يسير خلال الأقبية المعتمدة للسرايسوم فى سقارة ويرى التوابيت الضخمة المصنوعة من كتلة واحدة من الحجر التى كانت توضع فيها لتستريح « أرواح اوزيريس الحية » .

وكان ثور منيفس فى هليوبوليس يعتبر تجسيدا لرع اله الشمس وكذلك كان ثور بأخيس فى أرمنت وخلال السنوات الأربع الأخيرة كشف رجال جمعية استكشاف مصر* عن أقبية دفن بأخيس وهسكدا أمكن معرفة الكثير عن طريقة عبادته . ولعل أكثر ما يثير الاهتمام فيما كشف

(*) جمعية علمية بريطانية تأسست فى القرن التاسع عشر لدراسة الآثار المصرية والتنقيب عنها وكان من أبرز رجالها ولیم فلندرزيتى .

عنه هو مجسومة من اللوحات الحجرية تحمل كتابة هيرغليفية تذكر كل منها أن « الروح الحية لرع » توجهت ثم تذكر عمره عند موته وتفاصيل أخرى *

ولنعد الآن إلى تلك الليلة حين أقام « نسامون » وليمة عشاء لصحبه ولنصحب باكن خونسو كبير كهنة آمون عند عودته إلى معبد الكرنك . لقد لف نفسه في معطف وصحبه الكاهن الثانى وسار معه فى هواء الليل البارد ثم صعد إلى عربة كانت فى انتظاره . وكانت رحلة العودة إلى المنزل تمر بطريق المواكب الذى يصل ما بين معبدى الأقصر والكرنك ويحف به من كلا الجانبين صفان من أبى الهول برءوس كباش . وبعد أن تجاوزا معبد خونسو نراهما يقتربان من أبراج الصرح للمعبد الكبير لآمون رع . ولكنهما لا يدخلانه من الباب الرئيسى بل من أحد الأبواب الصغيرة الجانبية المخصص استعمالها للكهنة *

وأهم خصائص المعبد المصرى (١) منذ الأسرة الثامنة عشرة وما بعدها يمكن وصفها على الوجه التالى : كان يوصل إلى المدخل الرئيسى (لوحة ٢٠) طريق من أبى الهول - وفى حالة الكرنك كان هذا الطريق يؤدى مباشرة إلى رصيف الميناء حيث تخرج المواكب الدينية إلى النهر - وتتكون واجهة المعبد من برجين ضخمين نسميهما الآن الصرح وهو مبنى بتصميم مائل ومزين بأربع ساريات أعلام مثبتة فى فرجات داخلية فى سطحها الخارجى . وفى أعلى الساريات ترفرف أعلام وضيئة الألوان . والأبواب نفسها من خشب ثقيل وكانت تقوم بين الصرحين وتؤدى إلى فناء واسع محوط ببوائك ومن هذا الفناء يستطيع الزائر أن يمر إلى قاعة الأعمدة التى يعرفها الكتاب المحدثون تحت اسم « القساعة ذات السقف المرتكز على أعمدة » أو « بهو الأعمدة » Hypostyle Hall

(١) يمكن الرجوع إلى كتاب Egyptian Temples by Margret A. Murray

للموصول إلى معلومات مفصلة عن معابد مصر والسودان *

ومنها الى الهيكل الحقيقي لباله وهو غرفة مستطيلة وكان يوجد حول الهيكل عدد من الغرف بعضها مصليات مكرسة للالهة والالهات المرتبطة بالمعبود الرئيسى للمعبد والاخرى تستعمل كمكان للملايس أو كمنحازن * وكانت تنقش واجهة الصروح بصور ضخمة تمثل الملك وهو يقضى على أعدائه يصولجه أو يفوق نحوهم سهامه من عربته * أما الحوائط الداخلية للفناء والقاعات فكانت مغطاة بنقوش تمثل المواكب الدينية كما يظهر فيها الملك وهو يتلقى العطايا من الالهة أو وهو يفسح أمامهم الأسرى والغنائم * وكانت تيجان الأعمدة تمثل رباطات من براعم اللوتس وبعضها الآخر يمثل زهرة البردى المتفتحة * وكانت تنقش فوق الأعمدة صور الالهة والملوك وكانت لكل المناظر كتابة هيرغليفية توضحها وكانت الالوان الزاهية تستعمل ولعل ما دعا الى ذلك انه باستثناء الفناء المفتوح كان داخل المعبد يكاد يكون معتما الا من بصيص ضوء يتسرب اليه من خلال النوافذ البعيدة الارتفاع *

هذه صورة مختصرة لمعبد مصرى فى أبسط أشكاله ولكن بعض الإضافات كانت تدخل فى هذا التصميم فمعبد آمون فى الكرنك وهو أكبر المعابد المصرية كان به معبدان صغيران لآمون وموت وخونسو فى الفناء الخارجى * وإلى جانب بهو الأعمدة الضخم الذى شاده سيتى الأول نرى خمسة صروح وعددا من الأبنية الأخرى تقع ما بين الفناء والهيكل أضافها فرعون الواحد بعد الآخر *

وحين دخل باكن خونسو الى المعبد دعا صاحبه الى الانصراف وشق هو طريقه بعد أن صعد الدرج الى السقف المستوى لأنه أراد أن يقوم بجولة تفتيشية على الكهنة الذين يرصدون النجوم وليتأكد من أنهم قائمون فى أماكنهم لأن ذلك كان من أهم أعمال الكهنة مادام الأمر كان يتطلب دراسة النجوم لتنظيم التقويم المصرى وخاصة بقصد أحياء الأعياد السنوية فى مواعيدها الحقيقية وكان الرجل المذموم به هذا

العمل يجلس على سقف المعبد يمسك أمام عينيه بأداة خشبية طويلة بها جز عند طرفها ويلاحظ الأوقات التي تعبر فيها نجوم معينة (يرصدها خلال الفتحة) الخيط العمودي لخيط المطمار الذي يمسك به كاهن مساعد يجلس على مسافة منه وبهذه الصورة كانت تحدد الساعات وترسم الخرائط وبعد سؤال الكهنة عن نتائج عملهم واعطائهم بعض النصائح ينزل ياكين خونسو وينصرف الى مخدعه .

وفي الصباح الباكر لليوم التالي حين يظهر أول أضواء الفجر على الجبال الشرقية يستيقظ الكاهن الأكبر ليسودي الطقوس اليومية . وكانت الخدمة في معظم معابد مصر في هذه الفترة تجرى على نسق واحد أساسه الخدمة اليومية في معبد رع في هليوبوليس . وكان الهدف الرئيسى من هذه الخدمة القيام بتزيين الاله وتقديم وجبة الطعام له .

ويضم هيكل المعبد الذى تقدم وصفه غرفة مستطيلة تقوم فيها مقصورة الاله . وفي المقصورة كان يوضع تمثال العبادة الخاص بالاله المصنوع من الخشب المقطى بالذهب وبأحجار شبه كريمة وهو قطعة من الفن الرائع . وكانت ابواب المقصورة تغلق بالمزاليج ويوضع عليها خاتم من العطين يكسر فى كل مرة تؤدى فيها الخدمة الدينية . وهكذا يدخل ياكين خونسو الى الهيكل وبعد أن يقوم بحرق البخور يكسر الختم ويفتح الابواب ويشهد الاله . وفي كل طقس يقوم به الكاهن الأكبر يتلو الصلوات المناسبة ويقوم بتعطير التمثال بالبخور ورشه بالماء والباسة الملابس الملونة وتاجه وأوسمته ثم أخيرا يقوم بدهان عينيه بالأدهنة العطرية وحين يتم ذلك كله يوضع الطعام والشراب أمام المقصورة ويبدأ الاله وجبته . ولكن الاله لا يستهلك الطعام المادى لأن طعامه روحى طبيعته غير أرضية . ونفس الأمر ينطبق على تقدمات الموتى الذين يتناولون الأطعمة ذات الطبيعة الروحية . وفي الحالين نرى الطعام لا يمسه الاله أو الميت وإنما يعتبر منحة للكهنة .

وفى مناسبات الأعياد الكبرى حين يترك الإله المعبد ويحمل فى الموكب (لوحة ٢٠) يرتحل فى قارب تمودجى مصنوع من الخشب المغطى بالذهب * وكان التمثال يوضع فى قمرة وسط القارب ويحمل قارب المقصورة بأكمله على أكتاف الكهنة * وكان عيد أوبت السنوى أهم الأعياد ذلك لأن الإله كان يقوم بزيارة خاصة لمعبد الأقصر حيث يفترض أن تقيم حريمه (كان معبد الأقصر يسمى « بيت آمون فى الحريم الجنوبي ») وكان فرعون (١) نفسه يقوم فى هذا المعبد بوظيفة الكاهن الأكبر وكانت تحمل قوارب المقاصير لآمون وموت وخونسو فى النهر إلى الأقصر على مراكب فاخرة تصحبها الجماهير المتحمسة على ضفتى النهر *

وكانت كهانة المعبد تنقسم إلى أربعة أقسام كل منها يخدم شهرا على التوالى وكان من واجبهم أن يؤدوا الخدمة الدينية ويعنوا بالمعبد * وكانت هناك طبقتان رئيسيتان من الكهنة : الـ «وعب» التى تعنى «الطاهر» والـ «حم نثر» التى تعنى « خادم الإله » * والوعب هى الطبقة الأدنى * وإلى جانب الكهنة كان هناك عدد من الكاهنات ملتحقات ببعض المعابد المصرية * وبالنسبة لآمون كانت الملكة نفسها تعتبر كبيرة الكاهنات وتحمل لقب « زوجة الإله » أما بقية الكاهنات فكن محظيات الإله وكانت ترعاهن زوجة الكاهن الأكبر * أما عمل الكاهنات المصريات فكان عزف الموسيقى أثناء الخدمة الدينية وخاصة بالصلاصل المذكورة من قبل

لقد تحدثنا حتى الآن عن دين فرعون أى دين الدولة والعبادة الدينية فى المعابد ولكن قد يتساءل القارئ عن مدى دراية الشعب الدينية ... ذلك الشعب الذى لم يكن يسمح له بدخول المعابد إلا فى بعض أيام الأعياد الهامة حين

(١) يجب ألا يغيب عن البال أن فرعون كان من الناحية النظرية الكاهن الأول لكل معبد فى البلاد كلها * وفى الواقع كان يحمل محله كبير الكهنة إلا فى المناسبات الخاصة *

يكون له حق دخول الفناء المفتوح فقط . أن أقصى ما كانوا يستطيعون مشاهدته هو القارب المقدس للاله حين يحمل في الخارج أو يستمعون الى تراتيل الكهنة يتردد صداها في آذانهم من داخل المبنى المعتم . ولقد كان من الطبيعي للرجل العادى ان يعبد معبودا أكثر شعبية مثل الاله القزم العجيبة الاله المحبب العجيب القزم « بس » الاله الطيبة المحببه الخلقة تاورت . وفي اماكن كثيرة نرى ان الالهة التي لعبت أكبر دور في دين الرجل العادى كانت من غير شك الارواح التي تسكن الاشجار والصخور ولعل « قنة الغرب » مثل طيب لذلك . فان هذه القمة ترتفع في الناحية المقابلة للأقصر في تل الشيخ عبد القرنة وكان الاهلون في طيبة القديمة يربطون ما بينها وبين مرت سجرت الهة الثعبان في الجبانة وحيانا يصلون ما بينها وبين ايزيس . ولقد ترك لنا بعض عمال الجبانة الذين لم يترضوا « قنة الغرب » فجعلت عليهم بالعقاب . . . تركوا لنا لوحات منقوشة ببعض الادعية لهذه الالهة تقول احداها .

« سأقول للكبير والصغير من العمال - احترسوا من القنة لأن بها أسدا . أنها تصرع كما يصرع الأسد المتوحش وهي تطارد من يعتدى عليها (١) » .

وكانت آلهة الشعب أحيانا هي الحيوانات المقدسة من نوع ما مثل « الحمامة الجميلة التي تبقى . . تبقى عسلى الدوام » أو « القطعة الجميلة التي تبقى . . تبقى » .

ولم تذهب الآلهة الكبيرة عن بال الدين الشعبى رغم أن طرائق عبادتها في المعابد لم تكن الكثير بالنسبة للجماهير ذلك لأن الآلهة بالنسبة لهم كانت كائنة في نطاق شخصى أضيق . قامون رع بالنسبة لهم كان « وزير الفقراء وهو لا يأخذ مكافأة لا يستحقها وهو لا يتحدث لمن يدلى بالشهادة ولا يتطلع الى من يقدمون الوعود » (٢) أى أنه فوق فساد المحاكم المصرية وأنه عادل بالنسبة للمتضرعين اليه . وهناك

(١) ترجمة Battiscombe Gunn in J. E. Vol. III, p. 86.

(٢) ترجمة أرمان وبلا كمان .

لوحنة أقامها نقاش كان يعمل فى جبانة طيبة عرفانا بجميل
أمون لشفاء ابنه جاء فيها :

«تنبه له • واذكر ذلك لولدك ولا بنتك ، للكبير والصغير •
وأعلنه للأجيال الحاضرة والمستقبلة • أعلنه للأسماء فى
الماء وللطيور فى السماء وأذكره لمن يعرفه ولن لا يعرفه • •
وانتبه له •

أنت أمون سيد من لاد بالصنمت • أنت ذلك الذى تأتى
لندعاء الفقير • أنت ترد الرمح لليأس وتخلصنى أنا الذى
فى العبودية •

رغم أن الخادم عرضة لارتكاب الاثم الا أن السيد
يميل الى الرحمة أن اله طيبة لا يمر عليه يوم غضب • غضبه
يتنهى فى لحظة ولا يبقى شيء (١) » •

وكم يختلف ذلك عن النصوص التقليدية التى تكون
مصدر معظم معلوماتنا عن الدين المصرى ففيها يستطيع
الوصول الى الآلهة بغير معنى الاتضاع الذى ينم على
الاحساس بالضعف أمام قوتهم ومن غير شك بغير ادراك
للاثم • كان الآلهة يعتبرون مخلوقات متنوعة ينتظر منها
الكثير من النفوذ ان أنت عرفت كيف تدير الأمر • فإذا
أقيمت بعض الطقوس وتليت بعض الرقى فإنهم لا يستطيعون
أن يقاوموا الضغط وسرعان ما يمكن الوصول الى النتيجة
المطلوبة • • • وكان المتضرع يتخذ مظهر المبرأ من اللوم
دائما الراضى عن نفسه تمام الرضى الذى لا يطلب الا
ما يستحقه ويظهر هذا جليا فى المتون الجنزية حيث يبذل
أقصى الجهد لاقتناع الآلهة أن حياة المتوفى على الأرض كانت
كلها فضيلة لا تضارع • أما فى هذه الوثائق القليلة التى
خلقها لنا دين الطبقة الدنيا فإننا نستطيع أن نلمح قبسا
يدل على ايمان أكثر نقاء هو ابراز للخطيئة البشرية والضعف
مع الايمان المطلق بالرحمة الالهية وعرفان للعلاقة الشخصية
بالآلهة أقرب مما يظهر فى الدين الرسمى للمعايد •

(١) ترجمة ارمان وبلاكمان •

الفصل الرابع

الكتاب الممتازون

كان « أنى » وهو طفل فى العاشرة يشق طريقه فى الصباح الباكر الى المدرسة على مضض فى الطريق الملىء بالتراب . وقد ظل طوال عدة سنوات يتلقى التعليم فى المدرسة الملحقة بالمعبد الجنزى لرعمسيس الثانى (المسمى الآن بالرمسيوم) على الضفة الغربية للنيل فى طيبة ، وكانت لا تزال أمامه خمس سنوات أو ست قبل ان يغدو قادرا على الحصول على وظيفة فى الدولة وهو الأمر الذى كان أبواه يتمنيانه له . وحين كان يتأمل المستقبل كان الملل يتسرب الى قلبه ممزوجا بانعكاسات سيئة عن سلوك آبويه ومعلميه عامة .

وان أباه ليلآلم ان هو عرف وجهة نظر ابنه ، ذلك لأن سبك حطب الكاتب الأول لأحد مخازن غلال طيبة كانت له أفكار محددة عن تعليم الصغار، وقد أخذ « أنى » جانباً فى اليوم السابق وأعطاه قدراً من النصيح كان يأمل أن يتذكره الصبى خلال فترة الدراسة الجديدة التى كان على وشك البدء فيها . وذكر له أن لا شىء يعدل معرفة القراءة والكتابة ، وأن أية حرفة لا تتطلب هذه المعرفة تكون منحطة غير مرضية . . . وتحدث « سبك حطب » فى الموضوع حديثاً يتقنه الرجل المسن ، فقال فى فصاحته المعهودة :

« لقد رأيت الحداد يعمل عند فوهة الفرن وأصابه متييسة ومتجمدة مثل جلد التمساح ورائحته أنتن من رائحة فضلات السمك . والرجل الذي يحسن استعمال الازميسل يشقى أكثر من ذلك الذي يحفر لأن حقله الخشب وفأسه المعدن . وحين يحل الليل ويطلق سراحه يعمل على ضوء السراج أكثر مما تطيق ذراعاها » .

وهكذا ظل يتناول مختلف الحرف التي طرات على ذهنه . . . قائلا لا . . . ان المرء يجب ان يتعلم ليصبح كاتباً ويفرغ جهده للوصول الى ذلك الامر . . . وقال « سبك حتب » في ختام حديثه :

« ليتنى أستطيع ان اجعلك تحب الكتب أكثر من امك ، ليتنى أستطيع ان اريك جمالها (١) » وقد أحس المصري بالسأم من هذه النصيحة الطويلة ، والحق يقال ان « سبك حتب » كان مصيباً من غير شك في قوله أن حرفة الكتابة كانت أمتع الحرف ، ذلك لأن وظائف الإدارة الحكومية في كل مصالحها كانت مفتوحة أمام الشباب المتوقد الذهن الذي له دراية بالحسابات أو الأعمال الكتابية ، وكان لكل إدارة نوع من المدارس ملحق بها حيث يعلم كبار الموظفين الشبان بقصد تمهيد السبيل أمامهم للحصول على هذه الوظائف فيما بعد .

وكانت الكهانة من غير شك أرفع هذه الحرف علماً ، وكان أعضاؤها في الطبقة العليا مختصين في دراسة المتون الدينية القديمة وإنشاء نصوص أخرى ، وكذا في أحياء الخدمة الدينية . وكانت هناك مدارس ملحقة بكل الكليات الدينية الكبرى ، وكان يتخرج فيها صبيان يصلحون للوظائف الإدارية العلمانية أو هم يتجهون الى الكهانة ان هم اختاروها . وكانت معرفة القراءة والكتابة ترفع الشخص فوق مستوى زملائه وتعطيه احساساً قوياً بالتفوق ، وهو أمر كان يسعى المصري لتحقيقه دائماً ولاظهاره كلما استطاع الى ذلك سبيلاً .

(١) ترجمة ارمان وبلاكمان السابقة .

ومع ذلك فقد كان على حق حين قال أن الكاتب شخص ممتاز لأنه لا يؤدي عملا اجباريا مرهقا (سخرة) مثل الفلاح ، كما أنه يقضى عمره يوجه الآخرين بدلا من أن يستعبد رئيس صارم .

و حين كنا نناقش أقوال «سبك حتب» كان ابنه «أني» يقترب من الجهة التي يقصدها ، وقد رآه عدد من زملائه الآخرين فجروا نحوه ليصحبوه . ويقع معبد الملك رعمسيس المحبوب من آمون (لوحة ٢١ شكل ١) بين الحقول الواسعة الخضراء عند سفح الجبال الممتدة خلفه في وادي مقابر الملوك حيث يستقر فرعون العظيم في « بيت الأبدية » ، وقد بنى الرمسسيوم للخدمة الأبدية لروحه ، وهو اليوم واحد من أروع المباني في مصر بأعمدته الضخمة التي نحتت لتمثل رعمسيس في صورة أوزيريس ، والتمثال الضخم للملك الذي انهار وتهشم الى عشرات الأجزاء . ويحيط بالمعبد من جهات ثلاث مبان من اللبن كانت تستخدم في العصور القديمة كمساكن للكهنة ومكتبة ملكية هامة ومخازن ومدرسة . ولم يكد «أني» يصل حتي كان وقت الدراسة قد حان . وكانت المدرسة عبارة عن غرفة عارية من الأثاث سوى مقعد المدرس ، أما الأولاد فقد تراحموا ليجلسوا القرفصاء على أرضها واخذ «أني» مكانه وبدأ يعبد أدوات الكتابة . ولنتركه قليلا يفعل ذلك لنستطيع طبيعة الكتابة وطرقتها عند المصريين عامة .

اتبع المصري منذ بدء الأسرة الأولى حوالي ٣٣٠٠ ق م طريقة منتظمة للكتابة ظلت تستعمل مدى ٣٥٠٠ سنة وهي الكتابة الهيروغليفية التي تغطي جدران المعابد والمقابر في مصر وآلاف القطع المحفوظة اليوم في المتاحف . وهذه الكتابة هي المروفة « بكتابة الصور » والواقع أن كل علامة استخدمت كانت صورة لمخلوق ما أو شيء ما ولكن مثل هذا الاصطلاح قد يؤدي الى التضييل لأنه يفهم منه أن المصريين لم يكتبوا كلمات بل عبروا عن أفكارهم بالرسم

كما كان يفعل هنود أمريكا الشماليون في كتابتهم على لحاء شجر البثولا على حين لم يكن الأمر كذلك على أية حال لأن النقوش المصرية تسجل لغة مكتوبة ويستطيع الدارسون المحدثون اليوم هجاء الكلمات كما أن قواعد اللغة درست تفصيلا كما تدرس اللاتينية أو اليونانية . . . وأنه لمن المستحيل هنا أن نقدم تقريرا مفصلا عن طريقة الهيروغليفية المعقدة فالقارئ يستطيع ان يجده في مراجعه الأصلية (١) .
عن اللغة المصرية ولكنى سأتناول في ايجاز وصف الاسس التى قامت عليها :

يمكن تقسيم الهيروغليف المصرى الذى كان يستعمل منه المئات مجموعتين : مجموعة تنطق أى تمثل الأصوات ومجموعة أديوجرافية تمثل الأفكار . والمجموعة الأولى أكبر ومن بينها عدد قليل يشمل حروف الهجاء ولها قيمة الحرف الواحد على حين أن البقية الباقية من هذه المجموعة عبارة عن مقاطع . وترتبط بمجموعة علامات الأصوات مجموعة أخرى هي علامات الأفكار لتجعل معانى الكلمات واضحة . وسيجد القارئ ذلك أمرا يسير الفهم أن هو درس الفقرة الموجودة على لوحة ٢٢ المنقولة عن بردية وستكار فقد جزم النص المصرى حتى فصلت الكلمات (فى الكتابة الأصلية لا تترك مسافة بين الكلمة والأخرى) وكتبت تحتها معادلتها التعلقية بالحروف العربية ثم الترجمة الحرفية . وعلينا أن ندرك ان المصريين حين كانوا يكتبون كانوا يشبتون السواكن ويحذفون الحروف المتحركة وكان من الممكن أن نجهل نطق الكلمات فى اللغة المصرية القديمة لعدم المامنا بالمتحركات لولا أننا نستطيع الوصول الى ذلك أحيانا عن طريق المقارنة بالقبطية (٢) . والقيم الصوتية للكلمات على لوحة ٢٢ هي التى تعارف عليها الدارسون المحدثون فالكلمة الأولى (ايو) w جزء من فعل الكينونة . القصبة المزهرة - آ (ا) والكتكوت - (و) w والشعبان ذو القرنين - (ف) بمعنى هو والكلمة تعنى « هو يكون » .

(١) للوصول الى فكرة مفصلة عن اللغة المصرية وعن الهيروغليفية أرجع الى كتاب :
Alan H. Gardiner, Egyptian Grammar.

ويلى ذلك اليوم وتنتطق (م) M ومعناها هنا « مثل »
أو « ك » وهي لا تترجم فى الانجليزية والكلمة الثانية تنتطق
(نجس) ومعناها الحرقى صغير وان كانت تعنى « الرجل
من عامة الشعب » مدنى « والعلامة الأولى صورة موجه من
الماء - (ن) والثعبان - (ج) (أى q) وقطعة القماش
الملفوف بـ (س) « ويلى هذا قبره ذات عرف ورجل جالس
على الارض » أما الطائر فهو ما نسميه « مخصصا » ويكتب
فى نهاية الكلمات ليعنى الشئ الصغير أو الشرير أى انه
« يخصص » الدلالة العامة للكلمة تسبقه والرجل كذلك
مخصص آخر وهو يفسر فى بساطة أن الكلمة السابقة تعنى
رجلا كذلك لمخصص آخر وهو يفسر فى بساطة أن الكلمة
السابقة تعنى رجلا . وهناك مثل آخر لمخصص هو الرجل
الجالس ويده فى قمه الذى يظهر فى نهاية فعل (أوم)
Wum بمعنى يأكل و (سورى) بمعنى يشرب فى سطرى
٢ و ٤ على التوالى وهو يريد بذلك أن يذكر لنا أن الكلمات
السابقة تدل على أفعال ترتبط بالضم وهكذا وترجمة القطعة
تكون على هذا الوجه :

« هو مدنى (حضرى) يبلغ المائة وعشرة أعوام ويأكل
. . . رقيق وفخذ ثور كلحم ويشرب مائة قدر من الجعة حتى
اليوم »

وكان الخط الهيروغليفى (١) يستخدم فى كافة المستندات
الدينية كنسخ كتاب الموتى وغيره من الكتب المقدسة . وكذا
فى نقوش حوائط المعابد والمقابر وللكتابات على التماثيل
والآثار من كل نوع . أما فى أغراض الحياة اليومية فإن
هذا اللون من الكتابة كان يتطلب وقتا وعناء كبيرين ولذا
فإن الكتابة تطورت فى صورة أخرى هى التى نعرفها
بالهيراطيقية التى تحوى كل العلامات الهيروغليفيه المستخدمة
ولكنها أكثر اختصارا . وموصولة الى بعضها فى كثير من

(١) تكتب اللغة المصرية بالخط القبطى منذ القرن الثالث الميلادى حتى تغلب المصريون
عن الهيروغليفيه واستخدموا الحروف اليونانية بما فيها الحروف المتحركة كما أضافوا الى
حروف الهجاء اليونانية بضع علامات نقلوها عن الهيروغليفيه القديمة .

الأحيان (لوحة ٢٣) . وهي مرحلة تقرب من كتابة تنسا على حين تكتب الهيروغليفية من أى الاتجاهين بل ومن أعلى المعتادة وكانت الهيراطيقية تكتب دائما من اليمين الى اليسار الى أسفل أحيانا . ولعل هذا هو ما جعل الهيروغليفية أكثر صلاحية كوسيلة للزخرفة . ذلك لأن النقوش كان يمكن ترتيبها وجعلها مناسبة للفراغ المطلوب . وكانت الهيراطيقية تستخدم فى المستندات ذات الصبغة الدنيوية مثل الحسابات وأعمال الإدارة ونصوص الأدب الخ وقد استخدمت خلال الأسرة الحادية والعشرين فى الأدب الدينى للمرة الأولى حتى أصبحت شائعة على هذه الصورة منذ ذلك الوقت . ولدراسة نص هيراطيقى اليوم فى سر يجب إعادة كتابته بالهيروغليفية ولدينا مثل مقدمه لذلك هو السطر الأول من بردية أوربينى فى لوحة (٢٣) وقد كتب بالهيروغليفية تحت الهيراطيقية ويستطيع القارئ أن يلحظ الطريقة التى اختصر بها الحروف الهيروغليفى الى نظيره الهيراطيقى .

وكان قدماء المصريين يستخدمون البردى كمادة أساسية للكتابة . والبردى نبات كان ينمو بكثرة فى تلك الأيام فى مستنقعات الدلتا ولكنه لا يوجد اليوم فى مصر بل فى السودان . وكانت مادة الكتابة هذه تجهز على الصورة التالية : كانت تنزع عن ساق النبات قشرته الخارجية ثم يقطع الى شرائح طويلة توضع بعد ذلك الواحدة الى جانب الأخرى على سطح مستو ثم توضع شرائح أخرى فوق هذه فى شكل صليبى ثم تلتصق الطبقتان معا وتضغطان حتى تجففا . ويمكن لصق القطعة المصنوعة بهذا الشكل بقطعة أخرى بواسطة الصمغ وهكذا حتى يمكن الحصول على ملف بالطول المطلوب . وعلى ذلك فانه يمكن نسخ كتاب بأكمله على مشل هذا الملف وعند القراءة يفتح القارئ جانبا منه ثم يطويه ويفتح الذى يليه بعد الانتهاء منه وهكذا . وكان البردى مرتفع الثمن نسبيا ولذا كان يحتفظ به للأغراض الهامة . أما فى الأعمال اليومية فكانت تستخدم شظايا الحجر الجيرى

وهي التي كان يتمرن عليها التلاميذ في المدارس حيث كان لا يسمح باستعمال البردى سوى للمتقدمين من الطللاب .
أما ألواح الكتابة الخشبية فكان يستعملها التلاميذ وغيرهم (لوحة ٢٥) وكانت تغطي بطبقة رقيقة من الجص مصقوله حتى يستطيع إزالة الكتابة بعد الانتهاء من أمرها واستعمال اللوح مرة أخرى .

أما القلم الذي كان يستعمله المصريون (لوحة ٢٤) فلم يكن قلما بالمعنى المفهوم بل كان قصبة رفيعة يتحول طرفها الى ما يشبه الفرشاة عن طريق الضغط (التنسيل) ونحن نعجب كثيرا مما استطاعت هذه الفرشاة الدقيقة ان تقدمه لنا . . . فهم لم يكتبوا بها فوق البردى - وهو امر يستدعي الاعجاب - النقوش الهيروغليفية المتقنة والكتابة الهيراطيقية الشياضة فحسب بل ان المناظر الجميلة التي تغطي جدران المقابر كانت ترسم خطوطها الخارجية بهذا القلم . وكان الحبر الذي يستعمله الكتاب من لونين الأسود والأحمر . وكان الأسود يصنع من السناج وهو الحبر الذي يستعمل في الكتابة عادة أما الأحمر فلكتابة فقرات خاصة مثل العناوين أو الكلمات الأولى في الفصول أو أسماء الآلهة أو الكلمات الأخرى الهامة .

وكانت عدة الكاتب لوحته وأقلامه ومحفرة صغيرة من الماء يخلط فيها الحبر . وكانت اللوحة (لوحة ٢٤) تصنع عادة من الخشب أو العاج وتحتوي لوحا مستطيلا في أحد طرفيه ثقبان لحفظ الحبر وكان الثقبان يعملان غالبا على شكل الخرطوش (الخانة الملكية) الذي كان في الأصل دائريا (رقم ٥٥١٢ و ٥٥١٤) وأسفل اللوح تجويف طويل توضع فيه الأقلام وأما بقية اللوح فمزين بأسماء صاحبه محفور بالهيروغليفية وربما أضيف الى ذلك اسم الملك وبعض النصوص المناسبة مثل دعاء الى تحوت مخترع الكتابة وحاميها .

وقد استعار صاحبنا الصغير «آنى» اللوحة الجميلة التى كانت لجده «مري رع» لأن آياه خلن أن ذلك يشجعه على التقدم فى دراساته وكانت الأدعية التالية منقوشة على اللوحة :

١ - « تقدمه يرفعها الملك الى تحوت سيد الكلم المقدس (١) حتى يمنح معرفة الكتابة التى تصدر عنه (٢) وفهم الكلم المقدس الى «كا» الأمير بالوراثة والحاكم والموظف على رأس نبلاء الملك رئيس خازنى الملك مري رع » *

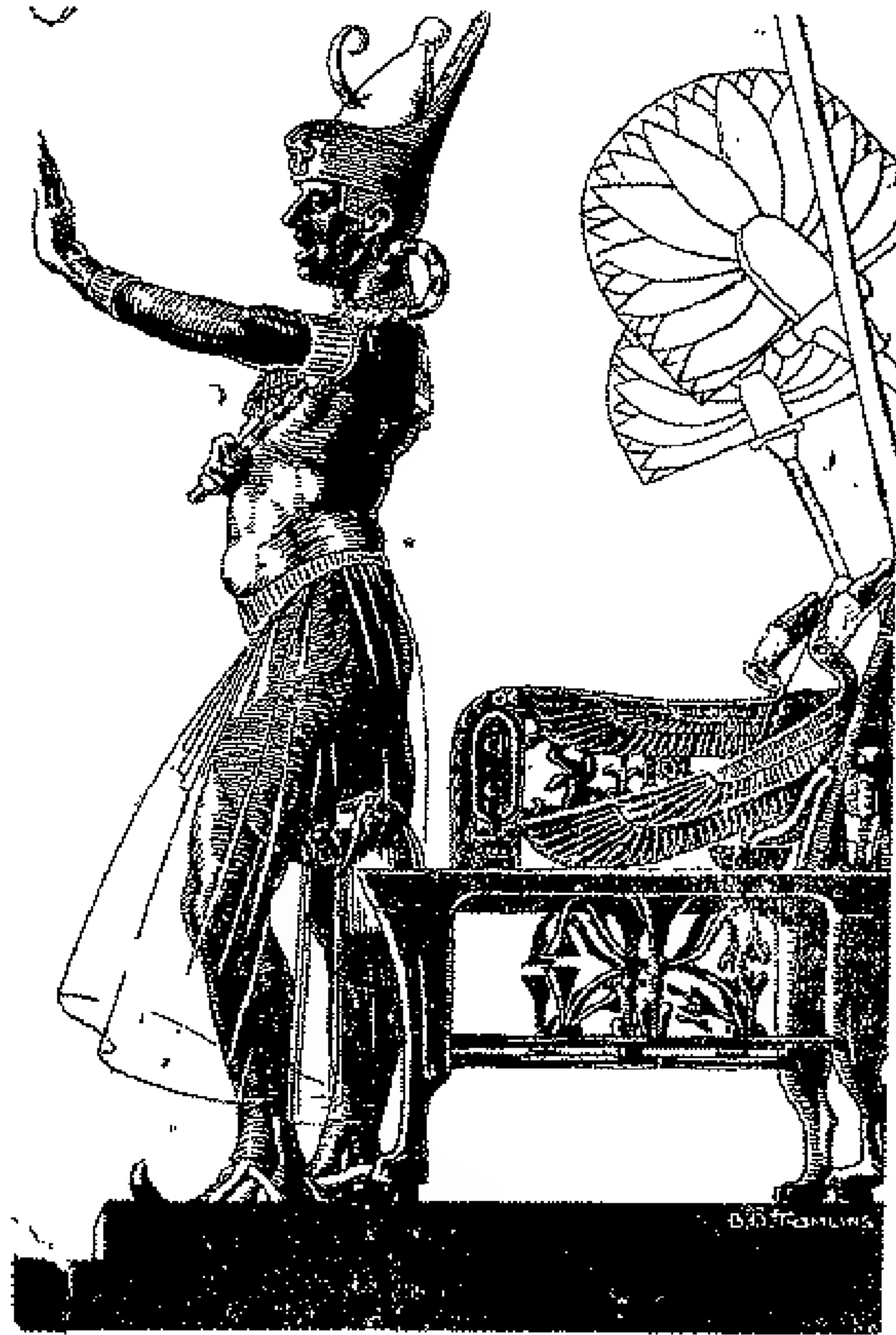
٢ - « تقدمه يرفعها الملك الى آمون رع سيد الكرنك الإله الوحيد الذى يعيش على الحق حتى يمنح النسيم العليل الذى يخرج منه والرضى الشامل فى القصر الى « كا » كبير خازنى الملك « مري رع » *

وكان التعليم الذى يعطى فى المدرسة يحتوى غالبا على القراءة والكتابة وليس من عجب أن نعلم أن طريقة الكتابة الهيرغليفية لم يكن من المستطاع التمكن منها الا بعد مران شاق لبضع سنوات وبعد أن يتعلمها التلميذ ينتقل الى الهيروغليفية كما ينتقل طفل اليوم من القراءة والكتابة للكلمات المطبوعة فى الكتب الى معرفة الخط العادى . وكان هدف الكاتب الشاب أن تكون له يد هيرغليفية متقنة ولكى يصل الى هذه المرحلة كان عليه أن يقوم بنسخ عدة صفحات من نص ما . والواقع أن جانباً كبيراً من التمرين المدرسى كان يتضمن نسخ عدد من الكتب المناسبة ثم يصحح المعلم الأخطاء فى أعلى الصفحة . ولدينا من إحدى هذه النسخ البردية التى وصلت إلينا ما يشير الى أن كاتبها كان ينسخ ثلاث صفحات يوميا (٣) ذلك لأنه كان يؤرخ صفحاته على التوالى *

(١) اصطلاح « الكلم المقدس » يعنى « الكتابة الهيرغليفية » .

(٢) أى اخراج الكتابة .

(٣) « صفحة » هنا تعنى كمية من الكتابة تتضمن مجموعة سطور القية وحين يصل الكاتب الى آخر الصفحة يبدأ السطر الأول من مجموعة أخرى أو صفحة أخرى الى يسار الصفحة .



لوحة مقدمة

«... حين أكون بين الملوك والعدول القاشين أمام أمون رع،
ملك الآلهة وأمام أوزيريس سيد الأبدية»



لوحة ١

(شكل ١) منتو، إله هرمسوتس،
وهو إله الحرب

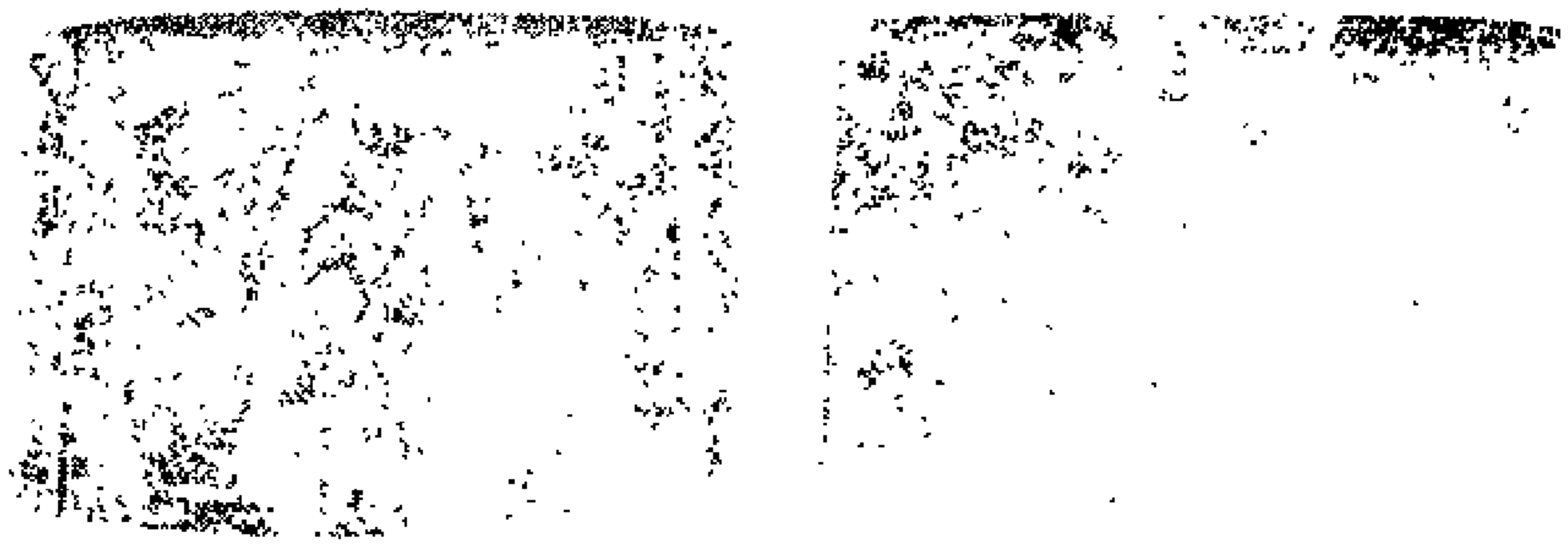


(شكل ٢) امون رع، الإله الأعظم
بطيبة



لوحة ٢

قاعة العرش في قصر اخناتون بالعمارة وتوى في الوسط المنصبة التي كان يقوم عليها العرش
General
Bibliography



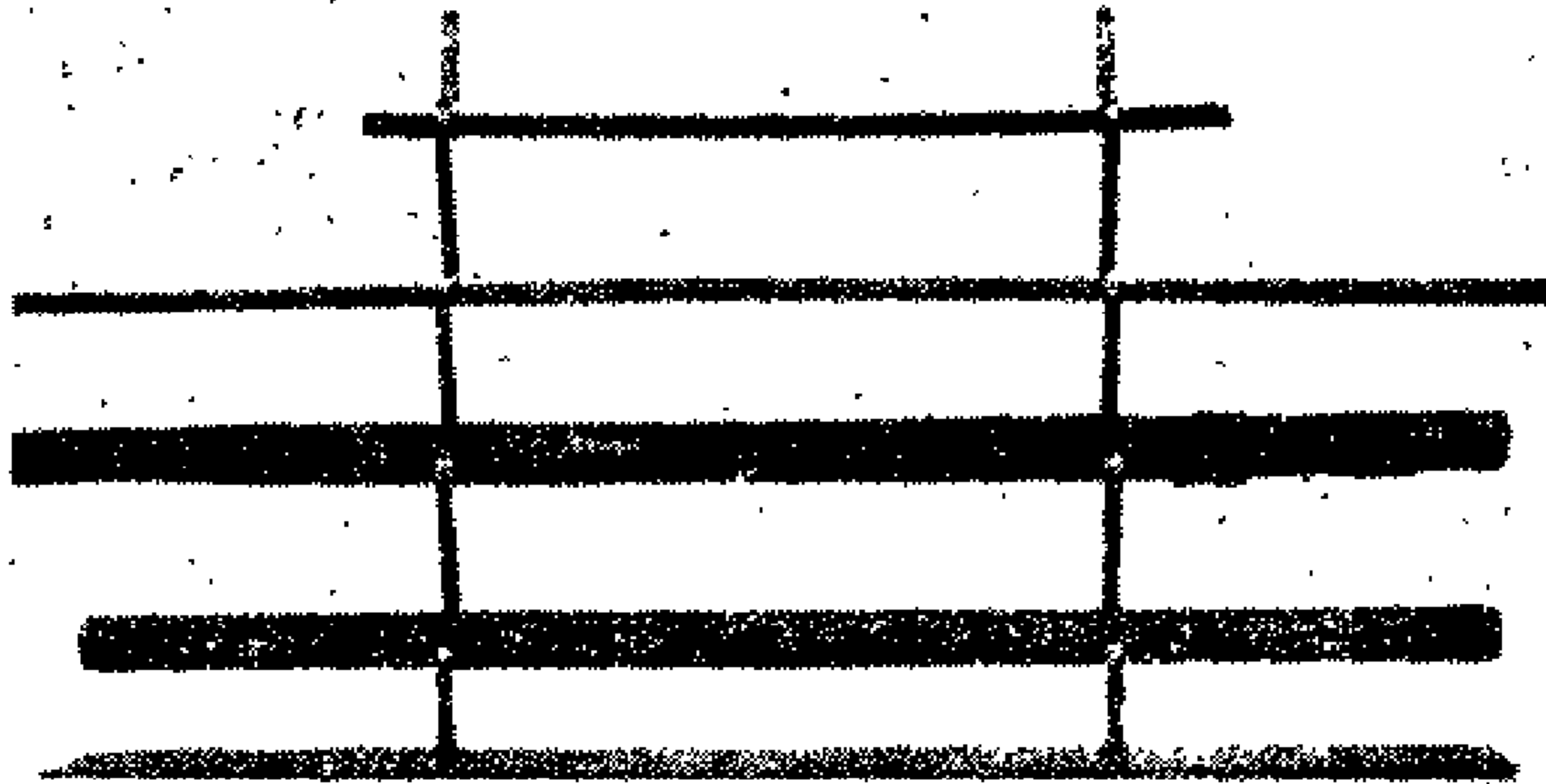
لوحة ٣

زوج من الأساور الذهبية المرصعة باللازورد والمجينة الزرقاء من الأسرة (٢٢)
 والزخارف تمثل الإله حريونقراطه جالساً على زهرة اللوتس بين صليين على
 رأسيهما قرصا الشمس



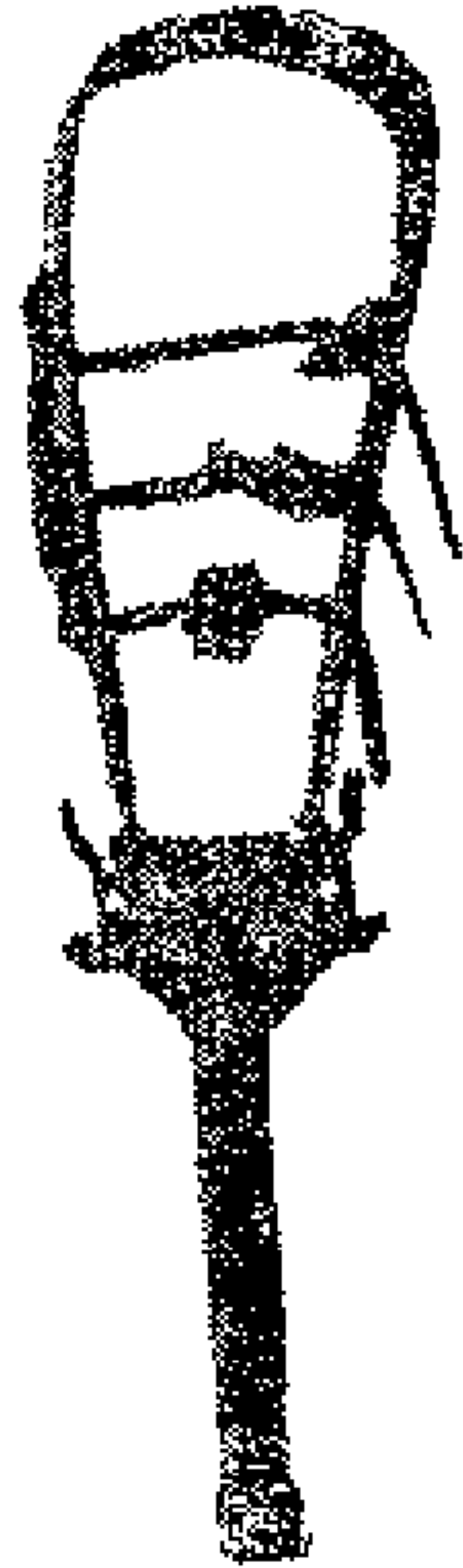
لوحة ٤

(شكل ١) مبخرة من النرونز كان يحرق البخور في القدح الكبير، على حين تحفظ كمية إضافية في الصندوق الصغير الذي في وسط.



(شكل ٢)

عدد من المزامير (الزمارات) المصرية في المتحف البريطاني



(شكل ٢) صلاصل من البرونز



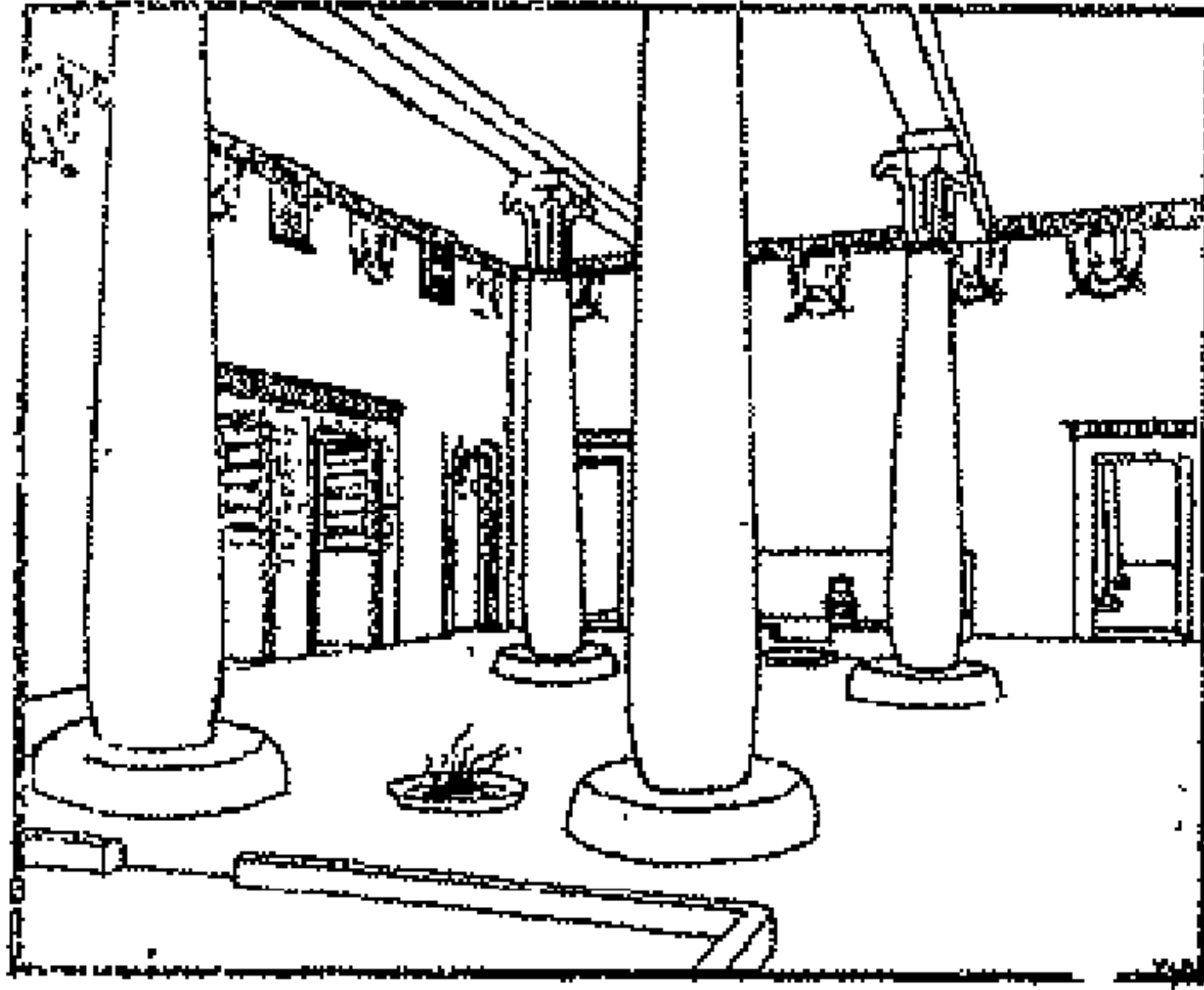
لوحة ٥

(شكل ١) تمثال من الخشب
اللون يمثل فتاة تعزف على
الحنك، الأسرة (١٩)



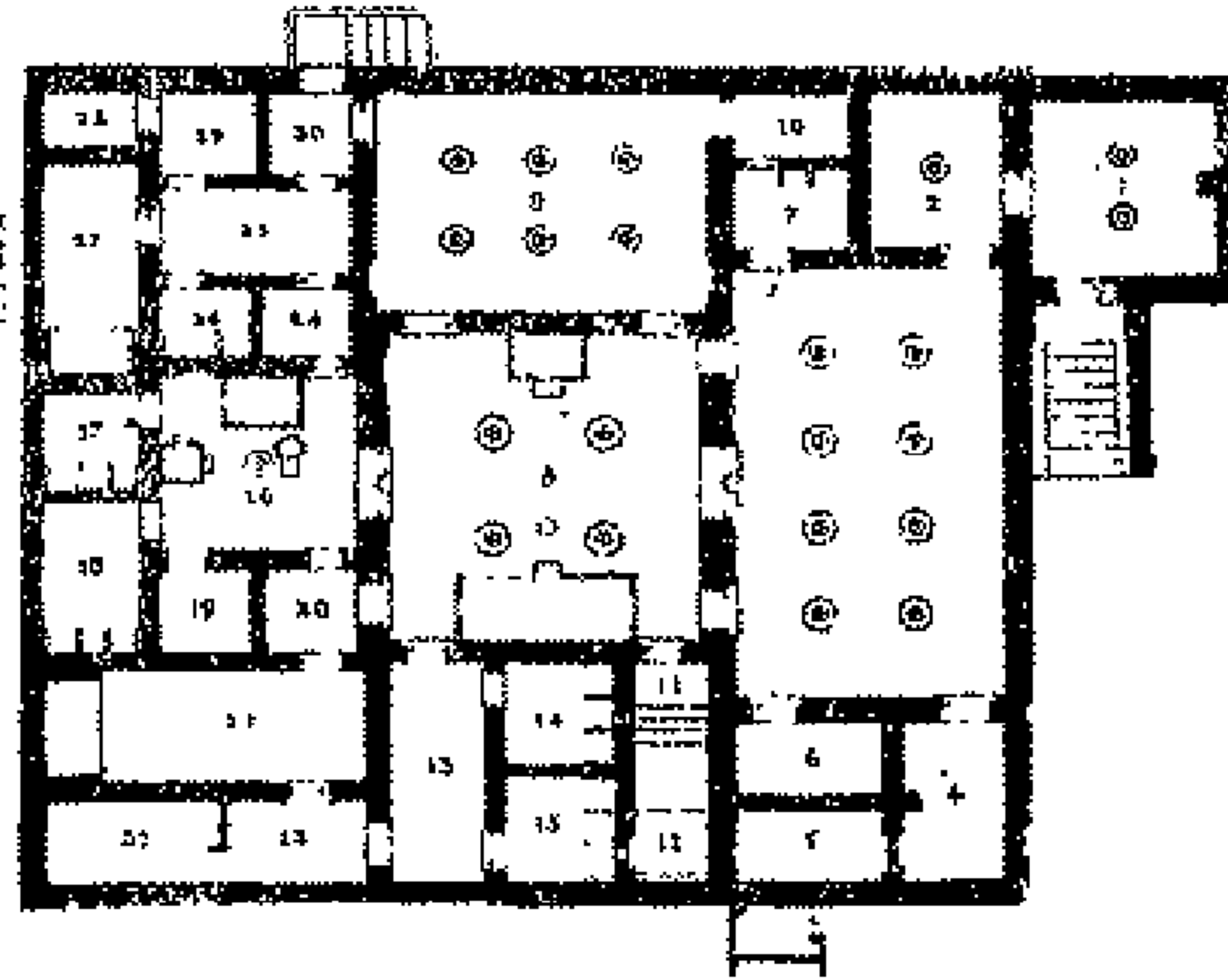
لوحة ٦

رسم من جدار مقبرة، يمثل نبيلاً مصرياً يصيد الطيور، ترافقه زوجته وابنته

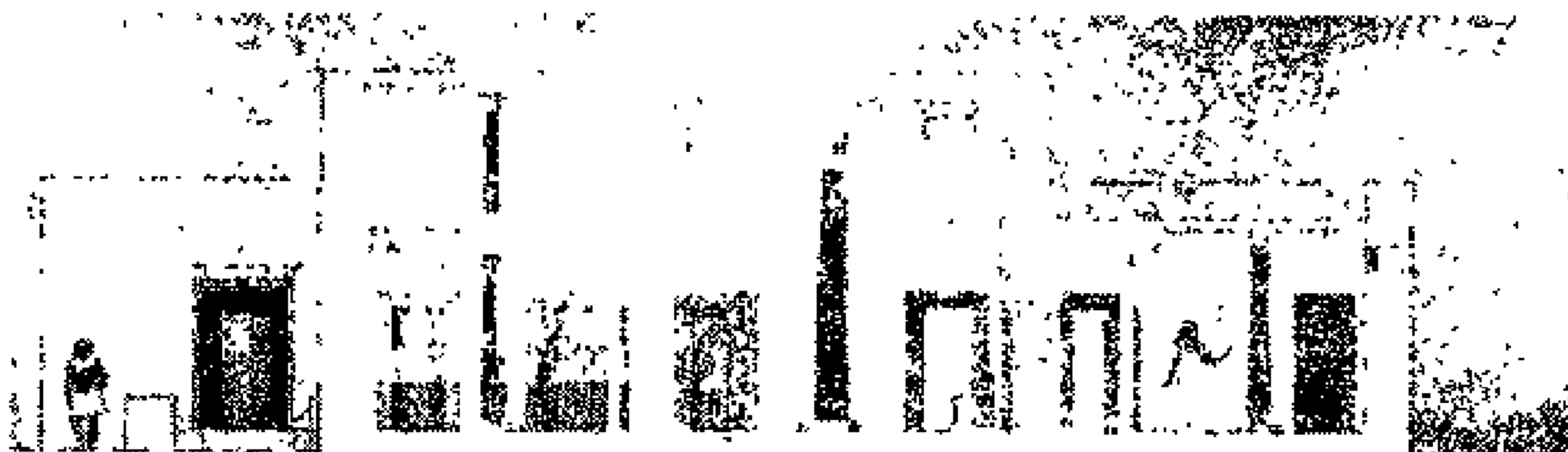


لوحة ٧

ا(شكل ١) رسم مجدد للخرقة
الرئيسية في منزل الوزير تحت
بالعمارة

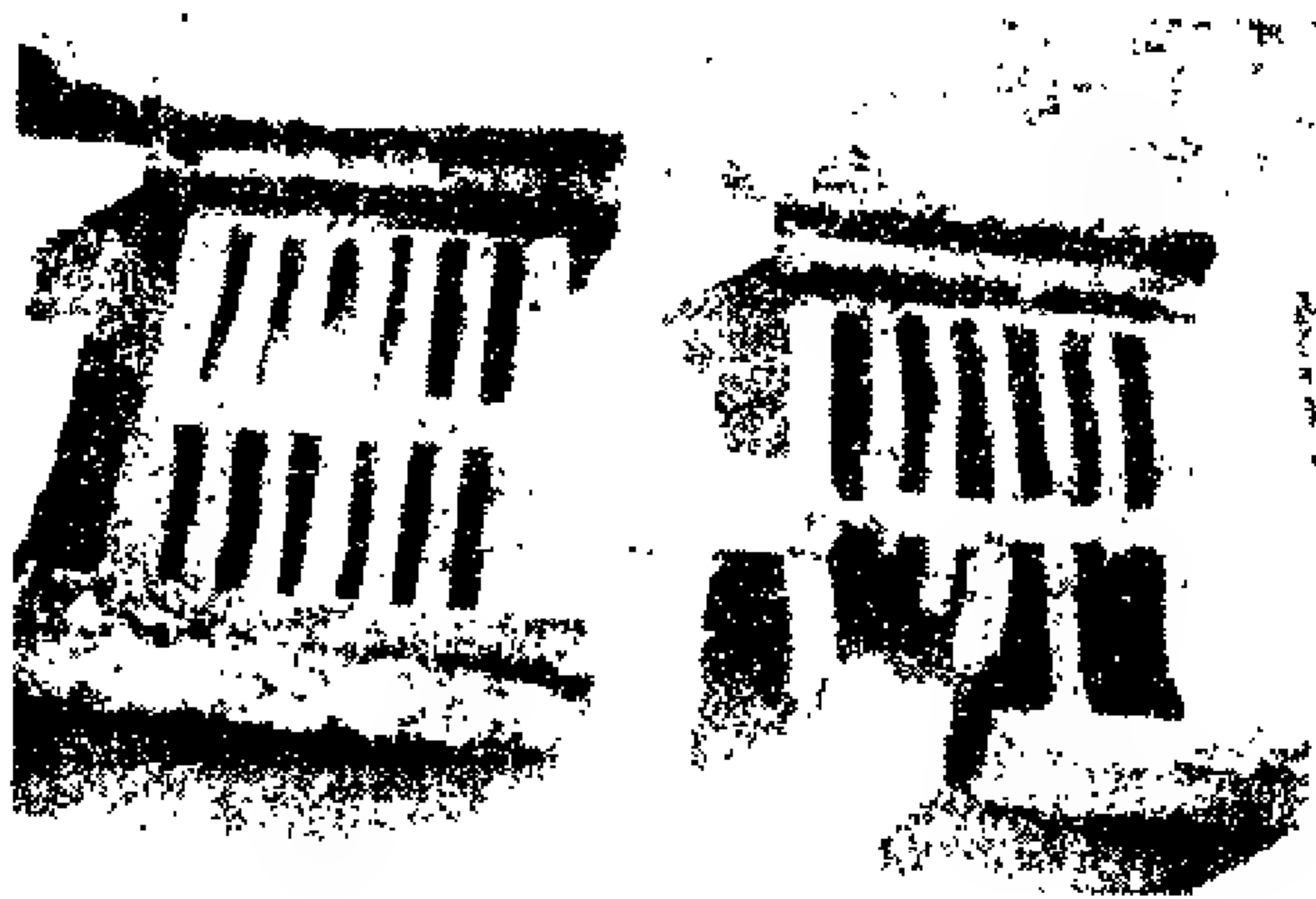


شكل (٢) رسم تخطيطي لمنزل
الوزير تحت بالعمارة



لوحة ٨

مقطع لأحد المنازل الخاصة بالعمارة (رسم مجدد).



لوحة ٩

(شكل ١) نافذة حجرية ذات فتحات طويلة، من أحد المنازل الخاصة بالعمارة.



(شكل ٢) منزل البوزير (تجن) بالعمارة، والدرج يؤدي إلى الباب الأمامي .



لوحة ١١

رسم من إحدى المقابر المصرية، يمثل مثابة. لاحظ الشكل الشرطي المصمم
بالدهون العظمية الموضوعة على رؤس الضيوف



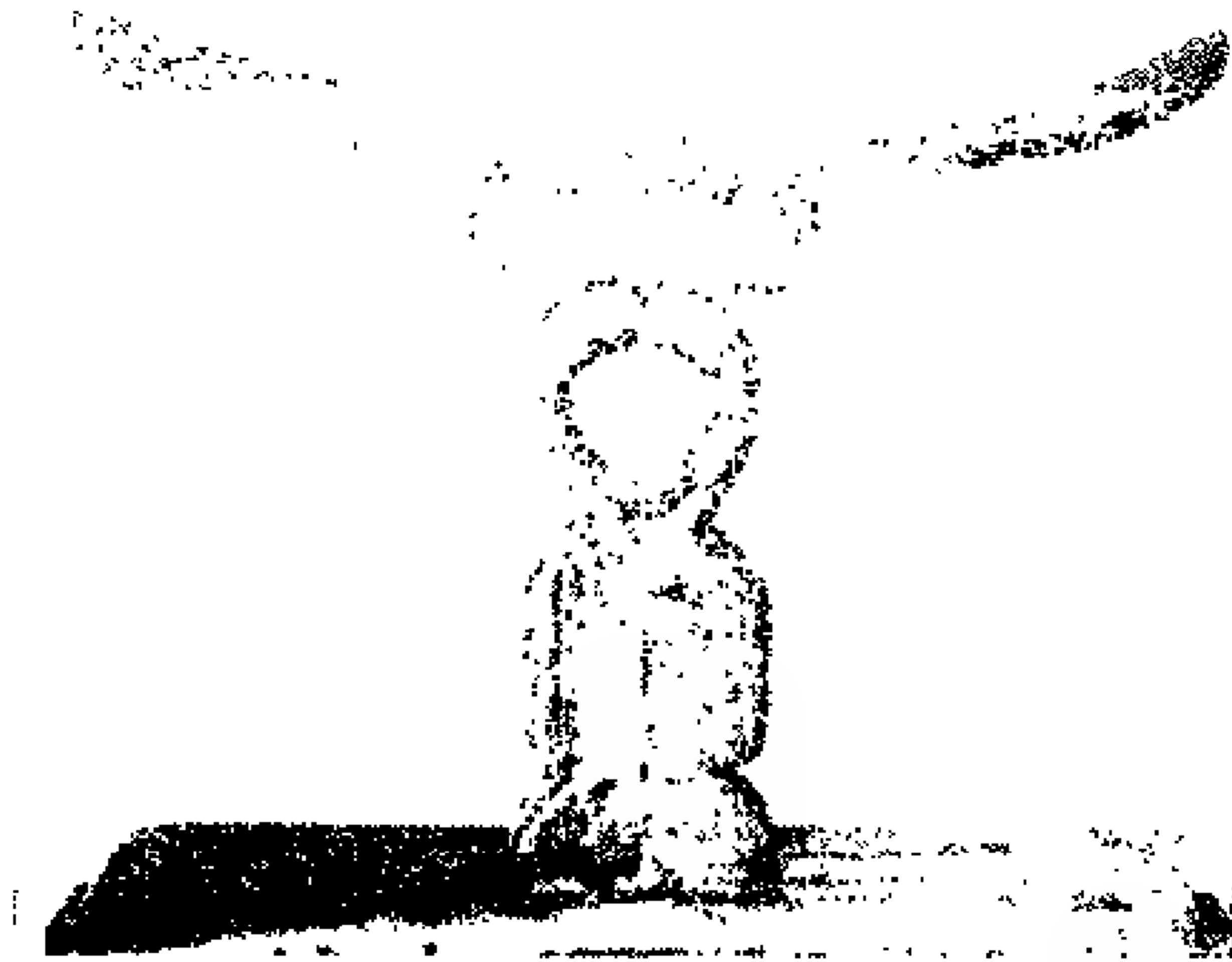
لوحة ١-

منظر في بيت الوزير تحت بالعمارة، يطل من الغرفة الوسطى الرئيسية على غرفة جلوس السيدات ويمكن رؤية منصة الإغتسال في الغرفة الأخيرة من خلال الباب



لوحة ١٢

تمثالان جالسان لأحد النبلاء، أو كبير الموظفين، ومعه زوجته، الأسرة (١٨)

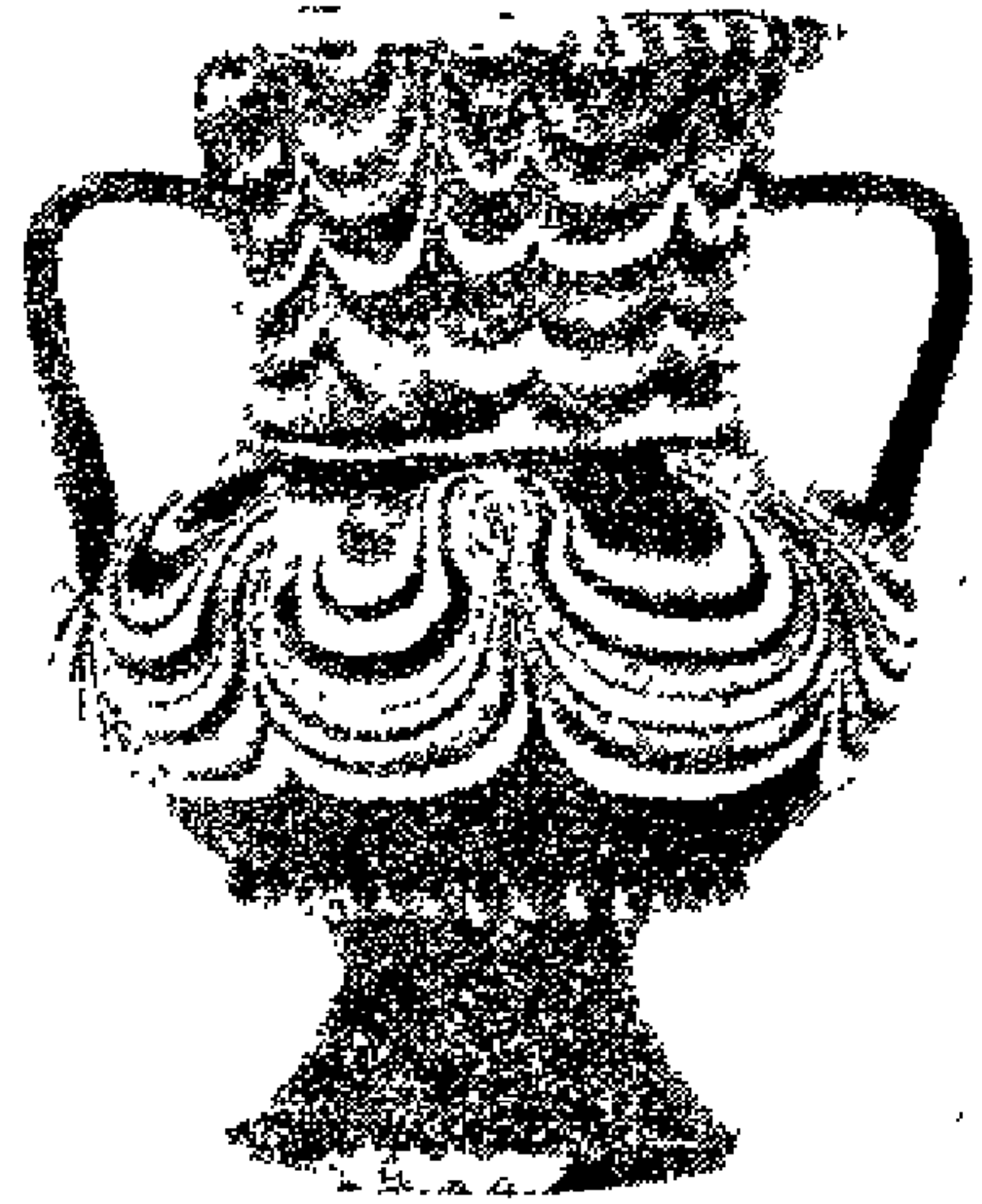


لوحة ١٣

(شكل ١) مسند رأس من العاج، من الدولة الوسطى (المتحف البريطاني)



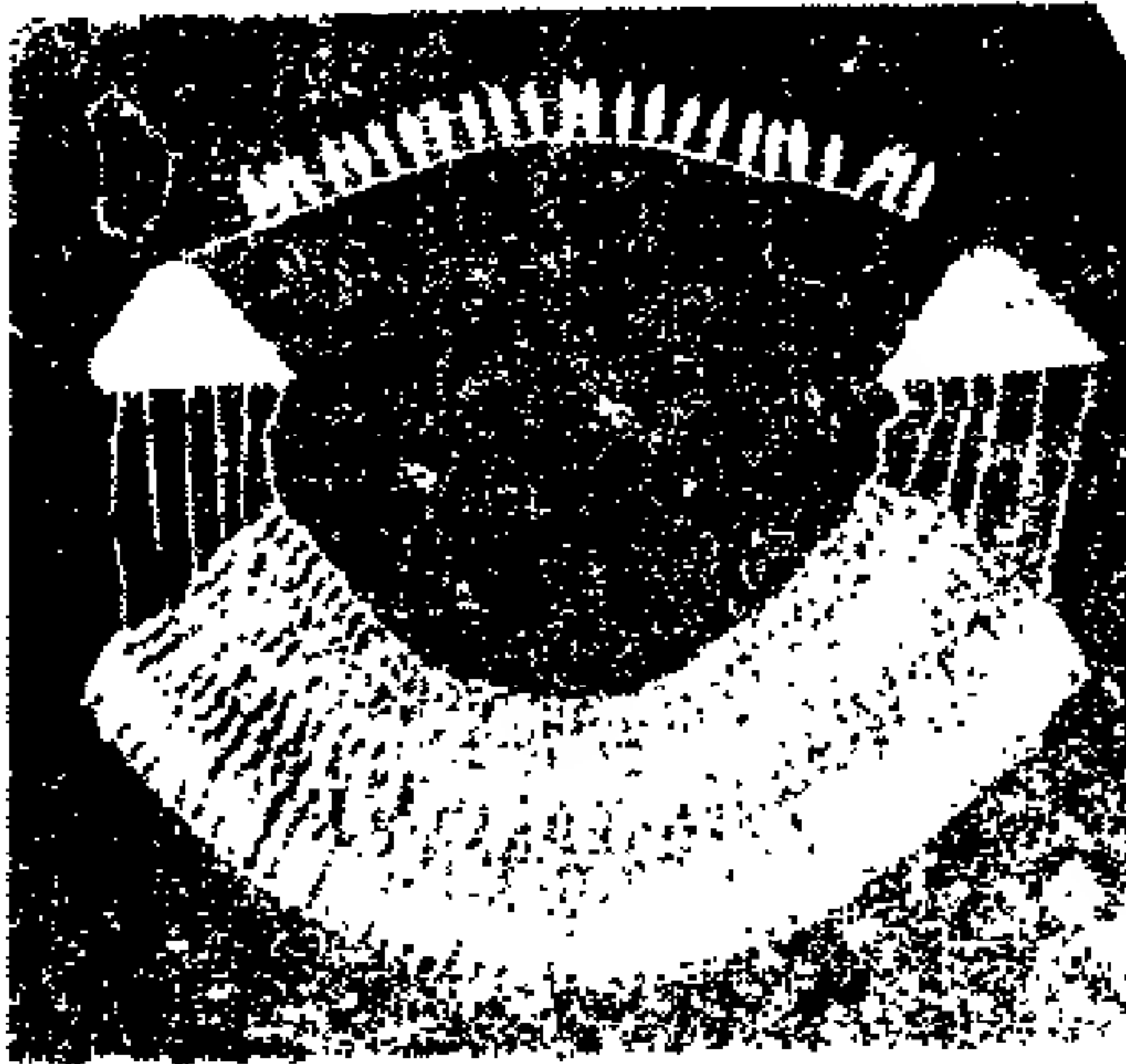
(شكل ٢) شعر مستعار لحدى
السيدات المصريات، من شعر
حقيقي مضاف إليه صوف
الأغنام (المتحف البريطاني).



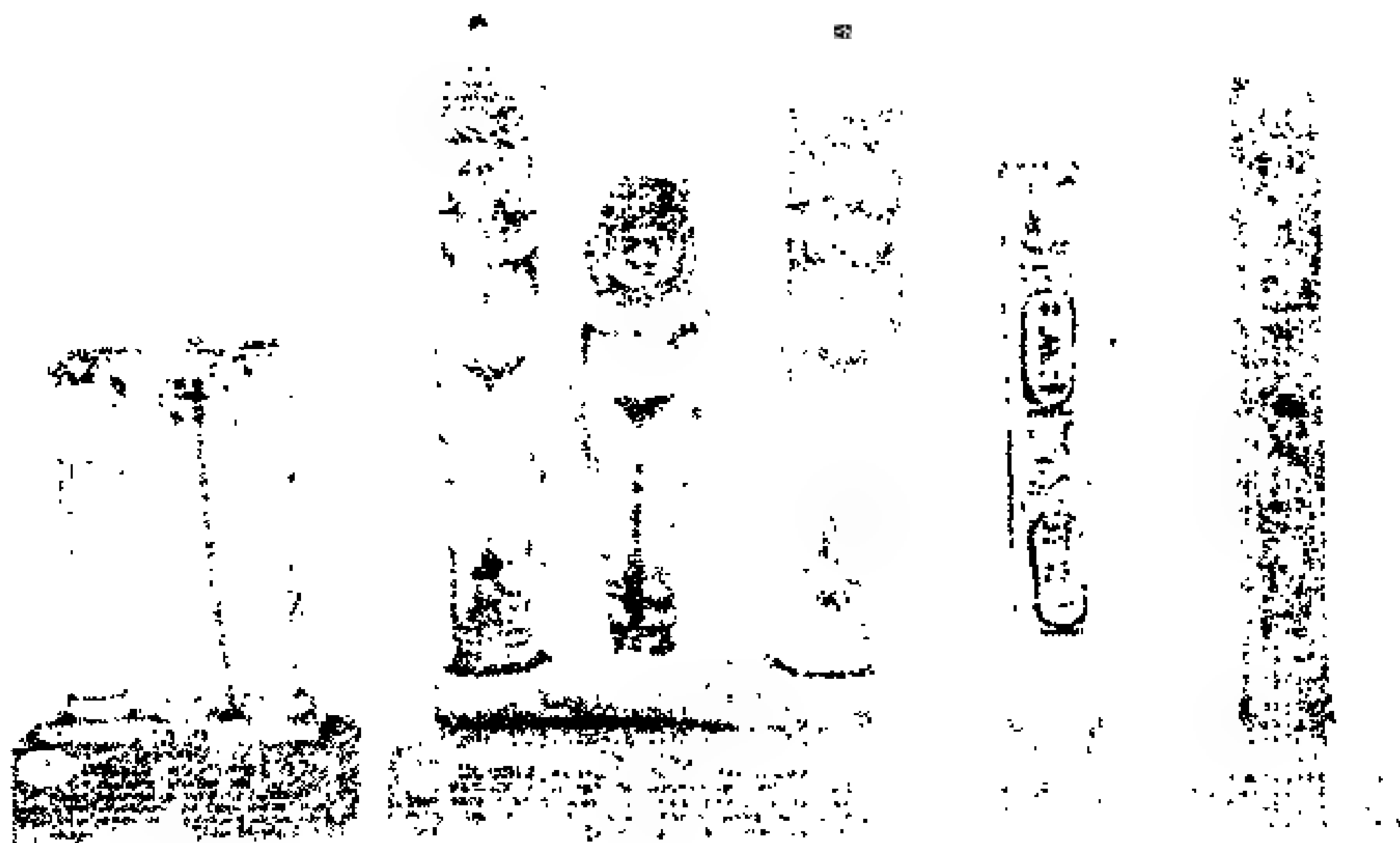
لوحة ١٤

(شكل ١) إناء من زجاج متعدد
الألوان ، من العمارة (متحف
بروكسل)

Fig. 1. A multi-colored glass vase from the Egyptian Museum, Brussels.

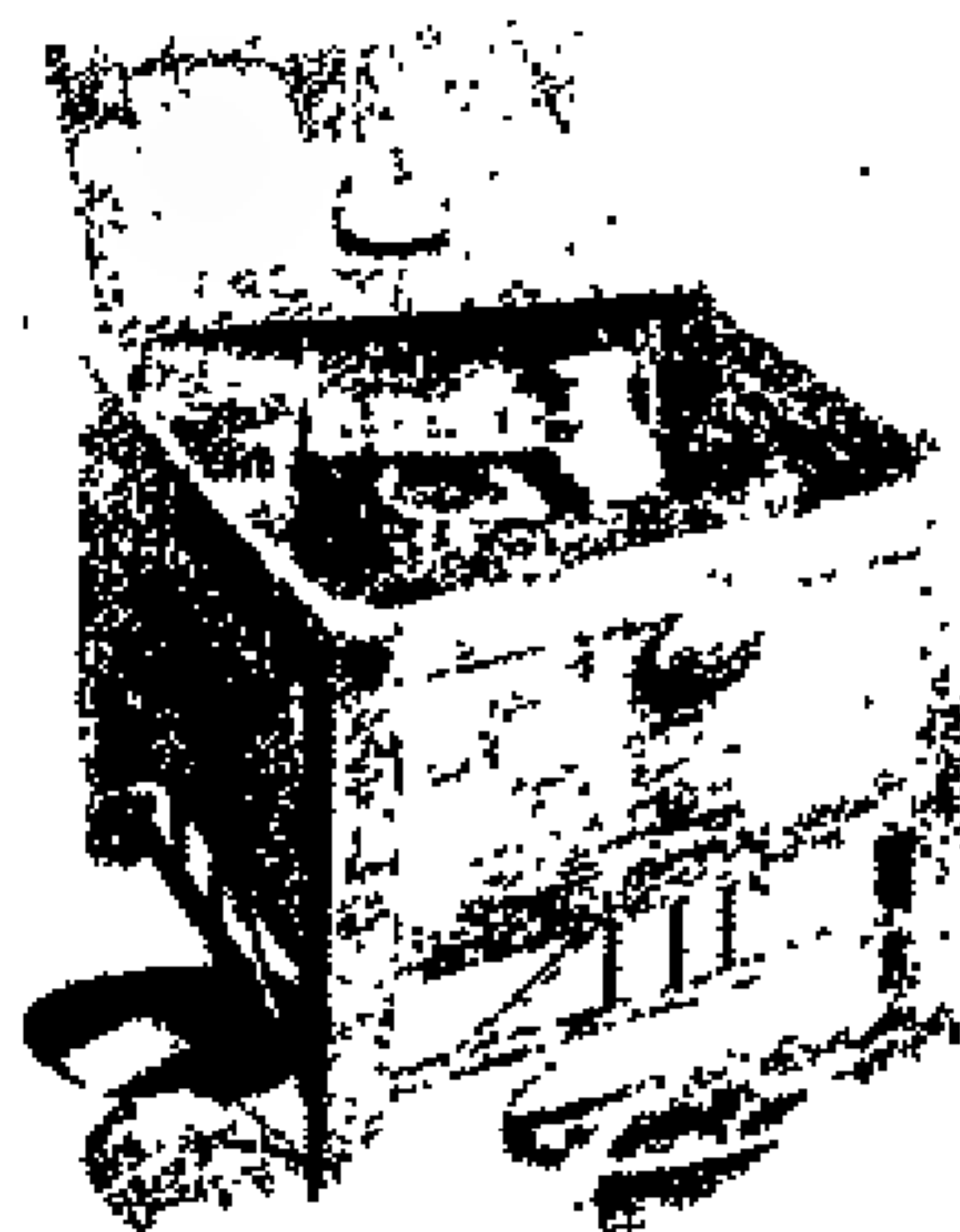


(شكل ٢) قسادة من حبيبات
(خمر) الفاشاني المزجج على
شكل إكليل من الفسكسية
والأزهار، من العمارة.
(المتحف المصري).



لوحة ١٥

مكاحل ذات أشكال مختلفة (بالمتحف البريطاني) والمكحلتان اللتان إلى اليمين
صنعتا للملك توت عنخ آمون



لوحة ١٦

صندوق أدوات الزينة لاهدي السيدات المصريات، وهو يضم أواني للدهون
ومكحلة مزدوجة ومشطا وزوجا من النعال.. الخ (المتحف البريطاني)

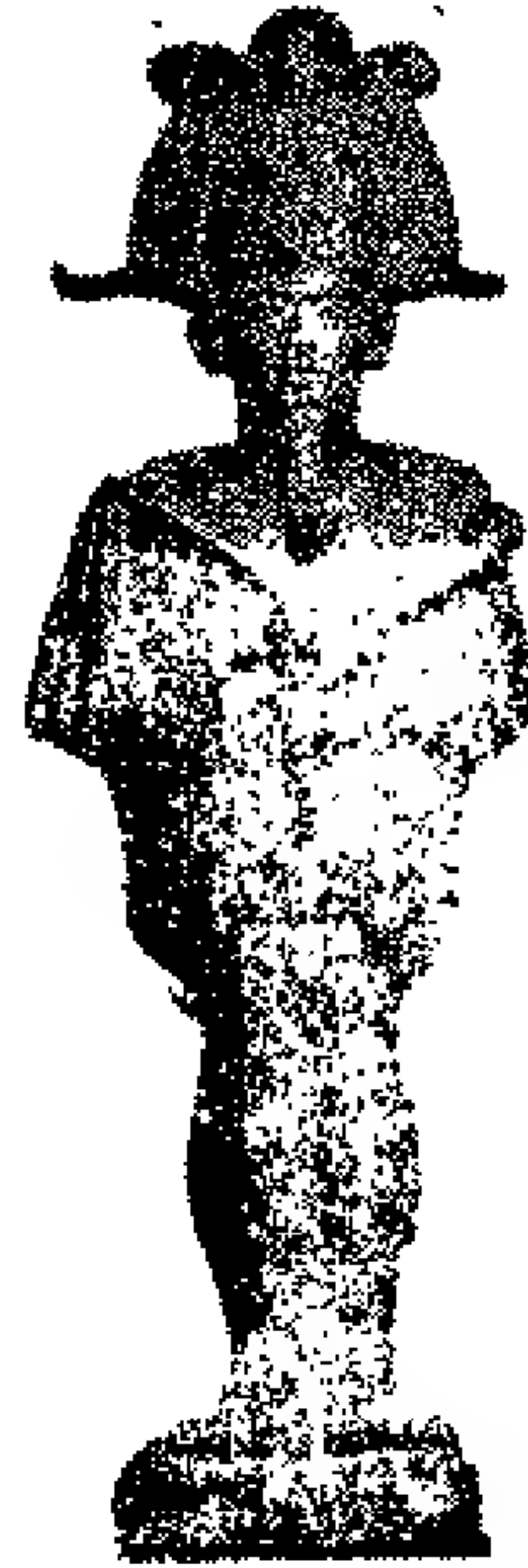


لوحة ١٧

(شكل ١) إناء للنبيد من الفخار،
عليه كتابات بالمداد تتضمن
تاريخ ونوع التعبئة.



(شكل ٢) أنبوبة على شكل
الزاوية ومصفاة من الرصاص
لمصاصه كانت تستعمل لشرب
النبيد. وإلى اليسار إناء صغير
من الرصاص للخمس (من قل
العمارة - المتحف البريطاني).



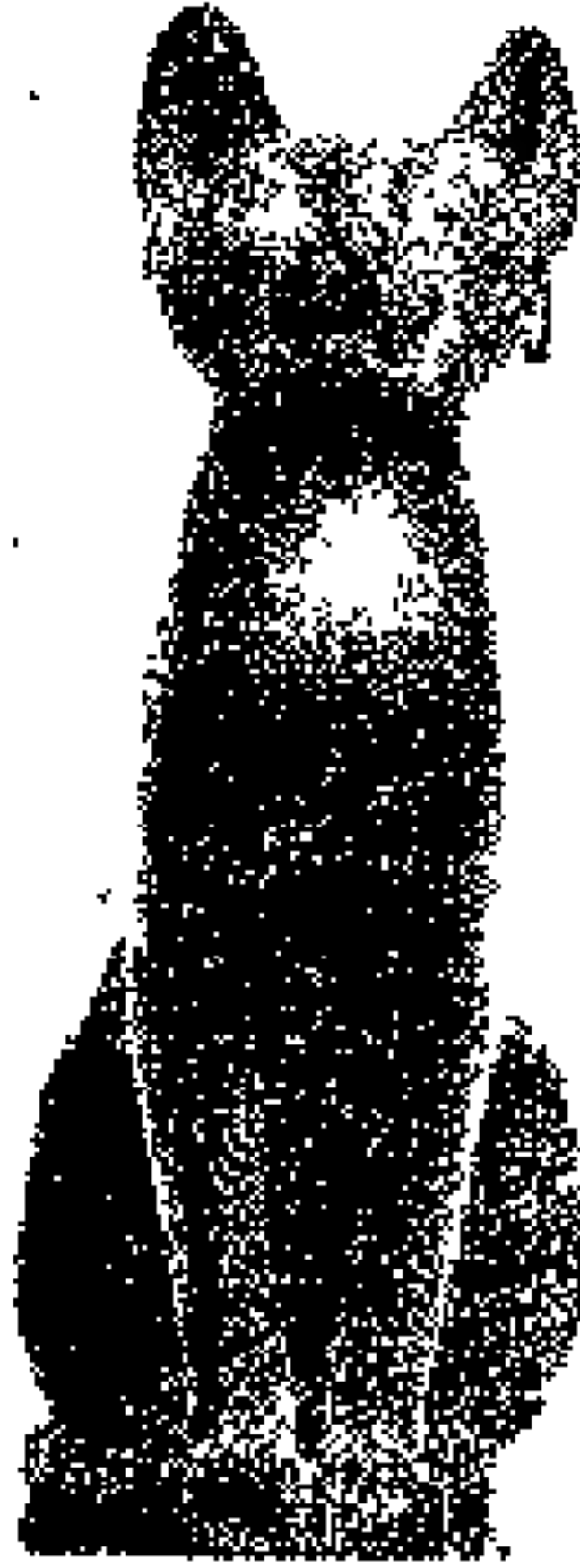
لوحة ١٨

(شكل ١) تمثال صغير جالس
من الهرودن لأوزيريس، إله
الموتى. (المتحف البريطاني).

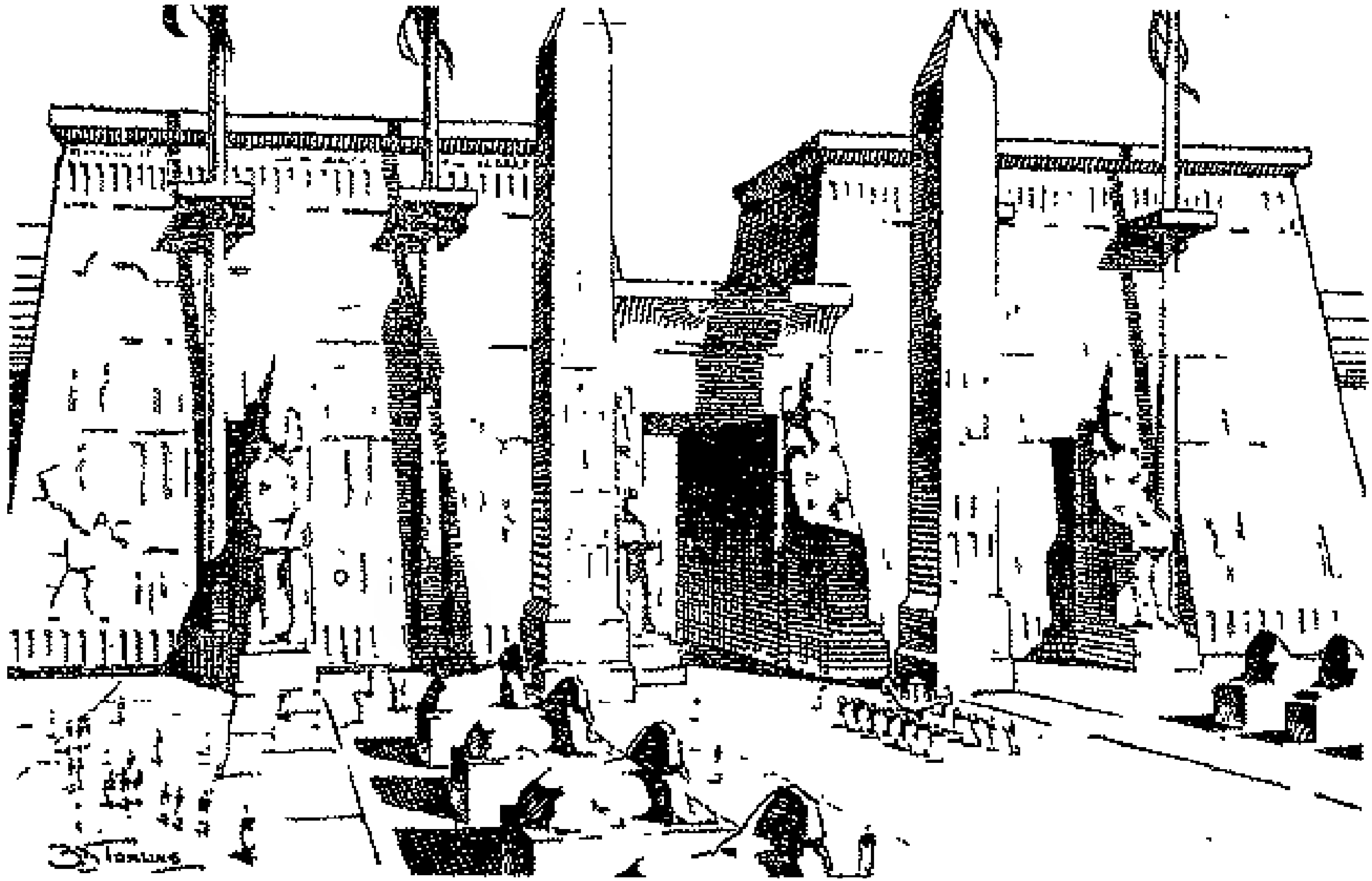


(شكل ٢) تمثال صغير جالس
من الهرودن لأوزيريس - حثحور،
زوجة أوزيريس، وهي ترضع
حورس، إبنهما الرضيع.

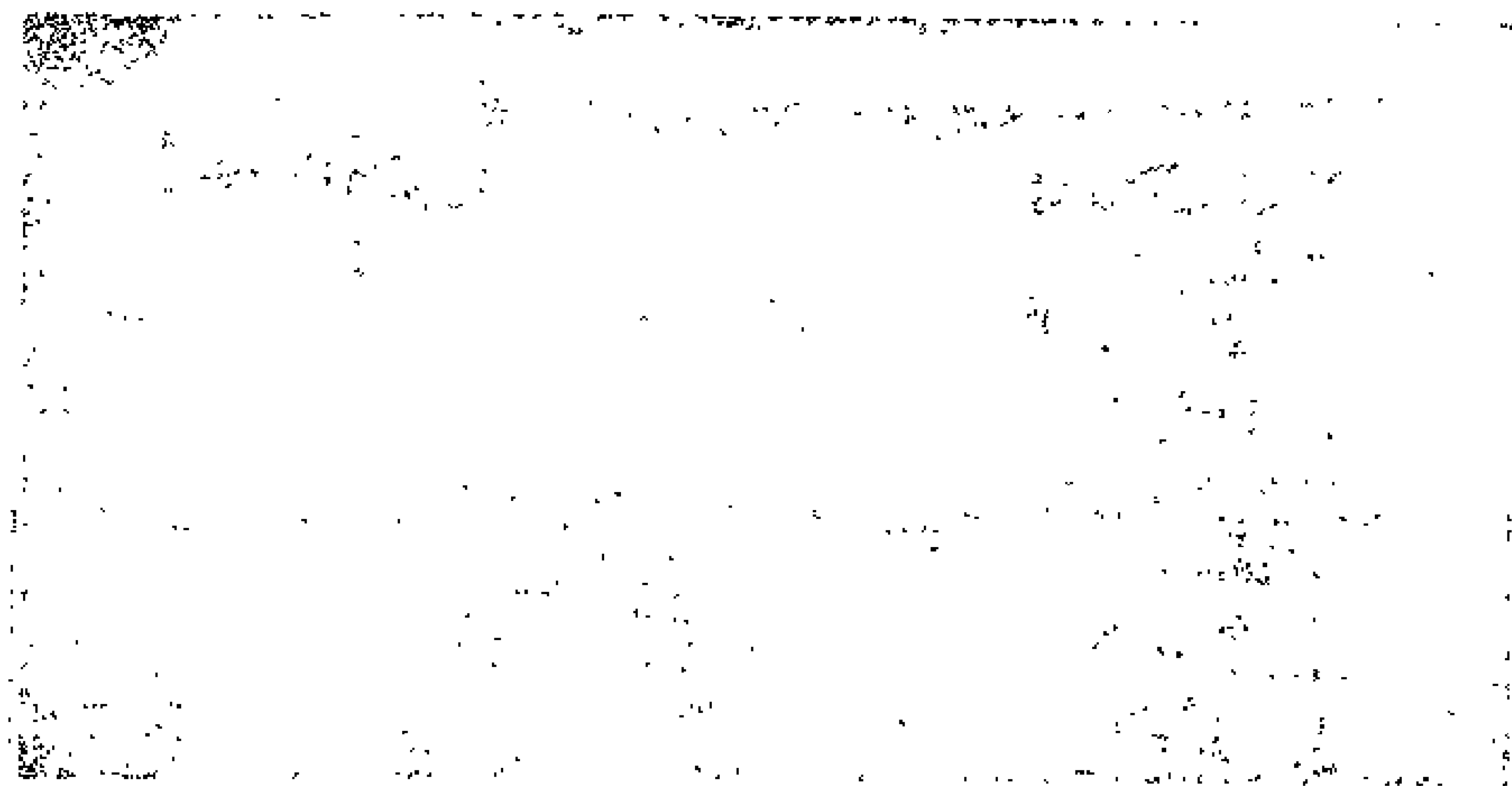
شكل (١) مومياء أحد العجول
المقدسة من العصر الروماني
(المتحف البريطاني).



شكل (٢) قطعة من البرونز لآلهة
أو باستت، تتجلى بأقراط من
الذهب من الأسرة ٢٦ (المتحف
البريطاني).



إله مصري يخرج من أحد المعابد في مهرجان محمولا على الأعناق



لوحة ٢٥

لوح للكتابة من الخشب عليه تمرين مدرسي يتضمن قائمة بأسماء بعض «كفتيو»
(أهالي كريت)، (الأسرة ١٨) (المتحف البريطاني).



(شكل ٢) مومياء أحد كهنة
أمسون (الأسرة ٢١)، وترى
القمائم معلقة في الرقبة.



لوحة ٢٦

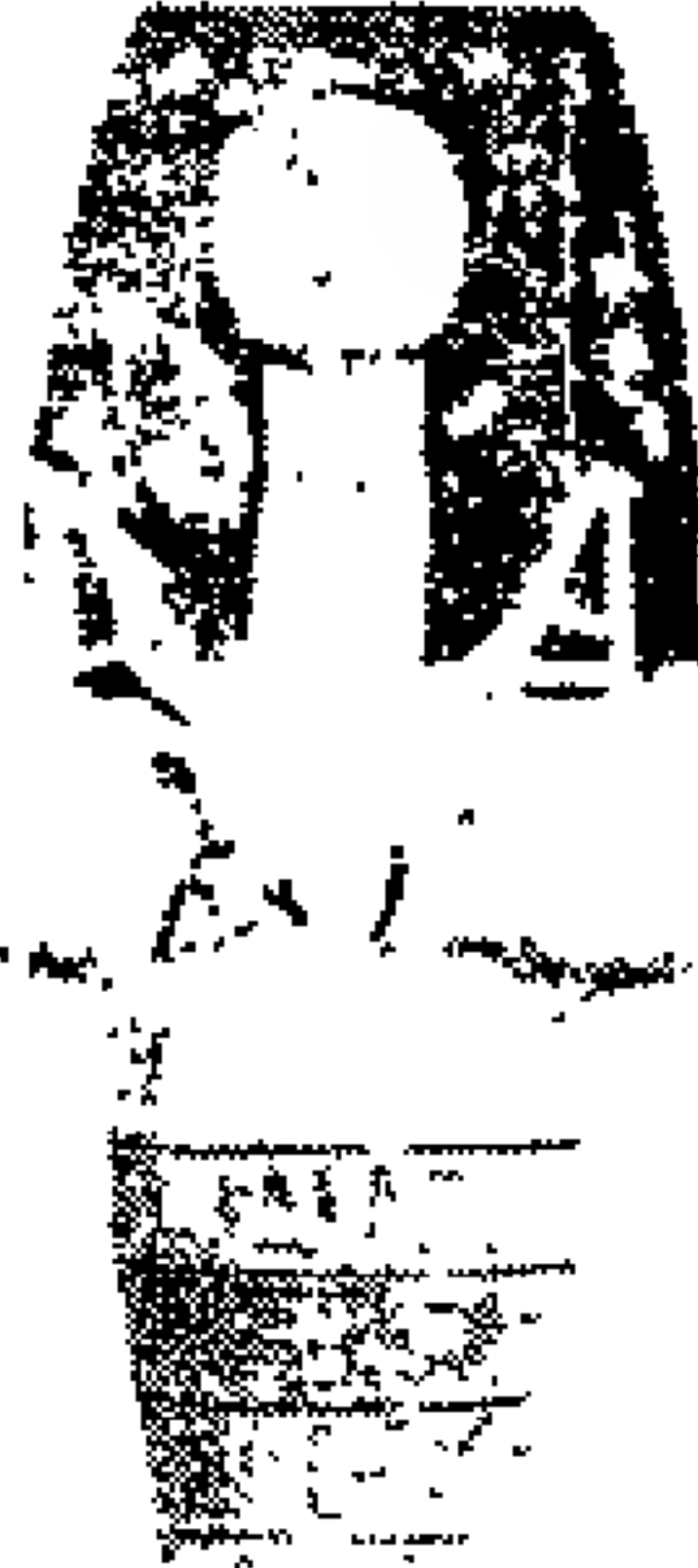
(شكل ١) خاتم بأعلاه جعل
(جعران) لكبير كهنة بتاح في
عهد أمنحتب الثالث المدعو «بتاح
موسى»، (الأسرة ١٨) (المتحف
البريطاني).

لوحة ٢٧

(شكل ١) التابوت الداخلى المذهب للسيدة «حنت
محيت»، (الأسرة ١٩) (المتحف البريطانى).

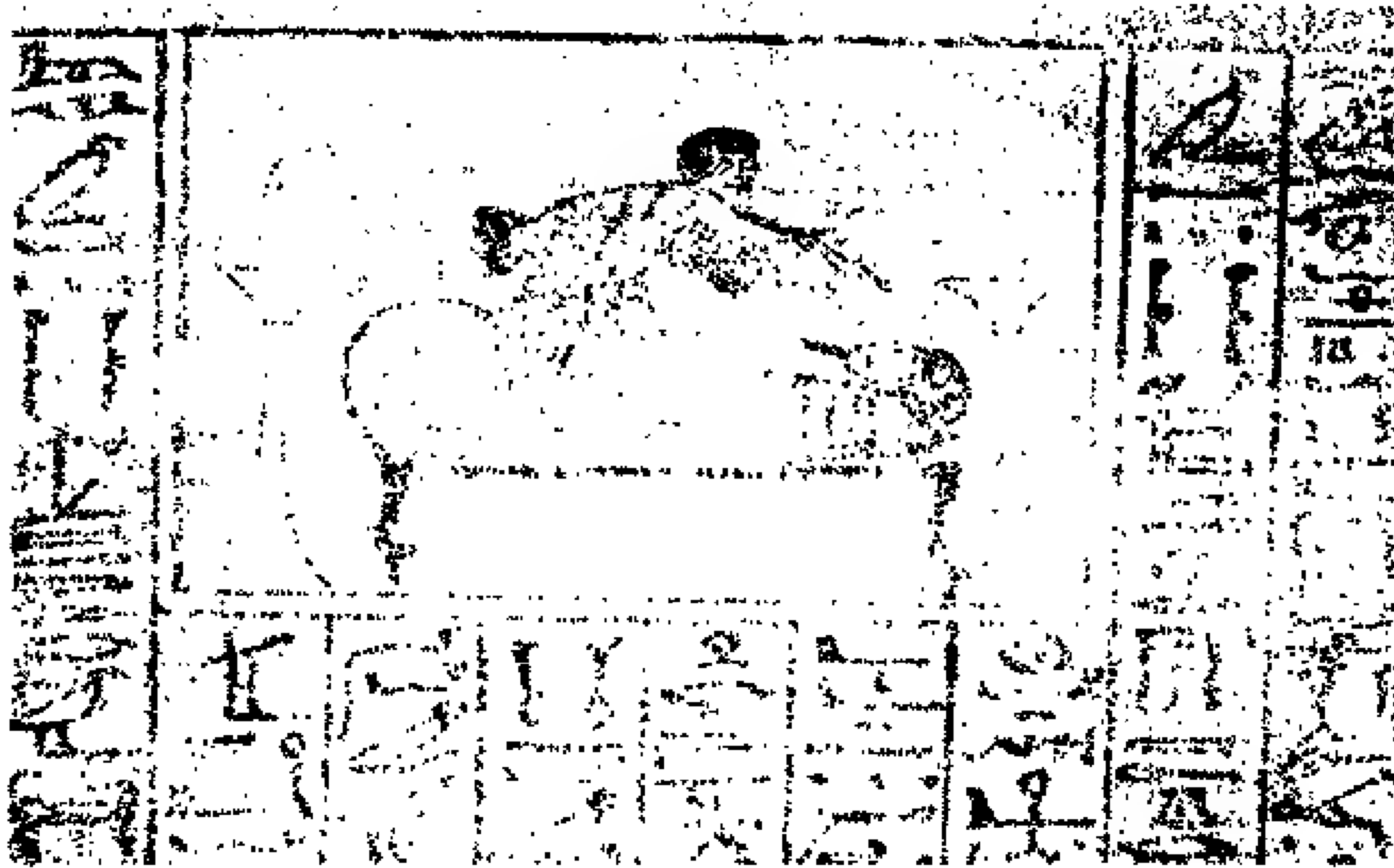


(شكل ٢) مومياء إحدى الكاهنات الموسيقيات
لامون رع فى طيبة، وتدعى «كاتبت». لاحظ القناع
ذا الوجه المذهب والأيدي الخشبية التى تتحلى
بخواتم حقيقية من العقيق وإلى أسفل ذلك
قسلاند وتمثال «أوشبتي» (أسرتا ١٨، ١٩)
(المتحف البريطانى)



لوحة ٢٨

تمائيل «أوشبتي» من عصور مختلفة. من اليسار إلى اليمين: كاهنة موسيقية
لامون رع (حجر جبر، أسرة ١٨) الموظف محوى (خشبي، أسرة ١٩)، تمثالان للملك
«باى نجم» الثانى (قاشانى مزيج، أسرة ٢١)، تمثال المشرف على الملابس المدعو
«ياخاس» (قاشانى مزيج، أسرة ٢٦) (المتحف البريطانى)



لوحة ٢٩ رسم وكتابة من كتاب الموتى.

الرسم يمثل الروح (با) تزور المومياة في المقبرة، من بردية «أنى» الأسرة (١٩) المتحف البريطاني.

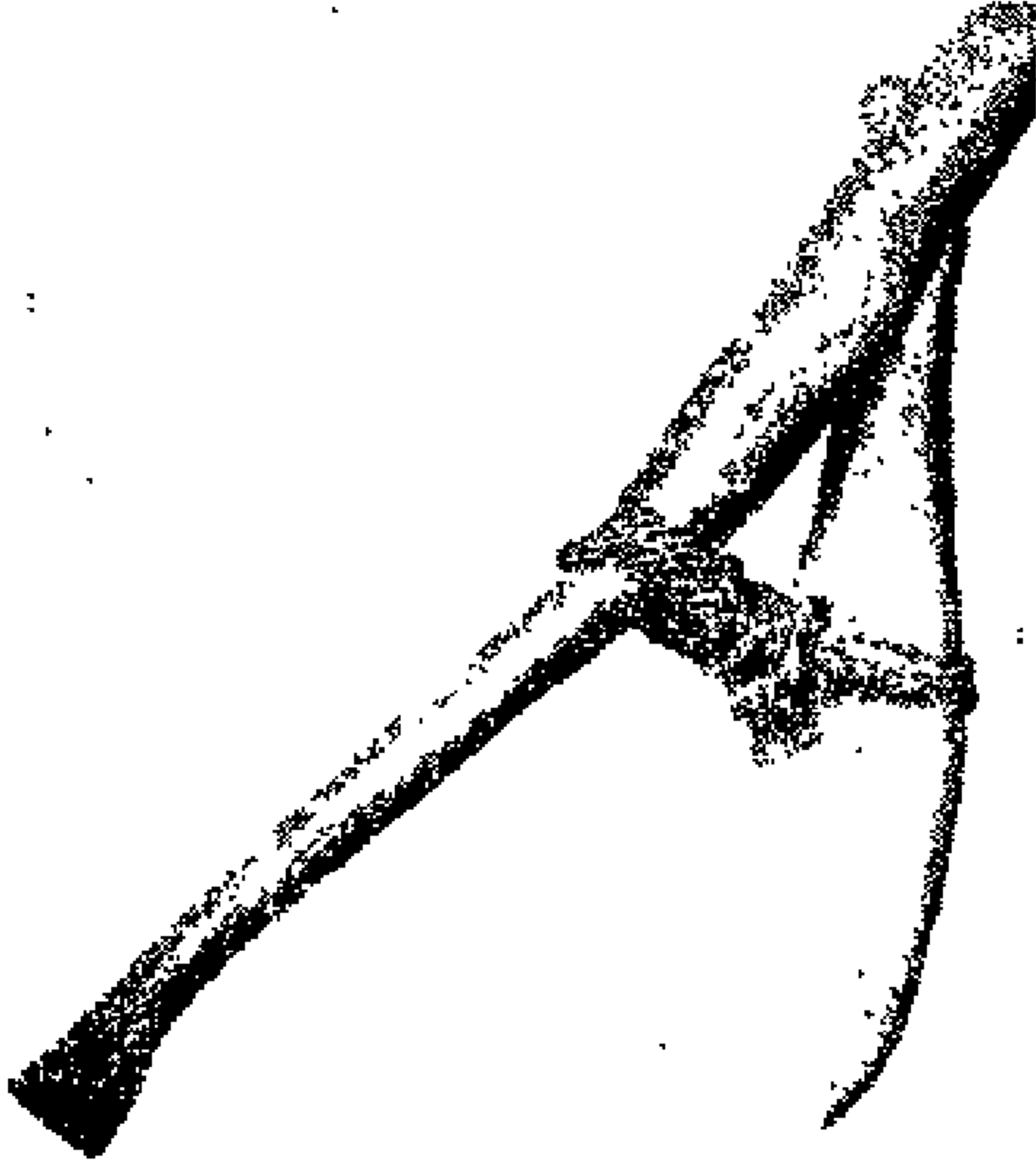


لوحة ٣٠ فتح الفم

إنى افتح فمك بالساحر العظيم

لوحة ٣١

(شكل ١) فأس من الخشب
(المتحف البريطاني).



(شكل ٢) منجل من الخشب،
أسنانه من الظران (الصوان)
(المتحف البريطاني).



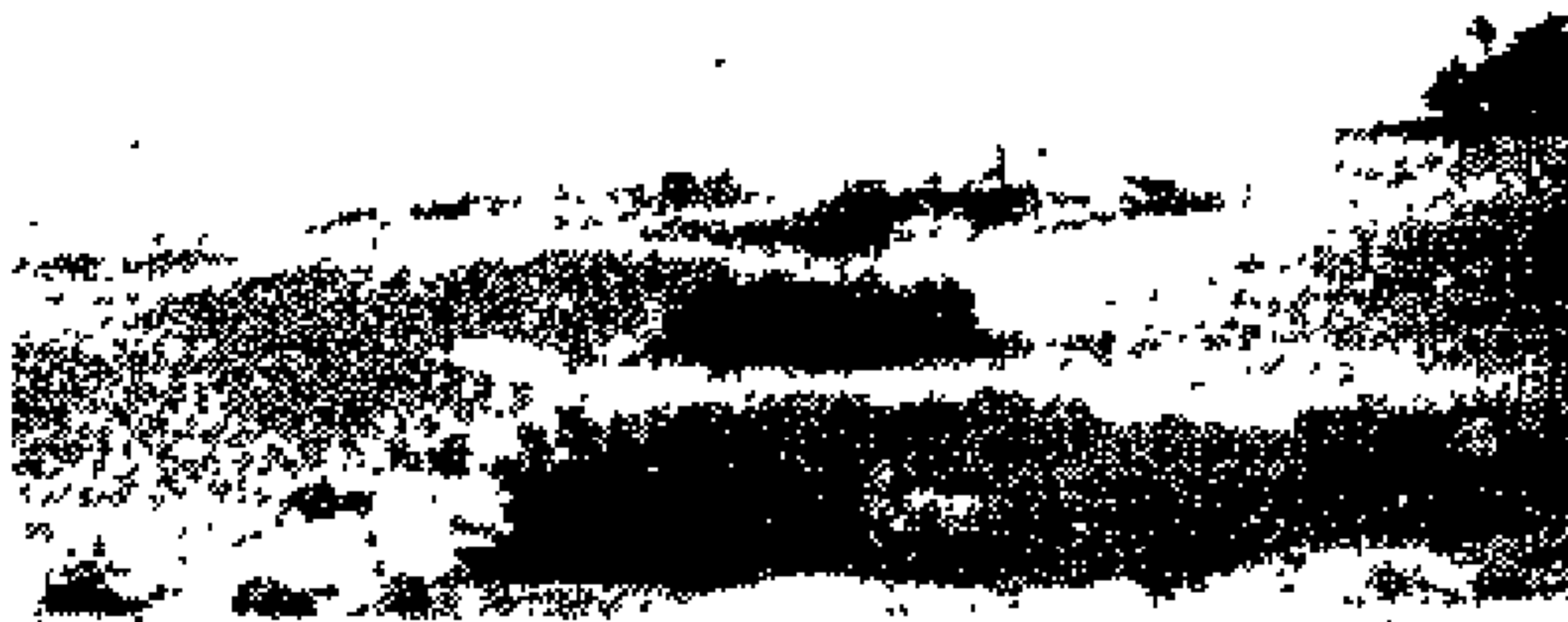
لوحة ٣٢

نقل تمثال ضخم في عصر الدولة الوسطى (عن ديوراما بمتحف العلوم، في
سوت كسنجتون).



لوحة ٢٢

تابوت خرد، جبي وندمان بالذهب،
للملك «أنتف» الخامس، الأسرة
(١٧) (المتحف البريطاني)



لوحة ٢٤

(شكل ١) منظر
للصحراء بالعمارة، في
اتجاه الجنوب



(شكل ٢) العمل بالحفائر التي
تقوم بها «جمعية الكشف بمصر»
في العمارة

لوحة ٢٥

(شكل ١) الغرفة الوسطى
بأحد منازل العمارة

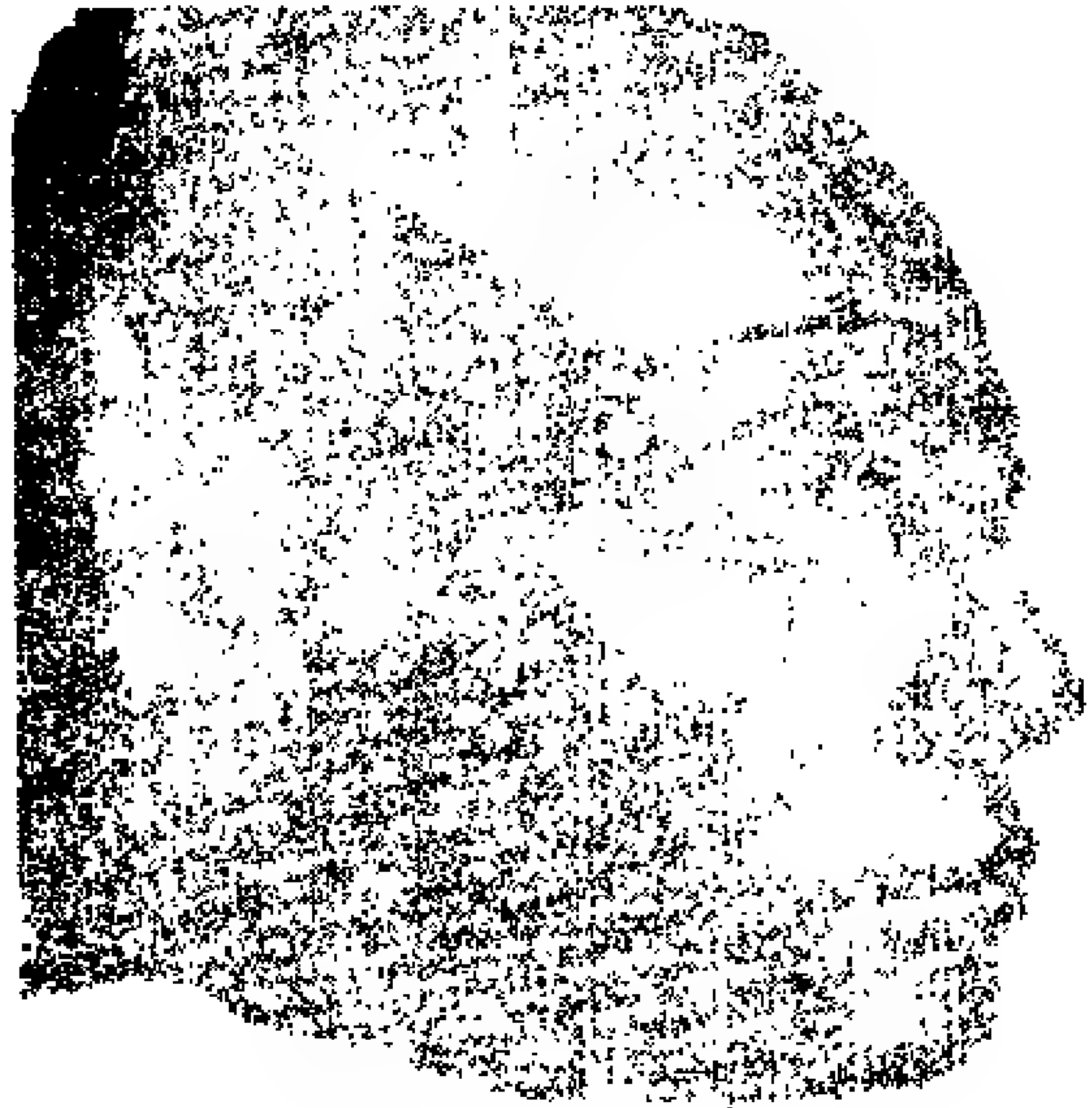


(شكل ٢) منظر أوصح (عن قرب) لأرضه
الغرفة المبيبة أعلاه يرى فيه آثار ملامح
الخشبانية موجدية في الأماكن الطين
الملون الذي كان يغطي عوارض السقف
الأصليه التي سقطت فيها.

لوحة ٢٦

تمثال من الجرانيت للملك (سنوسرت)
الثالث، أحد ملوك الأسرة الثانية عشرة
(المتحف البريطاني)





لوحة ٣٧

رأس من الأوبسديان هو صورة
حقة لأحد ملوك الأسرة الثانية
عشرة، وقد يكون «أممحات»
الثالث.



لوحة ٣٨

الجزء الأعلى من تمثال ضخم
من الجرانيت للملك «رمسيس
الثاني»، من معبد الرمسسيوم،
بطيبة، يبلغ ارتفاعه نحو ثلاثة
أمتار، «المتحف البريطاني».

وكانت تدرس الرياضة كذلك الى حد ما وكانت تحوى مجموعة من الاعداد ذات الصيغة العملية * وفى بلاد مثل مصر يطلق الفيزيكان فى كل عام على حدود أرضها الزراعية ، كانت معرفة مقاييس الأرض أمرا بالغ الضرورة * وإلى جانب ذلك نرى أن الموظفين الذين يعملون فى بيت المال والكتاب الذين يعملون فى الادارات المتصلة بالضرائب أو خزن الحبوب يحتاجون الى تمرين كامل فى الحساب وقد بقيت لنا بضعة مسائل حسابية ورياضية من ذلك العهد وأشهرها بردية « رند » الرياضية المحفوظة فى المتحف البريطانى *

ولا بد أن النظام فى المدرسة المصرية القديمة كان صارما ودليلنا على ذلك الكلمات التى تشير اليه فيما يتصل بتصحيح الانشاء الذى ينسخه التلميذ فيقول المدرس لتلاميذه « أكتب بيدك واقرا بفمك لا تتراخ ولا تضع يومك فى تكاسل والا فالويل لأعضاء جسمك * اتبع طرائق معلمك واستمع الى تعاليمه ، لا تقتض اليوم متكاسلا والا ضربت * اذن الصبى على ظهره وهو يسمع ان ضرب (١) » *

ورغم العنف الذى كان يتسم به استخدام العقوبات البدنية الا انه يظهر أن السلطات المدرسية كانت تذهب الى أبعد من ذلك فى حماسها لتصحيح أخطاء الصغار ففى فقرة أخرى من إحدى كراسات النسخ نرى المدرس يصف للتلميذ ما أصابه هو حين كان صغيرا لا يحمل أى مسئولية فيقول له « ان نظرت الى حين كنت صغيرا مثلك لكنت ترانى اقضى يومى بالقيود فى يدي وهذا هو ما كان يقيد أطرافى حتى يظل لا يبرحها مدى ثلاثة شهور * كنت أسجن فى المعبد على حين يكون أبى وأمى وأخواتى فى الحقل » ومن الواضح أن أثر هذه المعاملة السيئة كان أمرا يبعث على الأمل فيقول المدرس « حين رفعت عنى القيود وأصبحت يدأى حرة أصبحت مميزا عن الأيام الخوالي وصرت أول أقرانى بل وتفوقت عليهم فى الكتب (٢) » *

(١ ، ٢) ترجمة أرمان ويلكمان السابقة *

والفقرات السابقة نموذج للحث على عمل التلاميذ لنسخ « محسنة » وهي تكثر في النصائح الخاصة بالصناعة وهي تقرّظ مهنة الكتابة مع عقد مقارنة للحط من شأن الحرف الأخرى وتحذيرات مشددة ضد الاستهتار فيقول المعلم « لقد بلغنى أنك تهجر الكتابة وتنغمس في اللهو وتنتقل من شارع إلى شارع تفوح منه روائح الجعة لتقودك إلى الهلاك » (١) . وبالإضافة إلى هذا النوع من المسادة كان الأولاد ينسخون كذلك نماذج خطابات تتصل بالأعمال من كل نوع . وبعض هذه الخطابات كان يقدمها المدرس من أمثلة أصلية على حين كان بعضها الآخر وهميا . وكان هدفها تعليم التلاميذ انشاء الخطابات من كل نوع وليعتاد صيغ التعبير الفياض . وكانت توضع امام التلاميذ كذلك قوائم طويلة من الكلمات تحوى أسماء الاجرام السماوية ومختلف رتب النجوم والأسماء الجغرافية وأسماء المباني وأجزاءها وعددا عديدا من انواع الطعام والشراب . وهناك مثل طريف لذلك في لوحة الكتابة التي تقدمها في لوحة ٢٥ وبها قائمة من أسماء الكفتيين (سكان كريت) والتي ترجع إلى عهد الأسرة الثامنة عشرة ونستطيع ان نستخلص ان الأولاد كان عليهم ان يكتبوها صحيحة ثم يحفظوها . وقد أمضى الصغير « انى » صباحه في هذا العمل حتى توسطت الشمس كبد السماء . ولم تكن فصول الدراسة تعقد بعد الظهر فلما صرف المدرس تلاميذه اندفع مع زملائه في صيحات الفرح خارجين من المبنى كما يفعل اطفال اليوم . وقد كان للجهد الذى بذله أثره فى تجويعه وكم سره أن يلقي أمه وهى تنتظره فى الخارج تحمل له طعامه من خبز وجعة . وبعد أن تناول وجبته أصبحت لديه الحرية ليلعب كما يريد .

ويؤدى بنا وصف كتب المدرسة إلى التدبر فى موضوع الأدب المصرى عامة . . أى نوع من الكتب كان الرجل المشقف يهتم به؟ يمكن تقسيم هذه الكتب إلى مرتبتين: الأولى مجموعات

(١) ترجمة أرميا وبلكان السابقة .

من الوصايا النافعة والأخرى قصص : ولنبداً بالمجموعة الأولى .

كان المصريون يفرمون دائماً بالتعبير عن أفكارهم عن السلوك الشخصى فى صورة نصائح (مثل كتاب الامثال فى التوراة) وكان من عادة الكاتب ان يضعها على لسان رجل عظيم من عصر قديم يكون قد اشتهر بالحكمة . ومن اشهر كتب الحكمة هذه « تعاليم بتاح حتب » التى يظن ان كاتبها وزير يحمل هذا الاسم عاش فى عهد الملك «اسى» من ملوك الأسرة الخامسة (حوالى ٢٦٥٠ ق م) وتمثل مقدمة هذه المجموعة بتاح حتب فى سنه المتقدمة وهو يأمل أن يتلقى ابنه خلاصة حكمة سنيه الكثيرة . ثم نراه بعد ذلك يقدم له مجموعة من النصائح التى تتصل بالسلوك الصحيح فى مختلف المناسبات فهو يحذر ابنه من الغرور بسبب علمه ويحرضه على قول الصدق دائماً ثم يتناول الحديث عن مزايا الزواج ويصف كيف يجب على الضيف أن ينصرف حين يدعى الى مأدبة وهكذا . وهناك كتاب آخر يشبه هذا الكتاب ينسب الى وزير من أقدم العصور يدعى « كاجمنى » ويحوى هذه النصيحة التى تتصل بأداب المائدة :

« اذا جلست مع اشخاص كثيرين فاصطنع كراهية الطعام حتى ولو كنت شديد الرغبة فيه . ان الأمر لا يستلزم وقتاً طويلاً لضبط النفس وأنه لمن المشين أن تكون نهماً . تمس هو الرجل الشره من أجل جسده (١) » .

وقد أدت جهود المصريين كقصاصيين الى نتائج أطيب مما أدت اليه المجموعة السابقة . وقد حفظ لنا عدد من القصص على البردى وعلى شظايا الحجر الجيرى وخيرها من كل ناحية هو قصة سنوهى الشهيرة . وتقع أحداثها الزمنية فى الجزء الأول من الأسرة الثانية عشرة . وتبدأ القصة بملخص مؤثر عن موت امنمحات الأول مؤسس البيت المالئ . وعند موت

(١) ترجمة ارمان وبلاكمان السابقة

الملك المسن كان ابنه سنوسرت فى طريق العودة من حملة ضد الليبيين ووصلته أنباء موت أبيه وهو فى الطريق فأسرع ليصل قبل أن تتم مؤامرة بديء فى نسج خيوطها بقصد وضع ملك يتنافس ووصلت أنباء تلك المؤامرة الى نبيل ذى رتبة ممتازة يدعى سنوهى كان فى حاشية «سنوسرت» * واحتوى الفرع «سنوهى» وخشى مغبة الزج به فى الصراع الوثييك فعول على الهرب السريع * وأخذ يتنقل من مكان الى مكان حتى شق طريقه الى الشمال الى فلسطين حيث لقي «ننشى» أحد أمراء هذه النواحي وصادقه ثم بدأ الحظ يحالفه ومرت سنون وازداد غنى وقوة كحاكم اقليمى ورغم ذلك كانت أفكاره تتجه نحو مصر ويحن للعودة اليها * ولحسن حظه استجاب القدر لسؤاله فصدر مرسوم يستدعيه الى بلاط فرعون وامتلأت نفسه فرحا وعاد بأسرع ما استطاع حيث لقيه سنوسرت الأول وبلاطه لقاء حارا *

هذه هى الفكرة البسيطة لهذه القصة القديمة ويستطيع القارئ أن يدرسها بنفسه (١) ان أراد أن يستمتع بحيكاتها الرائعة * هذا الى أن أسلوبها المليء بالصناعة الأدبية أسلوب قوى أخذ يستطيع أن يترك أثره فينا على مر القرون * وهناك فى القصة فقرات عاطفية مثل تلك الفقرة التى يردد فيها النبيل المنفى حنينه الى مصر :

«أى رب كيفما تكون أنت يامن رسمت لى طريق الهرب * * كن رحيمًا بى وأرجعنى الى العاصمة * الا لتسمح لى أن أرى المكان الذى يعيش فيه قلبى * أى أمر أعظم من أن يدفن جسدى فى الأرض التى ولدت فيها (٢) » *

أو حين يصدر المرسوم الملكى باستدعاء «سنوهى» فى لغة عالية يحرضه على التفكير فى يوم موته والعودة الى مصر حيث تقام له طقوس دفن جليلة * والقصة مليئة بلمسات

(١) مثلا فى ترجمة أرمات وبلاكمان فى كتاب

The Literature of the Ancient Egyptians

(٢) ترجمة أرمات وبلاكمان السابعة *

واقعية منها الترحيب الصاخب به من الملكة وأطفال البيت.
المالك حين شاهدوه وهم لا يكادون يصدقون أن ذلك البدوي
الأسعيت هو رجل البلاط في العهد الفايبر *

ومن الواضح لأول وهلة أن القصة التي تناولناها
بالوصف قصة ذات صبغة شبه تاريخية تستهدف قص أحداث
حدثت فعلا خلال حكم سنوسرت الأول وسواء أكان لها أساس
تاريخي أم لا فإنه يكاد يكون من المؤكد أن معظم «القصص»
التي شاعت في مصر القديمة كان يعتبرها المصريون روايات
تاريخية * وباستبعاد الحوليات الملكية كانت هذه القصص
لديهم أقرب مورد للتاريخ المكتوب ولذا فإننا لا نعجب حين
 نجد أن الممثلين الأول في هذه القصص هم غالبا ملوك
العصور الفايبرية أو الآلهة * وهكذا نرى مثلا أن قصة الملك
خوفو والسحرة تتحدث عن نشأة الأسرة الخامسة * ذلك أن
خوفو أول ملوك الأسرة الرابعة وباني الهرم الأكبر يصور
كأنما هو جالس في قصره يصفى إلى مجموعة من الأقاصيص
التي لا يقبلها العقل يحكيها له طفاله * وأخيرا يقف الأمير
حورددف ويعرض تقديم ساحر يستطيع القيام ببعض
المعجزات * وحين يؤتى بهذا الرجل إلى البلاط ويظهر قواه
الخارقة يسأله فرعون سرا عن بعض الأمور فيجيبه بأن بيته
سوف لا تطول مدة حكمه على عرش مصر وإن الحكم سينتقل
إلى ثلاثة أطفال يولدون من سيدة تدعى «روددت» هي زوجة
لأحد كهنة رع * ثم يتناول الوصف بعد ذلك مولد هؤلاء
الثلاثة وكيف شاركت الآلهات * «إيزيس ونفتيس ومسخت
وحقت» في عملية التوليد والتنبؤ بالمستقبل العظيم للمواليد *
ويمكن ربط علاقة هذه الأقصوصة بالتاريخ أن نحن تذكرنا
أن قيام الأسرة الخامسة يرجع إلى نفوذ كهنة رع في
هليوبوليس وأن عبادة الشمس خلال حكم هذه الأسرة كانت
أوضح معالمها *

وهناك قصة أخرى مشهورة ترجع إلى عصر قديم هي
قصة «البحار الغريق» وقد كتبت في الدولة الوسطى وهي

تحدثنا عن بحار غرق في البحر الأبيض المتوسط وقد ذهبت السفينة بددا ولم ينبج منها سواء فتقاذفته الامواج الى جزيرة صحرية حيث التقى بسمعان ضخيم « طوله ثلاثون ذراعا وطول لحيته أكثر من ذراعين وجسمه مغطى بالذهب وحاجباه من اللازورد الحقيقي (١) » وقد أثبت هسدا المخلوق العجيب طيبة من طراز فائق قبعد أن أصفى الى مغامرات البحار قص عليه قصته العجيبة . وجاءت سفينة الى الجزيرة أنقذت البحار الذى ارتحل الى مصر محملا بهدايا الشعبان . ونستطيع أن نتبين وجه الشبه بين هذه القصة وبين القصة المشهورة المعروفة بقصة السندباد البحري فى ألف ليلة وليلة كما نستطيع أن نقول أن القصص المصرية تظهر كأنما هى نموذج أصلى لكل نظائرها من قصص المغامرات فى بلاد الجان .

واستمر تأليف القصص فى الدولة الحديثة كما كان الأمر فى العصور السابقة وإن طرأت على اللغة المصرية تغييرات كبيرة ، ذلك لأن اللغة المصرية الحديثة — كما يسميها علماء الآثار — لا تعدل فى جلالها اللغة المصرية الوسطى الكلاسيكية ولكن هناك عددا من الروايات المسلية التى حفظت لنا عن هذا الطريق ولعل أشهرها هى قصة الأخوين (لوحة ٢٣) .

وتحدثنا القصة كيف أن أخوين هما أنبووباتا — وأكبرهما وهو أنبو كان متزوجا — كانا يعيشان فى صداقة وسلام معا ويعملان كفلاحين . وعاد الأخ الأصغر الى البيت يوما من الخقل ليحضر بعض الحبوب التى كان فى حاجة اليها فوجد زوجة أخيه تمشط شعرها وحاولت الزوجة اغراء « باتا » فلما تأبى اشمئزا وغادر البيت عولت على افساد ما بينه وبين أخيه . ولما عاد زوجها فى المساء أدعت أن « باتا » هاجمها فامتأ قلبه حقدا على أخيه البريء وعول « أنبو » على ذبحه ولكن بقرتين كان يسوقهما « باتا » الى الحظيرة حذرتاه

(١) ترجمة ارمان دبلان السابقة .

فجرى هاربا يطارده أخوه . وتصدى كل منهما للآخر عبر مجرى ماء أمر رع حور أختي أن يقسوم بينهما واستطاع « باتا » أن يقنع أخاه أن زوجه خائنة وأنه يرى فعاد أنبر الى البيت وذبح زوجه ورمى جثتها للكلاب .

ثم ذهب « باتا » الى وادى الأرز حيث عاش هناك زمنا وأخذ يصيد من حيوان الصحراء وطلب تاسوع الآلهة الى خلوم أن يشكل له زوجة فائقة الجمال حتى لا يكون وحيدا . وكانت هذه الزوجة سبب دماره . فعين كانت تسير يوما على شاطئ البحر ألقت عفوا بخصلة من شعرها وحملها التيار الى مصر الى حيث كانت تغسل ملابس فرعون فنقذ عطرها الى الثياب الملكية ولما شك فرعون من ذلك وهو يعتقد أن الملابس لم يحسن غسلها قامت التحريات فى كل ناحية وانتهت الى اكتشاف خصلة الشعر عند مغسل النهر . فجئ بها الى فرعون الذى أمر بالبحث عن صاحبها فوجه بعثة الى وادى الأرز ولكن « باتا » قضى عليها ووجه أخرى استطاعت أن توفق وتعود بالمرأة الى مصر . ولما تزوج فرعون منها ورفعها الى مرتبة الأميرات التمسث منه أن يحقق مسوت زوجها بارسال رسول الى وادى الأرز ليقطع شجرة الأرز التى وضع « باتا » قلبه فى إحدى ثمارها . وتم ذلك الأمر ومات « باتا » لفوره .

ولكن أمر « باتا » لم ينته بالنسبة للزوجة الخائنة ذلك أن « أنبو » أعاد اليه الحياة ، اذ أرجع له قلبه فعاد الى البلاط فى هيئة ثور مقدس وكشف عن شخصه للأميرة فأمرت بذبحه ولكن نقطتين من دمائه سقطتا على الأرض أمام بوابة القصر ونبتت مكانهما شجرتا برساء ضخمتان وحين جلست الأميرة تحت احداهما بعد بضعة أيام سمعت « باتا » يتحدث اليها فأدركت أنه مازال حيا . فانطلقت المرأة المدعورة الى فرعون وطلبت اليه أن يقطع الشجرتين ويصنع منهما أثاثا . ولم تفلح هذه المكيدة مرة أخرى لأن شظية من الخشب دخلت الى

فمها فحملت من الشقلية يابن كان هو باتا نفسه . . ويموت
فرعون اعتلى العرش وواقع العقوبة بالزوجة الشريرة وعين
أخاه الأكبر وليا للعهد .

ويستطيع الباحث في الدراسات المصرية أن يدرك للتو
عقب قراءة القصة أن الأخوين لم يكونا من البشر ، وإن
مغامراتهما العجيبة ليست كلها من اختراع الروائيين .
ويستطيع القارئ أن يتذكر أن « القصص » عند قدماء
المصريين كانت لونا من ألوان التاريخ الشعبي وقصة الأخوين
فيها ناحية منه . ف « أنبو » الأخ الأكبر ليس سوى الإله
أنوبيس وباتا يعرف كاله كان يعبد إلى جانب أنوبيس في
مصر العليا في مدينة ساكا ورغم ذلك فإن قصة « باتا » تميظ
اللاثام من غير شك عن جانب من قصة أوزيريس في الصورة
الشعبية وتشير بصفة خاصة إلى موته وإلى بعته بواسطة
« أنبو » .

أما التراث الذي يتصل بمختلف الآلهة وتوارينهم فقد
احتفظ به في الأدب الديني الذي جمعه الكهنة . . . ويكاد
كل « قول » من متون الأهرام القديمة وكل فصل من كتاب
الموتى يحمل إشارة أسطورية لا تكاد اليوم نفقه لها معنى .
ولكن يجب علينا ألا نفترض أن هذا الأدب الديني الرسمي
كان يقرؤه عامة الشعب . فمن ناحية لم يكن يعرف القراءة
والكتابة سوى القليلين وحتى هذه القلة لم يكن يسمح لها
غالباً بمطالعة كتب المعابد التي كانت قراءتها مقصورة على
الكهنة وحدهم . أما المتون الجنزية التي تغطي جدران
المقابر والتي كتبت على البردي والأدوات الجنزية فكان
ينسخها كتاب معينون ، ولا يكاد يفقه معناها من كتبت من
أجلهم .

وكان يحتفظ بتراث الدين في قصص شعبي - كما هي
الحال في جهات أخرى في العالم - يتداول من فم إلى فم
وتروى فيه أمتع الحوادث عن حياة الإله - وبعض هذه
القصص - مثل قصة الأخوين كان يدون أحيانا . ونحن
نحس بالشكر العميق لذلك الضوء الذي تمنحنا إياه .

ولعل البعض يتساءل ان كان مؤلفو أمثال هذه القصص يسخرون أحيانا من أبطالهم المقدسين كما يفعل شعرايون اليونان حين لا يترددون في المبالغة في اخفاق الأولمبيين وخياناتهم وحيلهم ومداعباتهم . . . والواقع أننا نستطيع أن نلمس هنا كذلك نفس الحرية في التعبير ولعل من الأمثلة الواضحة لذلك القصة التي كشف عنها أخيرا في بردية ترجع للأسرة العشرين وقد نشرها الدكتور جاردنر (١) . وتكشف هذه الوثيقة الهامة عن جانب من جوانب الفكر المصري ومدى اعتقاده في الآلهة وتتضمن وصف حادث هام في القضية العظمى التي أقامها «ست» إله الشر ضد «حوريس» بعد موت «أوزيريس» والد الثاني . وادعى «ست» أحقيته لعرش مصر الذي كان من نصيب حوريس شرعا . . . ولكي يصل إلى أهدافه لجأ إلى مختلف الحيل فادعى أن حوريس ليس ابنا شرعيا وأنه هو أحق بوراثة العرش لهذا السبب . . . وهكذا جيء بالقضية أمام مجمع الآلهة . وحين يبدأ وصف الأحداث التي تتناولها البردية تكون قد مرت ثمانون سنة منذ بدء المقاضاة . وسرعان ما تضيق صدور الآلهة ويبدأ الواحد في عرض دعواه ثم يبدأ الآخر في شرح أحقيته ويكاد المجلس يتخذ قرارا لولا أنه يحس أنه غير قادر على ذلك . . . وبعد استعراض طويل لصور شستى من الخداع — بل الثورة — تنتقل ملكية مصر في آخر الأمر إلى ابن أوزيريس .

والقصة إحدى القصص الشديدة الأثر في الأدب المصري ومن أكثرها تشويقا من غير شك . هذا إلى أن الخشونة غير المعقولة التي يجيب بها الواحد من الآلهة الآخر وحدة صخبهم جميعا . . . — فإله الشمس تغضبه ملاحظة تهكمية من أحد أعضاء المجلس حتى يضطر إلى الانسحاب إلى خيمته حتى يترضوه . وعدم وصول المجلس إلى قرار

(١) بردية شستريتي رقم ١ .

فِيُنْجَازُ مَرَّةً إِلَى هَذَا الْجَانِبِ وَمَرَّةً أُخْرَى لِلْجَانِبِ الْآخَرِ . .
كُلُّ هَذِهِ الْمَظَاهِرِ الَّتِي تَكْشِفُ عَنْهَا الْقِصَّةَ تَحْوِلُ إِلَهَةَ الْمِصْرِيَّةِ
إِلَى كَائِنَاتٍ مَادِيَّةٍ أَمَامَ أَعْيُنِنَا . . وَرَغْمَ ذَلِكَ فَانْهَمَ لَا يَفْقَدُونَ
وَقَارَاهُمُ كَخَالِدِينَ لِأَنَّ إِلَهَ الشَّمْسِ - كَسَابِقِ الْعَهْدِ بِهِ مِنْذُ
الْقَدَمِ - هُوَ «سَيِّدُ الْعَالَمِ» وَ «سِت» يَذْبَحُ لَهُ كُلُّ يَوْمٍ أَعْدَاءَهُ
حِينَ يَرْتَحِلُ فَوْقَ «قَارِبِ الْمَلَائِكِينَ» السَّمَاوِيِّ .

الفصل الخامس

دفنة جليلة بالجبانة

« كانت السيدة «حنث معيت» زوجة «جدخونسو» خازن معبد آمون رع فى الكرنك والكاهنة الموسيقية للاله مريضة مرضا خطيرا منذ اسبوع »

وكان «جدخونسو» قد انتقل منذ اسبوعين الى اوزيريس فريسة شكوى حار فى تشخيصها الأطباء والآن ها هي ذى زوجة على أبواب الموت . وكان الحزن قد اودى بها بعد وفاة زوجها فأصرت على مصاحبة جثمانه حين كانوا يعبرون به النهر الى مكان التحنيط فى يسوم شتاء اشتد ريحه وقره فأصابها برد تحول الى التهاب رئوى واستدعى المتوكاهن طبيب من هيكल تحوت ولم يضع الوقت بل أخذ يتلو رقى سحرية لم يغب أثرها من قبل فى مثل هذه الحالات وكان نصها :

« أخرج أيها البرد يا من تكسر العظام وتحطم الجمجمة وتزعج الدماغ وتسبب ألم الفتحات السبع (١) فى رعوس أتباع حسوريس التى تتجه نحو تحوت . ها أنا ذا قد أتيت بالعلاج ضدك بالجرعة ضدك حتى لبن المرأة التى حملت طفلا ذكرا والصمغ المعطر عساها تظردك : لعلها تضطرك للخروج

(١) المينان وفتحنا الأنف والأذنان والبنم .

لعلها تدفعك خارجا - عساها تطردك - أخرج على الأرض -
ابل ابل ابل ابل » -

ورغم جهود الرجل الفاضل نحو مريضته فان حالتها
ساعت، لأن المرض كان فوق مستوى قدرته - وبقيت «نرمت»
طوال اليوم الى جانب سرير أمها وهي تستخدم مروحة من
قش النخيل وتضع على جبهتها ضمادات من مرهم مبرد -
وحين غاص رع اخيرا خلف جبل « مانو » جاءت النهاية
وارتمت «نرمت» باكياً عند طرف السرير من ناحية القدمين
• • لقد لحقت « حنت محيت » بزوجها في مملكة أوزيريس -

وكان موت ربة البيت علامة لما سوف يظهر لنا اسرافا
في مظاهر الحزن - فقلقد اندفعت «نرمت» وخادمتها الى الشارع
وهن تصرخن في صوت مرتفع ويمزقن ثيابهن ويهلن الطين
والتراب فوق رؤوسهن وسرن في الحى الشمالى لطيبة حتى
وصلن الى بيت « نسامون » أخ « حنت محيت » فلما انبأته
« نرمت » بموت أمها لحق بموكب النساء وثيابه الكتانية
الرقيقة ممزقة والتراب يغطي جمته (شعره المستعار) وهو
يضرب صدره بيده ويئن فى صوت مرتفع -

وعند الوصول الى بيت الموت أيدى «نسامون» استعدادة
لعمل كافة الترتيبات الخاصة بالجنائز فأرسل للتو رئيس
الخدم ليستأجر قارباً لحمل الجثمان الى مكان التحنيط وكانت
« نرمت » والنساء الأخريات قد غسلن جثة « حنت محيت »
بالتان النظيف - وحين عاد رئيس الخدم كان يصحبه رجلان
يجران زحافة خفيفة خلفهما - وضعت عليها باحترام الجثة
التي كانت لا تزال على سريرها وسار نسامون مع الرجال
حتى رصيف الميناء حيث نقل الرجال السرير وما عليه على
القارب الذى رافقته الجماعة لتعبر النهر - وحين وصلوا
الى البر الآخر جرى يزحافة أخرى وحملت الجثة اليها وسحبت
الى ذلك المكان الذى تصبح من بغداد الخالدفة -

ورغم أن التحنيط كان أمرا شائعا في مصر القديمة
ورغم أن الضفة الغربية لطيبة كانت معملا كبيرا لصنع
الموميات والأثاث الجنزى فإنه لم يكن هناك مبنى دائم تتم
فيه عملية التحنيط فكانت تقام لكل شخص حظيرة مؤقتة
لتحنيطه ثم تفك أجزاؤها بعد الانتهاء من العملية - ولذا
فحين يقترب « نسامون » وجماعته الحزينة من الناحية التي
يقصدونها تلتقي أنظارهم بقرية من الاخصاص والخيام »

وكان يحيط بالمكان سور من اللبن تتوسطه بوابة أعلن
عندها « نسامون » ورجاله وصولهم الى البواب وانتظروا -
وبعد وقت قصير جاء الى البوابة معنطان حاريان الا من مؤزر
وقادوهم الى غرف العرض وهي مجموعة من الأكواح حفظت
بها نماذج من الموميات والتوابيت وكذا نماذج من الأثاث
الجنزى - وهنا شهد نسامون على الموائد مجموعة من نماذج
الموميات الدقيقة مصنوعة من الخشب وملونة بالألوان
الزاهية تمثل مختلف طبقات التحنيط التي تتم بأسعار
متفاوتة (١) - ولما كانت أسرة « نسامون » من اكبر الأسر ثراء
في طيبة وكان جثمان « جد خونسو » لا يزال في أيديهم منذ
عشرة أيام ليقوموا بتحنيطه تحنيطا فاخرا فإنه أوصى أن
يحنط جسد « حنت محيت » كذلك بنفس الطريقة الفاخرة -

« وبعد ذلك انتقل « نسامون » لاختار الجانب الباقي من
معدات الدفن وهي التابوت الداخلى والخارجى وأوانى
الاحشاء وتمائيل الأوشبتي ونسخة من كتاب الموتى وأشياء
أخرى سنتناول وصفها بالتفصيل فيما بعد - وكانت مندة
التحنيط تستغرق سبعين يوما ولذا فإنه كان من الواضح أن
جثمان « جد خونسو » سيكون معدا قبل جثمان زوجته التي
سارعت باللاحاق به ولكن « نسامون » أصدر أوامره بأن يؤجل
تسليم مومياء « جد خونسو » حتى يتم تحنيط جثمان « حنت

محييت « ويسلم الاثنان معا الى الأسرة في يوم الجنازة . وبعد
عمل الترتيبات جميعا عاد « نسامون » الى المدينة ليعزم ابنة
أخته تاركا أخته في رعاية المحتطين » .
« لم يكن التحنيط في مصر القديمة عمل متعهد يختص
بأمور الدفن بل كان طقسا دينيا مقدسا لأن العملية كلها من
بدايتها الى نهايتها كانت تقليدا لما تم عمله لأوزيريس اله
الموتى وحاكم العالم السفلى » وفي العصور الفأبرة كان
أوزيريس المقدس (لوحة ١٨ شكل ١) يحكم مصر كملك
فقتله غدرا أخوه « ست » العدو الأكبر للاستقامة والصالح
والتقوى ولم يكتف « ست » بهذه الجريمة المنكرة بل مزق جسد
أخيه الى أربع عشرة قطعة نشرها في أنحاء البلاد ولم تستشعر
ايزيس الزوجة الأمينة لأوزيريس (لوحة ١٨ شكل ٢)
الراحة حتى جمعتها ووصلتها الى بعضها ثم عاوتها الاله
أنوبيس الاله برأس ابن اوى فحنطها بمهارته المعهودة واستعاد
أوزيريس حياته عن طريق السحر وهكذا فشلت جهود
« ست » .

ولكن ليست هذه هي نهاية القصة . . . ذلك ان
أوزيريس توج ملكا على العالم السفلى . . . أرض الارواح
المرتحلة وكان يشهد بعثه كل عام أهل مصر ذلك لأن أوزيريس
كان مانح ميساء النيل الذي يعطي الحياة لمصر والتربة
السوداء والزراعة الخضراء التي تنمو بها . . . انه كان
الوجه المتغير للطبيعة . . . كانت ظاهرة موته تتمثل في ذبول
النباتات ونقصان ماء النهر حتى ليكاد يجف وكان بعثه
وانتصاره يرمز لهما الفيضان الزاخر والتمسج المتجدد
للنبات .

كان الرجال والنساء يستظيغون أن هم أرادوا أن
يحصلوا على الحياة بعد الموت كما فعل وكل واجبهم كان أن
يمروا بنفس الطقوس السرية وعلى ذلك فان كل طقوس
التحنيط كانت تستهدف تقليد ما تم لجسد أوزيريس على يد
أنوبيس . وكان المحنط يمثل أنوبيس فعلا خلال بعض
أجزاء العملية فيلبس قناعا في صورة رأس ابن اوى ويتلو

الكهنة المرتلون الذين يرافقونه بعض النصوص السحرية المتصلة بمختلف أدوار العملية ، ولنر كيف عالج المحنظون جسد « حنت محيت » (١) .

تجرد البجثة أولاً من الملابس وتوضع على لوح خشبي وتعمل الاستعدادات لنزع المخ بوضع مثقاب في الأنف عن طريق العظم المصفوي ثم يوضع مسير معدني ذو خطاف في نهاية الرأس عن طريق الفتحة التي استحدثت ويقطع المخ إلى أجزاء تسحب بواسطة قسبة ملفوفة تستعمل كمبسط الصيدلي اليوم . ثم يغسل الفم ويملاً بكتان مشبع بالراتنج وتوضع ضمادات من الكتان فوق الأعين الغائرة وتسحب الجفون فوقها .

أما المرحلة التالية فكانت تتضمن التخلص من الأمعاء فيبدأ أحدهم بجرح خط بالحبر على الجانب الأيسر من الجسم ثم يقطع آخر قطعاً طويلاً بسكين وبواسطة هذا القطع وقطع آخر في الحجاب الحاجز يضع المحنظ يده ويفصل الأعضاء الداخلية وينزعها جميعاً ولا يترك سوى القلب (وربما الكليتين) في مكانه لأن المصريين كانوا يعتقدون أن القلب كان مركز الاحساس وهو عقل الرجل ولذا كان من المهم أن يظل حيث هو متصلاً بأوعيته الكبرى ليظل يحكم جسده الميت حين ترتد له الحياة .

وبهذه الصورة يصبح الجسم معداً لحمام الملح الذي ينقع فيه بضعة أيام وربما كان هذا الحمام قدراً كبيراً توضع فيه البجثة القرفصاء والركبتان مثنيتان إلى الدقن ويظل الرأس بارزة فوق السائل ولكي لا يتعفن الرأس كان يغطى بطبقة سميكة من عجينة راتنجية أولاً . وكانت تتم بالأمعاء في الوقت نفسه عملية أخرى بعد إخراجها من الجسد فكانت تحنط على حدة وتوضع في أربع قدور مرمية تحت أغطيتها بحيث تمثل رعوس أبناء حوريس الأربعة وكانت هذه المعبودات تمثل عادة في الصور كآلهة موتى أي في شكل

(٢) يستند الجزء التالي على ما جاء في مقال لـ W. Edawson من

making of a mummy الذي نشر في
Journal of Egyptian Archaeology, Vol. XIII, pp. 40 ff.

مؤمنياء * وأحدها يسمى امستى برأس رجل والثاني يسمى حابى برأس قرد ، والثالث برأس ابن أوى ويسمى دوا - موت - اف (عايد أمه) اما الرابع فاسمه قبح - سنو - اق (أى مرضى أخواته) وهو برأس الصقر * وفى كل نسخ كتاب الموتى تقريبا نستطيع أن نرى المنظر الملون الذى يمثل أوزيريس على عرشه فى قاعة المحاكم وأبناء حوريس الأربعة واقفين على زهور اللوتس أمامه * وكانت أجزاء الأسماء المختلفة توضع فى الأوانى الكاثوبية لتتحد مع الآلهة الأربعة فالكبد مع الامستى والرئتان مع الحابى والمعدة مع الدواموت اف والمصران مع القبح سنواف * أما الأوانى نفسها من ناحية أخرى فرغم أن أعطيتها كانت تمثل رعوس هذه الآلهة فإنه كان يظن أنها هى الالهات ايزيس ونفتيس ونثيت وسرقت على التوالى وكل منها تحمى الاله - أى الأسماء التى تحويها - ويكتب على كل اناء صيغة تكاد تتشابه فيها جميعا * فنص اناء امستى يقرأ مثلا :

« كلمات تقولها ايزيس : انا آلف ذراعى حول ذلك الذى يداخلى * انا اسبغ حمايتى على امستى الذى فى * * * الأوزيريس (١) الكاهنة الموسيقية لآمون « حنت محيت » * وبعد بضعة أيام حين يستخرج جسد « حنت محيت » من حمام الملح يكون منظره مؤسسا ذلك لأن كل الشحم يكون قد ذاب ولا يبقى من الجسد سوى العظم والجلد ، أما النسيج العضلى واللحم فيتحولان الى كتلة اسفنجية (٢) * وأما البشرة فمنسلخة ولكى لا تسقط أظافر اليدين والقدمين ترى المحنط قد أخذ احتياطاته من قبل فقطع الجلد الذى تحت الظفر قبل وضع الجسم فى حمام الملح وترك قمعا من الجلد مربوطا بالسلك ، ثم تسوى الجثة فى وضع أفقى وتجرى عليها عملية التجفيف الهامة لأنه يجب تخليص الجسم تماما من كل

(١) كل ميت كان يدعى أوزيريس لأنه كان يظن أنه (أو أنها) يصبح متحدا مع الأوزيريس نفسه *

(٢) Dawson : نفس المرجع السابق صفحة ٤١ *

الروطية التى لحقت به من جراء وضعه فى الحمام • ولسنا ندرى تماما كيف كان يتم ذلك الأمر وان كنا نرجح أن حرارة الشمس أو النار الهادئة أو كليهما معا كانا يستخدمان للوصول الى النتيجة المطلوبة •

أما وقد أعد كل شيء الآن للمراحل النهائية للتحنيط فإن الجسد يغطى بطبقة من الراتنج والنطرون أو الملح والدهن الحيوانى وحشوات من الكتان مغموسة فى نفس المزيج تحشر فى فجوات الجسم • أما قطع المحنط فى جانب الجثة فيغطى بلوحة من الشمع تنقش عليها صورة العين المقدسة لحوريس أما الجمجمة فتلف بكتان مغموس فى الراتنج وتحشى فتحات الأنف بنفس الطريقة ثم توضع كمية راتنجية أخرى على الجسم وتبدأ عملية وضع اللفائف بعد ذلك وعند إجراء هذه العملية يتلو « خرى حب » أو كاهن مرتل من إحدى ملفات البردى صلوات ورقى تناسب كل عضو يلف بالأربطة ثم يضع المحنط كذلك تماث ذات قوة سحرية فعالة على الجسم • وهذه لها كذلك صيغ خاصة يتلوها الكاهن (لوحة ٢٦ شكل ٢) وقد وضعت حول رقبة « حنت محيت » ثلاث من هذه التماث الهامة جدا هى الـ « دد » وربطة حزام ايزيس وصولج البردى • والأولى من الذهب ويقال أنها تمثل العمود الفقرى لأوزيريس ولذا فانها تصون العمود الفقرى للجثة • أما الثانية فمن يشب الأحمر (حجر الدم) وترمز الى دم ايزيس • وأما الثالثة فتمثل وصولج البردى الذى تحمله ايزيس فى يدها وهى مصنوعة من الفلسبار الأخضر • وتوضع فى أجزاء أخرى من المومياء تماث كثيرة تمثل تيجان فرعون مصنوعة من القاشانى الأزرق وأصبعان غريبان من الأوبسديان (الحجر الزجاجى الأسود) ونموذج لعين حوريس ذات الأثر الفعال التى كان لها على مر التاريخ المصرى الاحترام المطلق لأن التقاليد نقلت إلينا أنه بعد أن قتل ست أخاه أوزيريس دخل ضده حوريس ابن أوزيريس

فى صراع دموى مرير لينتقم لأبيه انتصر فى نهايته وأن فقد
عينه التى شوهد لها خصمه وشفى تحوت العين وأعادها الى
حوريس الذى أعطاها بدوره الى أبيه الميت ليأكلها ومن ثم
دبت الحياة فيه للتو . وتروى لنا أسطورة أخرى أن العين
عين اله الشمس . . . أى أنها الشمس نفسها التى شردت من
مكانها فأعادها « تحوت » سالة .

ولعل أهم التماثيل جميعا التى توضع فوق المومياء هى
جعل القلب الذى يتدلى من الرقبة بسلك ذهبى وهو يصنع
عادة من حجر أخضر صلب فى صورة جعل كبير يزيد طوله
على أربع بوصات ويكتب على قاعدته « فصل . ٢ ب » من فصول
كتاب الموتى وكان الجعل رمزا للقسوة الخالقة وكان معنى
وضمه أنه يعيد الحياة الى القلب وإن كانت الفكرة التى
أوحته بالنص المحفور عليه تختلف عن ذلك لأن المصريين
كانوا يرهبون تلك اللحظة المرعبة التى يصل فيها القلب
الإنسانى الى ساحة أوزيريس ليوزن هناك فى موازين العدل
ويماط اللثام عن الآثام ومن هنا كان يطلب صاحب القلب
الى قلبه ألا يخونه (أو يخونها) ولذا فإن النص يجرى على
التحو التالى :

« يا قلب أمى يا قلب أمى يا قلب تحولاتى لا تقف شاهدا
ضدى . لا تدع هناك معارضة ضدى كشاهد . لا تجعل
المحكمين يقاوموننى لا تثقل ضدى فى حضرة حارس الموازين
أنت « كا » التى فى جسدى . أنت خنوم الذى يجعل
أعضائى موفقة » .

والآن وقد انتهت عملية لف اللفائف وأصبحت المومياء
(لوحة ٢٧ شكل ٢) معدة للوضع فى التابوت نستطيع أن
نلاحظ أن غطاء هذا التابوت (لوحة ٢٧ شكل ١) قطعة
فنية جميلة تمثل « حنت محيت » نفسها وهى تلبس شعرا

مستعاراً طويلاً أسود اللون وذراعاها معقودان على صدرها .
والتابوت من خشب مذهب ثقيل ما عدا الشعر المجدد الأسود
فهو منطلي بزخارف من الجص تحت التذهيب . وهناك
شريط ذهبي يدور حول الرأس وحزمة من زهور اللوتس على
الجهة وفي الوجه الذهبي « لحنت محيت » ترى انسان العين
وحاجبها مطعمة بالأوبسديان (الحجر الزجاجي الأسود)
وحول العنق أكلیل عريض من الزهور وهي تلبس أساور
حول ذراعيها . وتحت الاذرع وضعت حلقة مستطيلة تبين
رسوماً المتوفاة تتعبد الى اله الشمس « رع » في قاربه وعلى
جانبي الحلية تمثل عين حوريس وتحتها « نوت » آلهة السماء
تنشر جناحتها الجارسة فوق الجسم . والرباط الوحيد الذي
يسرى على المومياء من الرأس الى القدم وثلاثة أخرى تتقاطع
معه تمثل أسفل الآلهة نوت والمسافة فيما بينها تملأها صور
الآلهة أمستى وحمبي وأنوبيس ودواموت اف وعلى القدمين
رسميت ايزيس ونفتيس وتحت القدمين ترى ايزيس مرة
أخرى راکعة ويدها مرفوعتان ومعها النص التالي :

« كلمات ترددها ايزيس العظمى : ذراعي خلفك لتحمي
جسدك أيتها الأوزيريس « حنت محيت » وتحمل صور
الأربطة على التابوت اسم « حنت محيت » وصيغاً دينية .

ونرى المحنطين الآن يضعون المومياء في حرص وعناية
داخل التابوت ولكن قبل أن يشبثوا الغطاء في مكانه نراهم
يضعون غطاء داخلياً فوق المومياء نفسها مصنوعاً من الخشب
المذهب والجزء العلوي حتى الآلهة « نوت » من أسفل يشبه كثيراً
غطاء التابوت السالف الذكر . أما الجزء السفلي فيه مناظر
دينية نحتت في حرية في الخشب على كتان مقوى أو نرى في
أعلى صورتين لتحت وهو راکع يقدم عين حوريس الى
أوزيريس وفي أسفل رسم الميت وهو واقف يتعبد الى حمبي
وأمستى وأنوبيس ودواموت اف وقبح سنواف وفوق القدمين
ايزيس ونفتيس كما رأيناها فوق غطاء التابوت . ثم يشبث

الغطاء أخيرا في مكانه ويوضع التابوت كله داخل آخر يشابهه في الصورة والمظهر .

وهكذا تنتهى عملية تحويل «حنت محيت» الى مومياء وقد استغرقت سبعين يوما وهى معدة الآن لتعاد الى أسررتها مع مومياء زوجها فى يوم الجنازة .

ولنلاحظ قبل كل شىء وحدتين فى أدوات الدفن الخاصة بها أولادهما : تماثيل الأوشابتي وثانيتها : كتاب الموتى ، أما الأولى فهى تماثيل صغيرة لطيفة تمثل « حنت محيت » فى صورة المومياء وبعضها من القاشانى الأزرق اللامع والبعض الآخر من الخشب المنحوت الملون (لوحة ٢٨) وهذه التماثيل ترى وهى تحمل فتوسا فى أيديها وسلالا على ظهورها ومهمتها الحلول محل المتوفاة ان قادها سوء حفظها للسخرة فى الأعمال الزراعية فى مملكة أوزيريس والفصل السادس من كتاب الموتى المنقوش على التماثيل الخشبية بمثابة رقصة تعيدها الى الحياة ونصها :

« فصل يجعل تماثيل الأوشابتي تباشر عملها فى الجبانة تتلوه سيدة البيت مغنية آمون رع حنت محيت المبررة : يا تماثيل الأوشابتي ان عينت المبررة الأوزيريس حنت محيت لتباشر أعمالا فى الجبانة . . لتحل أنت محلها كل مرة حتى تزرع الحقول . وتغمر المراعى أو تحمل الرمال التى فى الشرق وتنقلها الى الغرب وستقول « ها أنذا » .

وفى بعض الأحيان كان عدد كبير من هذه التماثيل يدفن مع الموتى من الطبقة الراقية حتى يبلغ عددها ٣٦٥ تماثالا بمعدل تماثيل لكل يوم من أيام السنة وقد عثر فى قبر سيسى الأولى ثانى ملوك الأسرة التاسعة عشرة على ما يزيد عن ٧٠٠ تماثيل من هذا النوع .

ولنعد الآن الى النسخة الفاخرة من كتاب الموتى الذى اشتراه «تس آمون» لأخته المتوفاة . انها ملف من البردى طوله

ستون قدما ملئ بأعمدة من النصوص الهيروغليفية وصور ملونة تلوينا زاهيا (لوحة ٢٩) ولم يكن النص الدينى المعروف لعلماء الآثار المصرية تحت اسم كتاب الموتى يسمى كذلك عند قدماء المصريين بل أنه كان يسمى « فصول الخروج نهارا » أى أن العلم بالكتاب يمكن الميت من ترك القبر بعد الموت والخروج مرة أخرى الى ضوء النهار . وكتاب الموتى قديم فى أساسه ويحوى رقى شجرية مختلفة تمكن الميت المصرى من الحصول مباشرة على الخلود الذى طالما تاقته نفسه اليه . والمجموعة الأولى التى خلفتها لنا مصر من مثل هذه الرقى هى متون الأهرام المنقوشة على جدران المقابر الهرمية لفراعنة الأسرتين : الخامسة والسادسة (حوالى ٦٠٠ ق م) أما المجموعة الثانية التى نعرفها فهى متون التوابيت التى كتبت على التوابيت الخشبية المستطيلة للدولة الوسطى (حوالى ٢٠٠٠ ق م) وأما المجموعة الأخيرة فمحفوظة فى برديات الدولة الحديثة وما بعدها . وفيها نرى أجزاء من نصوص الأهرام ومتون التوابيت قد جمعت وأضيفت اليها مادة جديدة .

وفى الوقت الذى نتناوله بالحديث كانت نسخة كتاب الموتى المستعملة قد جمعها كهنة اله الشمس فى هليوبوليس ولذا لا نرى مكانا لآمون اله طيبة فيها حيث يلعب اله الشمس وأوزيريس الأدوار الرئيسية . ومن المستحيل هنا أن نصف بالتفصيل محتويات هذا الكتاب الدينى ولسكن نستطيع أن نقدم بيانا مختصرا عن أهم جوانبه .

فأول قسم يسترعى انتباه القارىء حين يفتح بردية « حنت محيت » أمامه هو القسم الخاص بالمحاكمة بعد الموت . وترى الرسوم الملونة قاعة الحقيقتين التى يجلس فيها أوزيريس على عرشه كملك للعالم السفلى وكحاكم للموتى . ويرى عرش الاله داخل مقصورة تتخذ هيئة التابوت ولون جسمه أخضر لأنه يمثل البعث الدائم للطبيعة فى الخضرة .

الزهرة للمربيع وعلى رأسه تاج اتف وهو غطاء رأس طويل أبيض ثبتت على جانبيه ريشتا الحق وجسمه ملفوف لفا محبوبكا في أربطة مومياء لا يظهر منها سوى وجهه ويديه وهو يقبض على ضولج « واس » الذي يحمله الآلهة دائما وعلى عصا الراعى وسوطه وهي رموز الملك . وخلف العرش تقف ايزيس الاخت الزوجة لأوزيريس ونفتيس اخته الأخرى ويداهما تستقران في حنان على كتفي أخيهما * وتندمو أمام أوزيريس زهرة لوتس يقف عليها أحفاده الأربعة أبناء حوريس وفي قمة الصورة صف طويل من الآلهة الرئيسية لمصر يجلسون في وقار وعظمة وهم زملاء أوزيريس في المهمة الرهيبة المتصلة بمحاكمة المرتحلين * وإلى يسار الصورة ترى صاحبتنا « حنت محيت » تدلف إلى القاعة * وإن نحن انتقلنا إلى جانب آخر من البردية نستطيع أن نطالع الكلمات التي تحيي بها قضاتها (١) .

« تحية لك أيها الاله العظيم سيد الحقيقتين * لقد آتيت اليك يا مولاي * »

لقد جئى بى حتى أشهد مفاتنك * أننى أعرفك وأعرف اسمك وأعرف أسماء الاثنين والأربعين قاضيا الدين معك فى قاعة الحقيقتين هذه والذين يعيشون كحراس على الأئمة ويفتدون بدمائهم فى ذلك اليوم حين يدعى الناس إلى حضرة ون تفر (٢) * ها أنذا أننى أعرفك ولقسد آتيت لك بالاستقامة وطردت السوء من أجلك * أنا لم آت شرا لإنسان * أنا لم أضطهد أقربائى * أنا لم أرتكب الشر حيث كان يجب البر * أنا لم أغضب الها * أنا لم أغتصب أملاك اليتيم * أنا لم آت ما تشمئز منه الآلهة * أنا لم أقدح فى خادم لمولاه * أنا لم أكن مصدر ألم * أنا لم أكن سببا فى إجاعة أحد *

(١) فصل ١٢٥ (المقدمة) من كتاب الموتى .

(٢) اسم لأوزيريس .

أنا لم أكن علة بكاء • أنا لم أقتل ، أنا طاهرة • أنا طاهرة أنا طاهرة • وعلى هذه الصورة تبين « حنت محيت » للآلهة أنها مبرأة من كل اثم وتطلب اليهم أن يبرئوا ساختها ولكن عليها أن تفعل أكثر من ذلك ... من الضروري أن توجه الحديث الى كل واحد من القضاة الاثني والأربعين على انفراد وتنفي عن نفسها اثني وأربعين اثماً متحداً واحداً واحداً وحين ينتهي ذلك تبدأ في مواجهة أشد أجزاء المختة رعباً ، إذ يوزن قلب « حنت محيت » في موازين الحق الموضوع في وسط القاعة والتي يديرها الإله أنوبيس فيوضع قلب الميتة في كفة وتوضع في الكفة الأخضرى ريشة ترمز الى الحق • ويقف تحوت خلف أنوبيس وهو كاتب الآلهة يرأس أبي منجل الذي يسجل بقلته وحبره النتيجة • ويجلس خلفه وخش كرية يدعى عموت (١) وهو خليط من تمساح ولبؤة وفرس بحر يقبع منتظراً اقتراح الأرواح التي يحكم عليها • ويرقب عملية الوزن كذلك ثلاثة مخلوقات آخر أخذها قالب اللبن الذي جلست عليه أم « حنت محيت » يوم ولادة ابنتها وله هنا رأس آدمي وال « شاي » أو « القدر » للمرأة المستوحاة في صورة انسانية وطائر برأس آدمي يدعى ال « با » هو الروح (انظر كذلك لوحة ٢٩) (٢) • ويرى الثلاثة وهم يحبسون أنفاسهم ينتظرون النتيجة في قلق ولكن لا بأس عليهم فان « حنت محيت » يعلن انتصارها ويقودها خوريس ابن أوزيريس فتقترب من غرش القاضي الأعظم ثم يعلن خوريس الى أبيه انها حوكت وانها وجدت بارة ويوافق أوزيريس على المحاكمة ويحدد لها مكانها من دولته •

ولكن هذا الجزء الذي تناولناه بالوصف ليس رغم أهميته سوى جانب من صور متعددة النواحي فهناك رقتي

(١) الاسم معناه « ملتهم الموتى » •

(٢) أهم جزء في كيان الانسان الروحى هو الكا وهو يعتبر اما « نرينا » فوق الطبيعة أو أحد أرواح الأجداد (طوطم) •

لمنع القلب من أن يؤخذ وهناك أخرى تساعد الميت على أن يبحر مع رع في قاربه عبر السماء وفي المرور خلال البوابات التي تحرسها الآلهة وهكذا . وكلها ممثلة بالصور والرسوم ونسخة كتاب الموتى التي وضعت مع أثاث « حنت محيت » الجنزى لم تعمل خصيصا لها كما يحدث في بعض الحالات بل كانت « جاهزة » في حوزة اللحادين وقد تركت الأماكن التي يوضع فيها اسم المتوفى خالية وقد ملئت في هذه المناسبة باسم « حنت محيت » والقابها ولعله من الخير أن وقتنا لا يتسع لفحص كتاب الموتى الجميل المحفوظ هنا معها لأننا لو فعلنا فقد نجد أن روعته قد لا تصل إلى أبعد من مظهره ذلك لأن نسخ كتاب الموتى التي يبيعها اللحادون في مصر القديمة مليئة باخطاء مبعثها الإهمال . فهناك فصول مكررة وهناك أقسام بأكملها أغفل اثباتهما وهناك فصول أعطيت عناوين خاطئة وهكذا ويرجع ذلك إلى أن أعدادا كبيرة منها كانت تنسخ وكان أكبر الجهد يبذل في العناية بمظهرها فقط أما في المصور القديمة فقد كان الكتاب أكثر عناية بعكس الآن حيث سرت روح الإهمال وتفتشت .

أما بعد . فكل شيء معد الآن للجنازة . . . وفي اليوم المحدد يأتي « نسامون وتزمت » في صحبة فرقة من الناثحات المستأجرات وعدد من الأقارب والأصدقاء يعبرون النهر في الصباح المبكر أما الكهنة الجنزيون الذين يقودون موكب الجنازة واللحادون فينتظرون وصول الجماعة على رصيف ميناء الجبانة حيث أحضرت مومياء جد خونسو وحنث محيت مع الأثاث الجنزى الخاص بهما . . . وحين ينزل الأقارب إلى الأرض يبدأ الموكب الذي نستطيع أن نصفه على الوجه الآتي :

يسير في المقدمة رجال يحملون مختلف الأشياء الهامة التي يحتاجها الميت فأحدهم يحمل تمثالين أبيضين لفرعون وهو يلبس التاج الأحمر على رأسه ويحمل آخر قائما خشبيا

وضعت فيه ثلاثة أوان من المرمر تحوى طعاما ودهونا
 ثمينة وخلفه رجال يحملون على أكتافهم صناديق خشبية
 طويلة تحوى عددا من الحلى مثل الصدريات الذهبية فى
 هيئة العقاب ودوائر صغيرة للشعر وزوج من الأساور
 الذهبية المطلعة بلا زورد وغيره من الأحجار الأخرى وخاتم
 من الذهب للمختم ومراة من البرونز اللامع المصنقول ذات
 مقبض من العاج * ثم نرى بعد ذلك مجموعتين من الرجال
 يجرون خلفهم مقاصير خشبية صغيرة موضوعة على زحافة
 ويدخل المقاصير الأوانى الكانوية التى تحوى الأسماء
 المحنطة للميت ولهذا فان هذا القسم من الموكب يتقدمه
 الكاهن المرتل الذى يرتل فى وقار وهو يسير * وخلف هذه
 جثتا الميتين وكل مومياء موضوعة فوق مضجع تحت كنة
 مزخرفة وكلها تحمل على زحافة تجرها الثيران ويصاحبها
 كاهن يحرق البخور فى مبخرة ويريق سكايب المسام على
 الأرض وأمام وخلف الزحافات تسير النساديات وتسمى
 احداهن الحدأة الكبيرة والأخرى الحدأة الصغيرة وهما تمثلان
 الإلهتين « أزييس ونفتيس » اللتين حولتا نفسيهما حين وجد
 أخوهما أزوريس مقتولا الى حدأتين ترفرفان حول جثته
 وتصدران صرخات العويل - وهناك كاهن آخر يسير خلف
 المومياثين ويتبعه جماعة من ذوى المراكز الرفيعة من طبقة
 من أصدقاء جد خنسو ذوى النفوذ وهم يحملون عصيا فى
 أيديهم *

وتتلى طوال الوقت خدمة دينية يرددها الكهنة فيقول
 أحدهم وهو يخاطب الموتى : « فى سلام فى سلام نحو الإله
 العظيم » (١) ويرد النبلاء الطيبون قائلين « تقدم فى سلام
 - فى سلام نحو قبرك فى الجبانة وتقبل قرابين الطعام مسع
 العظماء فى حاشية الإله الأعظم (٢) » ويسير « نسامون » فى

(١) أوزيريس *

(٢) أوزيريس *

صحبة النبلاء مع أقارب الراحلين المذكور على حين تسير في مؤخرة الموكب الناديات تقودهن « نرمت » وقريبات الميتين وكلهن يضربن صدورهن ويعولن في نغم واحد وهن يصفن في رثاء متنوع الصفات المميزة لجدهن خنسو وحننت محيت *

وبعد مسيرة ساعة تقريبا يصل الموكب الى سفح التلال الغربية الذي تشهد الغين فيه كلما قلبتها في كل ناحية واجهة الصنخور كعلنية من المقابر هي « بيوت الأبدية » التي اختارها أهالي طيبة مساكن لهم والتي يتأملون منها مدينة الأحياء . وفي أحد هذه القبور سيدفن صتاحتانانا فلندخله قبل أن يواريا وقبل أن يصل موكب الجنازة ولنلبث لحظات نتفحصه *

أن سلاسل التلال التي تخصر مضر فيما بينها من الجانبين تمتد مدى مئات من الأميال هي من الخجر الجيري وهو مادة يسهل الحفر فيها ، ولذا فإن عمل مقابر صخرية لا يلقي عناء كبيرا والوصول الى مقبرة جد خونسو وزوجته يتم من طريق حوش خارجي مفتوح تمر منه الى ممر قصير يؤدي الى قاعة تجرى متعامدة مع المخور الرئيسي للمقبرة ويؤدي ممر طويل من هذه القاعة الى غرفة مربعة حفرت في جدارها الخلفي مشكاة تحوي تمثالي « جد خنسو » و « حننت محيت » منحوتين في الصخر وخلف الغرفة المربعة يرى بر يشغل جانبا من الأرض تحت المشكاة محفور في الصخر ينزل الى غرفة الدفن نفسها . وسطوح الجدران الخشنة في القبر مغطاة بالملاط ومرسومة بالصور والكتابات الهيروغليفية في ألوان وضاعة مرتبة حتى يتناسب مكانها في القبر مع معناها وهكذا نرى في الغرف الخارجية الميت تصعبه زوجته غالبا يقضى أوقات فراغه منغمسا في لهو محبب أو يستمتع بمباهج الحياة على الأرض فعلى أحد الجدران يجلسان في حديقة بها أشجار يأكلان من فاكهتها ومما يقدمه لهما الخدم ثم نشهد بعد ذلك « جد خنسو » يشرف على عمال ضيعته أثناء

عملهم وهناك تشهد الحرث والبذر والحصاد والحبوب
تطؤها الثيران وسائقوها يرددون أغاني مرحة كتبت فوقهم
باليروغليزية :

« أيها الثيران طئوا بأنفسكم طئوا بأنفسكم طئوا
بأنفسكم قشاً لتأكلوا وحبوباً لساتكم لا تتكاسلوا فالجنس
منعش » .

ثم تكوم الحبوب في كومات وتكال وترى صور كتبة
يحملون أقلامهم ولوحاتهم مشغولين بقيد الأرقام وتدوينها .
وحين ندخل إلى القبر نرى طبيعة المناظر المرسومة تتغير
فجدران الممر الطويل المؤدى إلى الغرفة المربعة أو المقصورة
تخصص لصور موكب الجنازة والطقوس السرية التي تعالج
بها المومياء قبل أن تخفى نهائياً بعيداً عن ضوء النهار
والمقصورة نفسها بنحى وجودها فوق غرفة الدفن مباشرة
تخصص لصور عبادة الموتى والآلهة المتصلين بالقبر . ويمثل
هنا « حنت مخيت » ونجد خنسو يجلس أمام مؤنث مخملة
باللحم والخضر والمشروبات الباردة وينغنيان في خضوع أمام
« أوزوريس سيد الغريبيين » وأنوبيس « الذى فى كنوخ
الاله (١) » على حين تكون التماثيل المنحوتة فى المشكاة فى
انتظار الخدمات الجنزية الحقيقية التى يقوم بها كاهن فى
حضرتها ولكن ها هو ذا موكب الجنازة يشق طريقه فى الممر
الملتف وها هى ذى التوابيت قد أثرت إلى الرصيف الضخمة
أمام القبر وها هما زجلان يؤديان رقصة جنازية أمام المشيغين
تحية لهم وهما الـ « موو » اللذان يلين كل منهما غطاء
رأس غريب مخروطى الشكل يشبه الأغلفة من القش التى
تغلف بها زجاجات النبيذ اليوم .

وهنا على الرصيف الضخم يتم أهم طقس من طقوس
الجنازة قبل أن توضع المومياء مكانها الأخير نهائياً . وهذا

(١) حظيرة المحنط .

الظهيرة ، ثم تأتي ساعة الوداع الأخيرة فترتضى «نزمت» وهى
تعمل فى بكاء مؤثر أمام جثتى والديها اللتين توضعان مرة
أخرى فى التوابيت وتحملان على أكتاف رجال أشداء الى
ظلام القبر ولا تحتمل نزمت الألم أبعد من هذا فلا تدخل الى
القبر لترى أمها وأباها ينزل بهما الى البئر المؤدية الى غرفة
الدفن السفلية حيث يرقدان الى الأبد .

والآن وقد تم كل شيء وحين تملأ فى الغد بئر الدفن
بالحصى والتراب حماية لها ضد اللصوص يختم على الموتى
الى الأبد . ويشق الموكب المجهد طريق العودة الى النهر فيسند
نسامون ابنة أخته على ذراعه ويتردد فى سكون الصحراء
ترنيم كاهن يقول : « يا خازن بيت آمون رع ملك الآلهة ...
أيها المبرر جد خنسو لتدخل ولتخرج من الغرب ولتخط من
باب العالم السفلى ولتعيد رع حين يشرق فى الجبال ولتعيد
له حين يغرب فى الأفق ولتقبل القرابين ولتكن راضيا عن
الطعام الذى فوق مذبح سيد الأبدية » .

الفصل السادس

العمال والصناع

كان الرقيق الذي يعيش على الأرض ويشترى ويباع
مما أدنى طبقات المجتمع كما قدمنا . وكانت هذه الطبقة
من الفلاحين تشمل غالبية السكّان في كل المصير وكان
حظها من الحياة تأقها .

وفي خلال الدولة الحديثة وهي الفترة التي نهتم
بها في هذا الكتاب بصفة خاصة نرى الأرض كلها
باستثناء أملاك المعابد ملكا للملك من الناحية النظرية
وهي تؤجر الى ملاك مختلفين أو تستبقى لاستغلالها ،
وكان الفلاحون يدينون بالولاء للموظف الذي يوضع على
رأسهم ، وكانوا مسئولين عن زراعة الأرض التي كان يسمح
لهم بجانب من انتاجها ليعيشوا عليه وكان هذا هو أجرهم ،
ذلك لأن الأجور في كل الحرف كانت تدفع نوعا ، لأن العملة
المعدنية لم تكن قد عرفت بعد .

وكان الحرث والبذر والحصاد وهي أعمال الزراعة
العادية تؤلف مهام الفلاح (لوحة ٣١) ولكن في أرض مصر
كانت تضاف اليها مشكلة الري ، ذلك لأن سقوط الأمطار
أمر نادر جدا في مصر العليا ، وهي في مصر السفلى لا تفي
بالأغراض الزراعية ولولا النيل لتحولت البلاد الى صحراء
قاحلة والسواقع أن هذا النهر العجيب الذي كان يظهر
للمصريين كأنما هو كائن فوق الطبيعة يحول الأرض الى

بقعة من أخصب بقاع العالم • فكل عام يبدأ النهر خلال شهر يونيه (١) في الارتفاع ثم يفيض نهائيا على جانبيه ويبلغ أقصى فيضه في أكتوبر ويخلف على الأرض المحيطة طبقة من الطمي المخصب • والاستفادة من الفيضان بقدر المستطاع كانت الحاجة تتطلب تنظيم طريقة محكمة للرى يوزع بها الماء على الحقول أو يرفع من مستوى الى آخر ، فان لم يرتفع النهر الى القدر الضرورى فان البلاد تواجه كارثة وتتفشى المجاعة ، ولذا فان الرقابة الشاملة كانت تستمر طوال العام على المستوى المتغير للنيل بقصد التكهّن بظروف الموسم المقبل •

ولقد تعرضت عند وصفى للمقبرة المصرية الى ذكر مناظر الحياة اليومية المصورة على جدرانها وأشرت الى صور البذر والحراث والحصاد والتذرية المعتادة الحدوث • ومثل هذه المناظر المصورة على الجدران تقربنا كثيرا من الفلاحين والعمال فى مصر القديمة وتساعدنا فى الفسالب على تتبع محادثاتهم التى تكتب بالهيروغليفية الى جانب الصور • ولعل واحداً من خير الأمثلة هو مجموعة المناظر فى مقبرة باحيرى الذى كان يعيش فى عهد حتشبسوت وتحتمس الثالث ودفن فى الكاب • وكان باحيرى آمر المقاطعة الايليثيا بوليتية وهى المقاطعة الثالثة لمصر العليا ، وكان يشغل مناصب هامة فى الحكومة • وفى هذه الصور نراه يخرج للتفتيش على الأعمال الجارية فى هذه الناحية وصورته المرسومة عدة مرات اكبر من غيره تسيطر على المنظر فهو يرى مصحوبا بثلاثة من الخدم يحملون أشياء مختلفة قد يحتاجها مولاهم ومن بينها نعلاه ومقعد خفيف قد يستعمله ان أحس بالتعب •

وتجر الثيران المحاريث وفوق المنظر توجد كتابة تصفه على الصورة التالية « يوم جميل رطب • الثيران تجر المحراث •

(١) كان يظن فى مصر القديمة انه فى هذه الفترة تسقط دموع الالهة اوزير ومى نبتى زوجها اوزيريس فى النيل فتكون سببا للفيضان •

السماء (الجو) يسر قلوبنا * لنعمل من أجل الأمير» ويصرخ
الحراث الذى يقود المحراث الى زميله قائلا : « أسرع أنت الى
المقدمة وسق الثيران * * أنظر أن الأمير يراقبنا » * وفي
ناحية أخرى من الحقل ترى أربعة رجال يجرون المحراث ،
أما قيادته فتركزت لرجل متقدم فى السن * * وهناك صبي
يئذ الحب * ويحثهم بأحدى الذى يقف قريبا منهم على
العمل السريع قائلا : « أسرعوا * * ان الحقول معطلة (؟)
والفيضان شديد » فيجيبه أحد الرجال الأربعة : « اننا نعمل
* * * أنظر اليها لا تخف على الحقول انها فى حالة رائحة »
ويقول الرجل المسن : « ما أطيب ملاحظتك يا بنى * * عام
طيب خال من السوء مزدهر فى كل الأعشاب * * كما أن
العجول بالغة الجودة كذلك » *

وفي ناحية أخرى من الضيعة يرى الرجال والنساء
يحصدون الحبوب والكتان * أما الكتابة فوقهم فهي :

« هم يجيئون مغنين

فى هذا اليوم اللطيف تخرج على الأرض ريح الشمال

السماء راضية تسعد قلوبنا

لنعمل بقدر ما نستطيع » *

وحالما يقتلع الكتان من جذوره يحمل الى شيخ ينزع
رعوسه المحتوية على البذور بمشط كبير وهو رجل متفانى
يقول : « ان أتيت لى بأحد عشر ألفا وتسع فائى ابن يجدتها »
ويجيبه حامل الحزم قائلا : « لا تثرثر أسرع يا عجوز (١) * *
للعمال » *

، أما الرجال الذين يحصدون الحبوب فيقطعونها بمناجل
من الخشب تركيب فيها أسنان من الظران (لوحة ٣١ شكل ٢)
وقد حمل أحدهم منجله تحت ذراعه حتى يتناول جرعة ماء

(١) كلمة لا تعرف معناها وهي نوع من السباب من غير شك *

من اناء . وبالقرب من هذا المنظر حظيرة تحوى ضفا من جرار النبيذ والماء الى خارجها وتابع يحرك مروحة المصنوعة من سعف النخيل على اناعين ليبرد محتوياتهما وربما كان ذلك استعدادا لاستقبال الحاكم .

وحين تجمع الحبوب تكوم فى سلة كبيرة تعلق فى عمود خشبي وتحمل الى البيدر ويستحث أحد الرؤساء الرجال حاملي السلة قائلا : « أسرعوا لتعجل اقدامكم . » ان الماء قد جاء ويكاد يصل الى السلال « ومعنى هذا من غير شك خوفه من الفيضان وخشيته أن يغرق المحصول قبل اتمام جمعه .

وبعد ذلك تطا الثيران الحبوب فى البيدر تم تدرى وتتم عملية التذرية عن طريق رفع الحبوب المذراة الى الهواء بواسطة مذراة خشبية ويغطى عمال التذرية شعورهم بقطع من القماش حتى تحميها من التبن . ثم تكوم الحبوب وتكال ويقوم بالعملية الحسابية « كاتب حسابات الفلال » جحوت نفر « الذى يقبع على قمة الكومة . ويمكن بعد ذلك حمل الحبوب فى زكائب الى الشونة وهى عبارة عن حظيرة ذات حوائط تكوم الحبوب بداخلها . وكان الطراز الأكثر شيوعا للشون المصرية هو البناء المخروطى المصنوع من اللبن الذى تفرغ فيه الحبوب من ناحية الفوهة وكانوا يصعدون اليها عن طريق درج . وحين يراد أخذ كمية منه كانت تسحب من باب عند القاع .

وكانت حياة الفلاح حياة قاسية ما لم يكن المشرف عليه من الموظفين قد رزق نفسا أشربت بالانسانية والرحمة فهو مرعوسيه المستضعفين وهو أمر لم يكن كثير الحدوث ، بل أن الشائع كان امتصاص قوى العامل الى أقصى حد ممكن ، وليس لنا أن نظن أن اختلاس الأموال الأميرية وهو أمر كثير الشيوع فى الشرق اليوم لم يكن معروفا فى مصر القديمة ، بل أن العمال الزراعيين لابد أنهم أدركوا ذلك بدليل العجز عن دفع أجورهم أو التقصير فى دفعها .

وحيث لم يكن العمال الزراعيون - وهم من يسمون
بإفلاحين اليوم - يجدون عملا في الزراعة كانوا يقضون
وقتهم في صيد السمك والطيور والحيوانات الصغيرة من
الصحراء ولكنهم كانوا يستدعون من وقت لآخر ليعملوا في
ميدان آخر بعيد عن الميدان الذي اعتادوا العمل فيه وهو
إقامة المباني .

وليس هناك شيء من تراث الحضارة المصرية استثار
شعور العالم الحديث أكثر من عظمة معابدها ومقابرها فعلى
جانبى النيل حين يرتحل المرء جنوبا تنهض الهياكل الضخمة
التي تنم عن عقيدة طال الأمد عليها ، وأهرام شامخة ذات
عمارة مغلدة ومعابد تقوم فى رحباتها الساكنة التماثيل
الهائلة للآلهة والملوك (لوحة ٢١) تسخر من الزائر المشدود
والسؤال الذى طالما يتردد علينا هو كيف قامت هذه الأبنية
الغضبية فى عصر لم تكن العلوم قد تعدت طور الطفولة وكان
عدم وجود الأدوات المناسبة والمعدات يجعل تنفيذ هذه
المشروعات مستحيلا ؟

ونستطيع أن نجيب على ذلك أولا بأنه فى العالم القديم
لم يكن قد اكتسب الوقت تلك القيم العالية السخيفة التى
يتملكها اليوم . ولم يكن الأمر ذا أهمية أن قضى الصانع
عامين للانتهاء من قطعة فنية أو قضى عشرة أعوام . . . أن
الهدف الحقيقى كان اخراج القطعة الفنية نفسها بصرف
النظر عن الزمن الذى يتطلبه ذلك الأمر . ولعل وجهة النظر
هذه هى التى تبرر الكمال الرائع لكثير من القطع الفنية
القديمة أو الحديثة ، ذلك لأن عدم الاسراع والتركيز الذى
لا نهاية له تؤدى بالاستيعاب الذهنى الى الهدف المأمول .
هذا من ناحية ومن ناحية أخرى نجد أن استعمال القوى
البشرية غير المحدودة يستطيع أن يعوض الافتقار الى الآلات
الحديثة . ولقد أقيمت الأبنية الضخمة كلها - مع قليل من
الاستثناء - سواء أكانت معابد أم مقابر ملكية تنفيذا لرغبة

فرعون ، ولما كانت سلطته مطلقة على البلاد والناس على السواء فإنه كان يستطيع أن يجند أى عدد من الرجال يريد له هذه الأغراض ، وأما العامل الأخير فهو أن الحرف كانت كلها تقريبا وراثية مما أدى الى مهارة فائقة فى استعمال الأدوات البدائية وفى معالجة المواد الشديدة المراس .

ولقد كانت حشود الرجال الذين يعملون فى تشييد المباني مقصورة على المصريين وذلك خلال الفترة الاولى من التاريخ المصرى ، أما فى أيام الامبراطورية فقد جئ الى مصر بالاسرى من الآسيويين والتوبيين فى اعقاب الحملات وبدأ استخدامهم على نطاق واسع . ولكن لعل العقل الموجه كان أهم من مجاميع الرجال ذوى العضلات والجسوم الفتية ، وكان من بين أولئك المهندسون والمعماريون وتحت إمرتهم الصناع المتمرنون والفنانون . ولكى نستطيع أن نوفى النصر المعماري للمصريين حقه علينا ان نفكر لحظة فى مدى مواردهم وطرائقهم .

لقد عرف صهر النحاس واستخدام هذا المعدن فى الأدوات والاسلحة منذ عصور ما قبل الاسرات . أما البرونز فلم يكن استعماله شائعا الا بعد الاسرة الثانية عشرة واما الحديد فلم يستعمل الا فى القرن العاشر قبل الميلاد . وعلى ذلك فان بناء الأهرام لم يكن امامهم سوى النحاس والادوات الحجرية مع احتمال استخدام الأزاميل من الحديد فى هذه الحقبة البعيدة فى الأحجار الشديدة الصلابة ، وارتفاع الهرم الأكبر يبلغ ٤٥١ قدما اليوم ولكنه كان يبلغ حين كان كساؤه الخارجى موجودا حوالى ٤٨٢ قدما أما قاعدة الهرم فتشغل حوالى ١٣ فدانا وأما الكمية المكعبة للمباني فتبلغ حوالى ٣٠٥٧ر٠٠٠ ياردة مكعبة . ويقص علينا هيرودوت حين زار مصر حوالى ٤٥٠ ق.م - أى بعد ما يزيد عن ألفى عام من بناء الأهرام تقريبا - أنه قيل له أن عدد العمال الذين كانوا يستخدمون فى بناء الأهرام بلغوا ١٠٠ر٠٠٠

عامل يستخدمون مدى ثلاثة شهور سنويا وهي من غير شمس
شهور الفيضان حين يتوقف العمل في الحقول ويصبح العمال
الزراعيون بغير عمل ويحدثنا نفس الكاتب كذلك ان بناء
الهرم استغرق عشرين عاما وهذا قد يكون صحيحا كذلك .

والمبنى الداخلى للهرم الأكبر - شابه شئ هذا شأن هرمى
الجيزة الاخرين - من كتلى الحجر الجيرى التى قطعت من
المناطق المجاورة للهرم اما الكساء الخارجى فمن نوع احسن
من السابق من الحجر الجيرى كذلك جيء به عبر النهر من
محاجر طرة على الضفة الشرقية بالقرب من القاهرة . ولعل
أكبر مشكله تعيرنا حتى اليوم هى كيف احتال المصريون
لتحريك ذلك الوزن الضخم للكتل الحجرية المستعملة فى
الأهرام والمعابد والتماثيل (وكل كتلة من احجار الهرم
الأكبر تبلغ ٢٠ قدما مكعبا) بمثل الوسائل الضئيلة الشأن
التى تحت ايديهم . ومع ذلك فان الاجابة على مثل هذا
السؤال قد لا تكون عسيرة ، ذلك لان المصريين خلفوا لنا قدرا
من المعلومات التى تعاوننا على تكوين فكرة عن طرائقهم .

ولنبدا أولا بالرافعة فمن المؤكد أنهم استخدموها وهى
كتلة خشبية طويلة واستخدام هذه الأداة لزيادة الطلاقة
البشرية هو أحد مبادئ الميكانيكا . وربما أضافوا اليها
درافيل (اسطوانات) يضعونها تحت الثقل الذى يزعمون
تحريكه وهذا يسهل عملية النقل . أما رفع الكتل الى مستوى
البناء الذى يريدون تعليته فكان يتطلب إقامة منحدر على
المبنى يسحب الرجال الكتل عليه وهم يميلون تحت تهديد
السياط . وحين تنتهى طبقة (مدماك) من الطبقات تغير
زاوية المنحدر لتمهد لإقامة الطبقة التى تعلوها . والعملية
تتطلب زمنا طويلا من غير شك ولكن الزمن لم يكن أمرا
يعنى المصريين على الأغلب كما ذكرنا . وقد استخدم المنحدر
من اللبن فى تشييد صرح معبد آمون رع فى الكرنك ولا يزال
فى مكانه حتى اليوم لأن الصرح لم يكمل . أما فيما يتصل

ينقل التماثيل الضخمة فان الحظ ساعدنا بالعثور على صورة هامة على جدار مقبرة في البرشا ، ذلك ان صاحب المقبرة واسمه « تحوت حتب » كان من اكبر حكام مقاطعه الارنب وهي المقاطعة الخامسة عشرة من مقاطعات مصر العليا خلال الأسرة الثانية عشرة والمتظر المقصود يمثل نقل تمثال ضخيم للحاكم يقصده اقامته تمجيدها له * ونحن نرى الى اليسار التمثال الضخم الذى يمثل الأمير جالسا فوق مقعد موضوعا على زحافة خشبية يجرها جماهير الرجال المرسومين فى أربعة صفوف ويقف على ركبتى التمثال رجل يصفق بيديه ويحدثنا النص المكتوب أنه يضبط السوق للفرق أى - يغنى - حتى يستطيعوا أن يجروا مما فى وقت واحد - وغناؤه لعماله هو « تحوت حتب المحبوب من الملك » بدلا من « هيلاهوب » التى نقولها اليوم ، وهناك رجل آخر يقف على قاعدة التمثال يصب الماء من اناء على الطريق الذى سيمر به التمثال وهو عمل دينى * وعلى الأرض يحرق كاهن مرتل البخور فى نفس الوقت * والنص الذى يصاحب هذا المتظر الهام نورد هنا ذلك لأن الحاكم يصف فى كلماته الشخصية أحداث اليوم الذى تم فيه هذا العمل الشاق :

« حراسة تمثال طوله ١٣ ذراعا من حجر حثنوب (١) »

كان الطريق الذى اجتازه عسيرا وشديدا للوعورة *

وكان جر ذلك الوزن الثقيل شاقا على قلوب الرجال *

لأنه من كتلة واحدة ثقيلة من الحجر الصلب ، لقد جعلت فرقا من الشبان الأقوياء يأتون لهذا الغرض بقصد شق طريق له مع جماعات من قاطعى الأحجار وعمال المحاجر ورؤساء العمال معهم وهم من ذوى العقول الفهيمة . وقال الرجال المزودون بالسلاح « سنأتى به » *

(١) صنع التمثال من المرمر * وتقع محاجر مرمر حثنوب فى الصحراء شرقا للبحر
البحر

وكان قلبي فرحا وكل المدينة تهلتت • وبلغ السرور
مدام حين شهدناه •

كان الكهل يتكىء على الطفل وذو السلاح القوى يسير
مع الضعيف ؟

وصارت قلوبهم كبيرة (بها شجاعة) وأيديهم قوية وكل
منهم مارس قوة الف رجل • • هذا التمثال الخشن النحت • •
جىء به من الجبل نقييل الوزن جدا • • جهزت السفن بالرجال
وملئت بالأشياء الغالية الى جانب جيوشى من الشسيبان وكان
المتطوعون يحملون حرايهم الى جانبه وكان حديسهم تسكرانا
وحمدا وكانوا يرددون نغما الملك على •

والكتابة التى فوق الصفوف الأربعة للرجال الذين
يجرون التمثال نصها « متطوعون من غرب اقليم الأرنب »
والصف الثانى « شيان من المقاتلين فى مقساطه الأرنب »
والصف الثالث « طبقات الكهنوت فى مقساطه الأرنب »
والصف السفلى « متطوعون من شرق اقليم الأرنب » وعلى
ذلك فان مركز الشرف الرئيسى فى الصورة اعطى لطبقتى
المحاريين والكهنة الذين استدعوا لهذا العمل ، أما الآخرون
فشيان جندوا من كل اقليم تحوت حتب لقسوتهم ومقدرتهم
الجسمانية ، وليس من عجب من غير شك ان الجنود كانوا
يستخدمون فى مثل هذه الأعمال ولكنه من الواضح ان
الطبقة السفلى من رجال الدين لم تكن معفاة من العمل
الاجبارى • ولعل هذا يعود بذاكرتنا الى فقرة من عهد الدولة
الحديثة موجهة الى التلاميذ تتضمن الفخر بوظيفة السكاتب
وتفضيلها على ما عداها وفيها تؤكد هذه الناحية « يقف
الكاهن هناك كفلاح ويعمل كاهن ال « وعب » فى القنوات
فتبلله مياه النهر فى الشتاء وفى الصيف ويستوى لديه أن
يكون الجو عاصفا أو ممطرا » (١) وتشير هذه الفقر الى
العمل الزراعى الاجبارى •

(١) ترجمة ارمان ويلكمان السابقة •

وفي « لوحة ٣٢ » يجد القارئ منظرًا يمثل نقل تمثال ضخيم مثل تمثال تحوت حتب في الدولة الوسطى ، والصورة لوجه فوتوغرافية للديوراما الممتازة المعروضة في ركن الأطفال من متحف العلوم في سوت كنسنبجتون في المجموعة التي تتناول دراسة تاريخ النقل في مختلف العصور . ويمكن ملاحظة ان التمثال ينصص ملكا يضع الصل الملكي على جبهته لأنه كان من النادر ان يسمح لشخص غير فرعون ان يفهم تمثالا ضخما مثل تمثال تحوت حتب .

وهناك نوع آخر من الانصاب التي لا تزال تدهشنا حتى اليوم وهو المسلة المصرية ، ذلك لأن هذه الأعمدة الحجرية الضخمة التي تقوم وسط خرائب المعابد ، لا بد انها كانت مصدر مشكلة معقدة للمهندسين القديمين . كانت المسلة أقدم الرموز وهي تتكون من هرم صغير أو هريمة على قمة عمود مربع ، وكان يظن ان اله الشمس ظهر في أول الامر على هذا الهرم وهو التل البدائي حين أنبثق من خضم النون البدائي ليخلق العالم . وكانت مسلة الدولتين الوسطى والحديثة تختلف عن مسلات العصور السابقة ، فمسلات العصور السابقة كانت قصيرة ممتلئة ، أما حين تطورت المسلات في عهد الدولتين الوسطى والحديثة فأننا نجدها تستطيل الى حد كبير وهي المسلات التي كانت توضع على جانبي بسوابة المعبد أمام برجى الصرح . ولعل أشهر مسلتين هما اللتان أقامتهما الملكة حتشبسوت في الكرنك ، وترجع شهرتهما الى أن التي أمرت بإقامتهما ملكة لها شأنها من ناحية والى العمل الهندسي الرائع الذي تمت به أقامتهما من ناحية أخرى .

كانت ماعت كارع خنمت آمون حتشبسوت ابنة لتحوتمس الأول ثالث ملوك الأسرة الثامنة عشرة . وعند موته خلفه فرعوننا على مصر أخوها النصف شقيق تحوتمس الثاني التي كانت زوجة له ، ولكن سرعان ما دفعته هذه الفتاة القوية العقل الى الظلال وساندها مجموعة من النبلاء

الأقوياء . . . ولما توفي تحوتمس الثانى بعد أن حكم ثلاثة عشر عاما خلفه ابنه تحوتمس الثالث الذى تزوج من نفرو رع ابنة حتشبسوت ولم يكن كفتنا كذلك لحتشبسوت فأصبح عديم العون وأعلنت هى نفسها ملكا على البلاد وظلت تحكم كفرعون حقيقى تلبس ملابس الرجال وتشير الى شخصها فى النقوش كأنها هى منهم . وقد نعمت مصر طوال حكمها الذى بلغ اثنين وعشرين عاما بسلام وتقدم وتشير المسلتان اللتان أقيمتا بالكرنك الى عظمتها .

وكلتا المسلتين - واحداهما ملقاة اليوم على الأرض - من كتلة واحدة من البرانيت . وارتفاع المسلة القائمة ٧٦ قدما . وقد استحضرتنا من محاجر أسوان على مبعده ١٢٠ ميلا الى الجنوب ويستطيع القارىء أن يقدر المصاعب الضخمة التى واجهها العمال الاقدمون عند استخراج الكتلتين ثم حملهما من المحاجر الى النيل ثم الانتقال بهما فى المراكب الى طيبة ، وأخيرا أقامتهما على قواعدهما فى معبد آمون . والنص المنقوش على قاعدة المسلة القائمة يدلنا على أن العمل فى المحاجر لقطعهما استغرق سبعة شهور فقط . وتقول حتشبسوت متحدثة للأجيال القادمة :

« يقول جلالته (١) اننى أعلن من سياطون بعد دهرين من الزمان ويتساءلون عن هذا النصب الذى أقمته لأبى . .

حين كنت أجلس فى قصرى تذكرت خالقى ودلتى قلبى الى أن أعمل له مسلتين من الذهب (٢) الجميل وقمتهما الهرمية تطاول السماء .

أنتم يا من ستشهدون هذا النصب فى مستقبل السنين وستتحدون عما فعلت لا يقولن الواحد منكم « أنا لا أعرف . أنا لا أعرف لماذا قيم هذا الجبل وزين كله بالذهب

(١) مثال لما اعتادته حتشبسوت - كما ذكرنا من قبل - من الإشارة الى نفسها كرجل .

(٢) يستنتج من ذلك أن المسلتين كانتا مغطيتين بالذهب على ما يظهر .

اننى أقسم بحب رع لى بمديح آمون لى وطلالما ينتعش أنفى
بنسمة الحياة والكيان وحين اضع التاج الأبيض وأشرق فى
التاج الاحمر وحين يوحد لى الالهان (١) اقليمهما وحين احكم
هذه الأرض كابن لايزيس وأنا أبأشر سلطاتي كابن لنوت * *
وطلالما ينزل رع فى قارب المساء ويخرج فى قارب الصباح
ويصطحب والدتيه فى القارب المقدس * * وطلالما أقامت
السما وطلالما بقى ما صنع * * وطلالما أعيش الى الأبد مثل
الخالدات (٢) وأدخل فى الحياة مثل أنوم * *

أن المسلتين العظيمتين اللتين أمر جالتي بصياغتهما من
الذهب الجميل لأبى آمون حتى يبقى اسمى فى هذا المعبد
ويخلد الى الأبد ابد الدهر هما من كتلة واحدة من الجرانيت
الاحمر الصلب دون وصلة أو انقسام أو اصلاح وقد أمر
جالتي ببدء العمل فيهما فى اليوم الأول من الشهر الثانى
من الشتاء فى العام الخامس عشر (٣) حتى اليوم الأخير من
الشهر الرابع من الصيف فى العام السادس عشر أى أن
العمل تم فى سبعة شهور فى هذا الجيل * *

وفى معبد الدير البحرى أمرت حتشبسوت أن تنقش
مجموعة من الرسوم البارزة تصف عملية نقل مسلتين فى
النيل ربما كانتا هما المسلتين سابقتى الذكر * وقد صنعت
من أجلهما سفينة كبيرة خصصت لنقلها ونستطيع أن نشهد
فوقها الكتلتين على زحافتين ورأس احدى الكتلتين الى جانب
قاعدة الأخرى والشكلان الهرميان الواحد ناحية مقدمة
السفين والأخر نحو مؤخرته * وقد ربط الى السفين عدد من
قوارب الجذب وصحبها عدد من المراكب التى تقام فيها
الاحتفالات الدينية * *

ولنتخيل وصول المسلتين الى طيبة * * واذن فلم يبق
سوى اقامتهما على قواعدهما * * ولكن كيف ؟ لقد وصلنا الى

(١) حوريس وست *

(٢) اسم يطلق على النجوم القطبية *

(٣) من حكم حتشبسوت *

ما يظهر انه أعقد ما فى الأمر حين يتصور المرء الاستعدادات الآلية الضخمة التى رؤى من الضرورى ترتيبها فى أيامنا هذه بقصد إقامة مسئلة رعمسيس الثانى فى ميدان الكونكورڤ فى باريس وإقامة مسئلة تحوتمس الثالث المعروفة تحت اسم مسئلة كليوباترة على ضفة التايمس فأننا نحس بالعجز حين نحاول أن نوضح كيف كان من الممكن أن يتم ذلك الأمر فى مصر القديمة * ولكن رغم ذلك فإن الاجابة قد تبدو يسيرة أن نحن تذكرنا المبدأ الأساسى « لا عبرة بالوقت أو العمل »

ويرى مستر روبرت انجلباك من رجال المتحف المصرى السابقين بالقاهرة فى كتابه The Problem of the Obelisks أن الطريقة التى أتبعها المهندسون المصريون ربما كانت على الصورة الآتية : - كان يقام أولا منحدر من اللبن أو التراب فوق البقعة التى يزعم وضع المسلة فيها وينحدر الى مستوى الأرض فى ناحية من نواحيه * ويعمل بئر رأسى قمعى الشكل عند قمة هذا المنحدر على أن تكون قاعدته القاعدة المزمع وضع المسلة فوقها * وكانت تملأ البئر بالرمال التى يستطاع سحبها من خلال دهاليز أفقية فى أسفل المنحدر وحين يعد كل شئ تنقل المسلة فوق زحافة وقاعدتها الى الأمام على الطريق الصاعد حتى قمة المنحدر ثم تعالج بحيث تكون أفقية تستقر قاعدتها على الجزء الأعلى من الرمال التى تملأ البئر القمعى وبعد ذلك يبدأ فى سحب الرمال من الدهاليز السفلية وكلما نقص مستوى الرمل خاضت المسلة فى القوهمة القممى حتى تقوم على قاعدتها وبعد ذلك يزال المنحدر الصناعى وتبقى المسلة قائمة فى مكانها *

وليس من شك أن العمل فى قاعات الأعمدة الضخمة وأبراج الصروح فى المعابد كان يتم بنفس الطريقة الشاقة التى قدمناها * فكانت تجر اسطوانات الأعمدة على منحدر كانت زاوية ميله تتطلب تغييرا دائما حتى ينتهى العميل فيزال المنحدر ولا بد أن مثل هذا العمل كان يتطلب عدة

سنوات ولكن المران المستمر على تنفيذ هذه المهام الضخمة والاشراف على العمال والمواد المختلفة جعلت المهندسين المعماريين المصريين متمكنين من فنهم ، ولعل أكبر شاهد على همتهم الملحوظة هو معبد رمسيس الثانى فى « ابو سمبل » فى النوبة وهو منحوت فى جبل صلب من الحجر الرملى وتتقدمه أربعة تماثيل ضخمة لرمسيس نفسه ارتفاع كل منها خمسة وستون قدماً منحوتة فى الصخر الحقيقى .

والعمال المصريون الذى ندرى عنهم أكثر مما ندرى عن غيرهم هم العمال الذين يعملون فى الجبانة على الضفة الغربية من حلبيه ، ذلك لان هذه الناحية أصبحت خلال الدولة الحديثة مثل خلية نحل تعج بالصناعة والعمال بالنسبة لمعتقدات المصريين المتصلة بالحياة بعد الموت . والبواقع أن تجهيز المقابر الملكية فى وادى الملوك ووادى الملكات والسراديب الواسعة التى تمتد مئات الأقدام خلال الصخر والمزينة بنقوش وكتابات بارزة ملونة وحفر مئات المقابر الخاصة التى تشغل شعاب الهضبة الغربية وصناعة الآثار الجنزى وتحنيط الموتى . كل هذه الحرف والاعمال كانت تستدعى قيام مستعمرة دائمة للعمال الذين تكرر حياتهم لها وحدها . وهكذا أصبحت « الجبانة العظمى الجبلية لمسلايين السنين لفرعون على الضفة الغربية » ناحية منفصلة عن العاصمة تحت اشراف موظف مسئول عن ادارتها . وكانت الجبانة فوق ذلك منقسمة الى أجزاء يحمل كل منها اسما خاصا مثل « مكان الحق » وكانت المنطقة كلها تحيط بها خمسة أسوار وتحرسها حامية قوية تسمى « قلعة الجبانة » .

وكان العمال ينقسمون قسمين رئيسيين : هما الجانب الأيمن والجانب الأيسر على التوالى وكل من الجانبين كان يوضع تحت أمرة رئيس عمال ومعه كانت تحفظ السجلات ويشرف على الحسابات وكان العمال من مختلف الحرف التى يتطلبها العمل فى الجبانة فمنهم النحاتون والحفارون وعمال

المحاجر وصانعو النحاس والنجسارون والذين يعملون في
الملاط وغيرهم . وبكل ناحية هيئة بوليس فيها التوبيون من
قبائل المازوي تحت قيادة ضابطين كبيرين وهيئة البوليس
هذه مسئولة عن الأمن في الناحية وبصفة خاصة عن حماية
المقابر من السرقات وكان عملهم مستمرا كما سنرى
فيما بعد .

أما عن حياة العمال انفسهم فان قدرا كبيرا من المعلومات
قد وصل اليينا في هيئة مستندات قانونية وسجلات . . الخ
مكتوبة على البردي او شظايا الحجر الجيري ومنها نستطيع
أن نعلم أن الدولة كانت تستخدمهم وان أجورهم لم تكن
سوى تعيينات يأمر بصرفها فرعون بواسطة الوزير عامله
الأول وتشمل חיوبا من شون الدولة وأسماء وخضرا كما
كانوا يمنحون كذلك الزيت والأقمشة . وحين بدأت الإدارة
تضعف نرى هذه الامدادات تنضب مما دعا العمال الذين
أضربهم السغب الى الاضراب والسير في مظاهرة الى مكاتب
دوى السلطان للاحتجاج قائلين « ليست لدينا أقمشة ولا زيت
ولا سمك ولا خضر . أرسلوا الى فرعون مولانا الطيب بذلك
وأرسلوا الى سيدنا الوزير حتى تكون هناك وسيلة لمؤنتنا
على أن نعيش (١) » ولقد كانت الأمور كذلك خلال الأسرة
المشرية وبلغت من السوء حدا أن تكررت أمثال هذه
الشكايات حتى بلغ الضعف والجوع بالرجال درجة لم تمكنهم
من الاستمرار في عملهم . وتستطيع أن نقدر أن نصيبهم
كان أوفى في العهد الأكثر استقرارا في الأسرتين الثامنة
عشرة والتاسعة عشرة .

وكانت أشق صور العمل التي شغلت بها طبقات العمال
هي نحت المقابر الصخرية وزخرفتها وخاصة المقابر الملكية

(١) ترجمة Prof. Te Peet في كتابه
the twentieth Egyptian Dynasty, Clarendon Press, p. 13.

فى وادى الملوك وحين يقف الزائر فى الساحة السفلى
الكبرى لمقبرة سيتى الاول يهوله القدر الضخم من العمل الذى
تم هناك فهذه المقبرة بالذات تمتد مدى ٢٣٠ قدما فى
الصخر الصلب عن طريق ممرات وسرايب تغطى جدرانها
النقوش البارزة الملونة والكتابات . وبعد الصور التى
تمثل الملك فى حضرة الآلهة والمناظر الدينية الأخرى
والأعمدة من النصوص الدينية ننتقل الى قاعة أخرى يلتصق
سقفها بصورة الآلهة « نوت » ونجوم السماء واننا لنعجب
العجب كله من مقدرة الاقدمين على العمل فى مكان مثل هذا
المكان بعيدا عن ضوء النهار فى الظلام الدامس مع وسائل
الاضاءة المحدودة .

وكان يستخدم ضوء سراج الزيت فى نحت السرايب
الكبرى وتجهيز الجدران للفنان ورسم المناظر الدينية رسما
تخطيطيا فى مهارة فائقة ونحتها ونقشها وتلوينها بعد ذلك .
وقد قيل ان عددا من المرايا الضخمة كان يستخدم لهذا
الغرض حيث تعكس بواسطتها أشعة الشمس من خارج
المقبرة منتقلة من مرآة الى أخرى ولكن هذا أمر بعيد
الاحتمال على الأغلب ، لأن المرايا القديمة كانت تصنع من
البرونز أو النحاس وهذه لا تؤدى الى النتيجة المنشودة ،
هذا الى أن قوة الانعكاس تضعف من مرآة الى مرآة حتى يقل
أثرها قله واضحة فى نهاية الأمر . يضاف الى ذلك أن وجود
« السقالات » وتنقلات العمال أنفسهم مما يعوق الانعكاس
المطلوب من وقت لآخر . ومن المحتمل جدا - على العكس من
ذلك - أن عددا كبيرا من هذه القناديل كان يستعمل ويحوى
كل منها اناء صغيرا مفتوحا مليئا بالزيت تطفو فوقه الدبالة
ورغم ذلك فلا بد أن الاضاءة كانت قليلة ومن المعلوم أن
الصانع الشرقى اليوم لا يزال يستطيع القيام بأدق الأعمال
فى ضوء خافت جدا مثل ما يفعل عمال الصاغة فى القاهرة
اليوم مثلا . ولا بد أن الحياة تحت مثل هذه الظروف لها
آثارها المؤلمة . وكثير من اللوحات التى ورد ذكرها فى

صفحتي ١٠٢ و ١٠٣ التي خلفها عمال مقابر الجبانة موجهة إلى المعبودات التي يخشون أنهم اغضبوها ورد فيها ما يشير إلى أن الشاكي « يشهد الظلمة في النهار » أو « الظلمة التي صتمتها (أي المعبود) » ومن المحتمل أن هذه تعبيرات عن العمى وأن المقابر سلبت الكثيرين أبصارهم .

وبالمتحف البريطاني بردية تحسوي سجلات عن ملاك الناحية عنوانه « سجل المدينة لغرب نو. (١) » من معبد الملك « من مارع » إلى « مستعمرة ما يونحس » وأهمية هذا المستند كبيرة جدا من غير شك رغم أنه لا يعطينا فكرة عن العدد الإجمالي للسكان فلم يرد به سوى ذكر ١٨٢ بيتا وطبقا لعنوان المستند فإنه يمثل عدد المساكن بين معبد شيتي الأول في القرنه في الشمال و « مستعمرة مايو نحس » في الجنوب التي تقع بالقرب من دير المدينة الحالي . وليست لدينا وسيلة نستطيع بها أن نقدر عدد الأشخاص الذين كانوا يقيمون عادة في بيت واحد ولا الأعداد الأخرى الأكبر من ذلك التي تعيش في المباني الملحقة بالمعابد الجنزية (٢) . بل وأكثر من ذلك أنه رغم أننا قد نستطيع أن نستخلص أن حرف مختلف السكان المذكورين كانت مرتبطة بالجبانة في صورة من الصور إلا أن شخصا واحدا يعمل كاتباً ذكر كعضو في هيئة موظفي الجبانة مما يشير إلى أن عمال الجبانة كانوا يوضعون في ناحية مخصصة لهم ولا يبعثون في كل مكان كما هي الحال بالنسبة للملاك الذين تناول السجل ذكرهم .

أما حرف هؤلاء الملاك فمتنوعة فمن بينهم تسعة وأربعون من الكهنة معظمهم من أدنى الدرجات (وعب) وسبعة من بيتهم من موظفي الإدارة وواحد من هؤلاء هو أمير الغرب

(١) طيبة .

(٢) في خلال الأسرة العشرين يظهر أن معبد رمسيس الثالث في مدينة حابو كان المركز الذي تدار منه ضفة طيبة الغربية .

نفسه كما كان من بينهم ثلاثة عشر كاتباً • أما بقية الملاك
ففيهم طبيب وسبعة من الشرطة وضابطان من ضباط البوليس
وسبعة يعملون بالحدائق وثمانية عشر من الرعاة وستة من
العمال الزراعيين وستة من الغساليين واثنان عشر سماًكا
وثلاثة من عمال خلايا النحل وأربعة من عاصري الجمعة
وثمانية من صانعي التعل واثنان من المبخرين وغيرهم •

ومعظم ما وصل إلينا خاصة بطبقات العمال في مصر
القديمة يتصل بالقضايا ، ولذا فأننا نعرف عن جرائمهم
أكثر مما نعرف عن فضائلهم - وبعض هذه القضايا مشوقة
ومن المعروف أنه إلى جانب النزاع الذي يفصل فيه في
المحاكم كانت الأمور في الجزء الأخير من الدولة الحديثة
تعتمد على الوحي ، فكانت القضية تعرض على تمثال الإله
الذي يشير بما يراه عن طريق تحريك رأسه • • وهو عمل
يتم من غير شك بواسطة كاهن يوحى إليه بما يراه عمله •
وكان أمتعيب الأول معبودا يحبه عمال الجبانة وهو ثائي
فرعون للأسرة الثامنة عشرة ، وهو مع أمه الملكة نفرتاري
اعترف بهما كمعبودين حاميين لطيبة الغربية أرض الموتى •
وقد ارتبطا فعلا باله الموتى أوزيريس حتى أنهما كانا
يصوران في الفن كأنهما لجلدهما لون أزرق يميل إلى السواد
وهو اللون الخاص بذلك الإله وفي نواح أخرى من طيبة -
كما يمكن إدراك ذلك - كان يعتبر الإله آمون رع الحاكم
وكانت الظلامات تقدم غالباً إلى صورة محلية لهذا المعبود ،
ومن أشهر القضايا وأبعثها على التسلية من هذه الناحية
قضية حفظت على بردية في المتحف البريطاني وقد جهرت
أحداثها على الصورة التالية :

كان هناك خادم يدعى آمون أم ويا ، وكان حارساً
لمخزن بمعبد « آمون با » - خنتي » وباخنتي هذه ناحية في
طيبة وقد سرقت منه خمسة أثواب من القماش الملون كانت
في عهده • فلما حمل تمثال الإله إلى الخارج في الموكب

خلال الاحتفال السنوي لأوبت جاء آمون أم ويا وتوجه نحو
الاله وقص قصته وقال : « جاء الى رجال في الظهيرة سرقوا
خمسة أثواب من القماش الملون متى . . اي مولاي الطيب
المحسوب . . الا ترد الى ما سرقوه متى ؟ » (١) ويحدثنا
النص بعد ذلك أن « الاله هز رأسه بشدة » وعندئذ أخذ
آمون أم ويا يقرأ للاله قائمة بأسماء أهل الناحية ، وحين
وصل الى اسم قلاح يدعى باثاوام دي آمون هز الاله رأسه
مرة ثانية وقال بصوت عال : « انه هو السارق » ، وكان
ياثا وام دي آمون حاضرا وأحس بالمهانة ولم يتردد في
معارضة الاله في صراحة ، وهو يحتج بأن الاتهام باطل ،
وعندئذ غضب الاله غضبا شديدا . ولكن ياثا وام دي آمون
ظل على موقفه بل ذهب الى أبعد من ذلك ، إذ أشار الى أن
الصورة المحلية لآمون الذي يعبد قرب بيته أقرب الى الصدق ،
ولذا اتجه الى هذا المعبد فورا ، وهو آمون تاشتيت ، ولكن
حتى اله لم يتحز الى جانبه بل هز رأسه وقال : « انه هو
الذي أخذ الأثواب » فلما نفى ياثا وام دي آمون ذلك الاتهام
أجاب « خذوه أمام آمون بوكتن في حضرة شهود كثيرين »
وعند ذلك صاحبه ممثل للمشرف على القطعان الخاصة بمعبد
رعسيس الثالث ورئيس الصناعات وراعى المعبد كشهود ،
وأخذ المتهم أمام صورة ثلاثة محلية لآمون . . ولما ندرى
ما حدث كنتيجة ذلك لأن المستند يقص جلسة أخرى (٢)
يتم هذه المرة أمام آمون باخنتي ثانية ، وفي هذه المرة نجد
ياثا وام دي آمون مذنبا في النهاية ، إذ يتهمه الاله مرة
أخرى . . ثم يذكر النص أن آمون باخنتي « أخذه وأوقع به
العقاب البدني أمام أهل المدينة » واضطره أن يقسم يميننا
بأنه هو المذنب وأنه سيعيد الملابس . وهذا قد يعنى أن

(١) هذه الفقرة وما يليها منقولة عن ترجمة بلاكان لى

Journal of Egyptian Archaeology, Vol. XI, pp. 250 ff.

(٢) الواقع أن هذا الاستماع قد وصف بأنه الاستماع الثالث أمام آمون باخنتي

فلأنه كان هناك استماع آخر لم يرد ذكره في مستندنا .

كهنة آمون ضربوه ضربا مبرحا اعترف بعسده بجريمته *
ولكن الأمر لم ينته بعد بالنسبة للتعس باثا وام دي آمون ،
اذ أن موظفا محليا ضربه مائة ضربة بسعف نخيل وجعله
يقسم قائلا : « اذا رجعت فيما قلت سألقى بك الى التمساح »
وأخيرا طلب الى الشاكي آمون أم ويا أن يقسم أنه لم يتسلم
الملابس حتى لا يقوم المدعى عليه بحيلة أخرى *

الفصل السابع

المجرمون الكبار

جلس ثمانية من عمال الجبانة ذات أمسية في حلقة على أرض كوخ من الطين أغلق بابه في أحكام وكان جو السرية يفسر الجميع وكانوا جميعا في هيئة تشفى عن جوع وحرمان زاد من مظهره ملايسهم المزرية الضئيلة التى لم تكن سوى مآزر تستر عوراتهم .

وكان أحدهم يتحدث وهو طويل القامة جائع المنظر وكان الآخرون يتابعون كلماته فى انصات وانتباه وقال لهم « لا خطر البتة والليلة خير وقت للمحاولة فالقمصر ضئيل يساعدنا على معرفة طريقنا الى المقبرة دون أن يلمحنا احد . هذا الى أننى رتبت الامور بحيث لا يكون حرس الجبانة فى نوبتهم الليلة »

فسأله أحدهم « أحسنت يا جعبي ور ولكن كيف توصلت الى عمل ذلك ؟ » .

فأجاب « كان الأمر يسيرا فقد رشوت الكاتب التعس فى قسمنا ليكتب مذكرة بامضاء مجهول امليتها بنفسى تشير الى أن كاتبها علم أن محاولة ستنجح الليلة على قبر فى السوادي بواسطة عدد ضخم من الرجال ثم أرسلت المذكرة الى مدير البوليس وأننى سوف أحس بأننى أستحق أن أتهم بالغيباء

بقية أيام حياتي أن لم يرسل معظم رجال الحرس الليلة الى
الوادي نتيجة هذه الإشارة المزيفة » .

ويستطيع القارىء الآن أن يدرك أن هؤلاء العمال
كانوا يدبرون مؤامرة من نوع ما والواقع أن الأمر كذلك بل
أنها مؤامرة من أحط نوع ، انهم يتآمرون على سرقة مقبرة
وهي جريمة مريعة في نظر المصريين الاتقياء كان عقابها
القتل ومع ذلك كانت شائعة الحدوث في ذلك العصر ، لأن
الأمور خلال الأسرة العشرين لم تكن مرضية في « الجبانة
العظمى الجلييلة لملايين السنين لفرعون في طيبة الغربية » .

وأمام ضيق مصر بسلسلة الحروب الكبرى ضد الليبيين
وشعوب البحر وازعاجها بالتسرب المستمر للهجرات الليبية
ومواجهتها للمصعوبات السياسية الناجمة عن التناقض
المستمر لسلطان العرش والنمو المتزايد لنفوذ كبار كهنة
آمون رع * * لم يكن عجيبا ان تعجز السلطات الادارية في
مصر أن تقيم النظام * * وكانت هذه هي الحال في الجبانة
على وجه خاص فلم يكن العمال يتقاضون أجورهم بانتظام
وكانوا في معظم الاحايين يحسون شظف العيش وقسوته ولم
يكن النظام مستتباً واستغل الموقف صغار الموظفين ، هذا الى ان
البعض من بين الجماهير الكثيرة الذين يعيشون على الضفة
الغربية من طيبة والذين يعملون في نواح تتصل بالمنازل
الأبدية للموتى بدأوا يدبرون عيونهم نحو الثروة التي تحت
أيديهم * وكان الموتى في أعماق القبور الكثيرة قد دفنوا في
أبهة وفخامة من فراعنة وأمراء ونبلاء مزيئين بالذهب
والأحجار الكريمة ومعهم أثاثهم الجئزى الفاخر * وبينما
كان الأحياء يتضورون جوعاً نرى الأموات يشعمون بفيض
لا ضرورة له مما دفع الأحياء الى أن يفتصبوا ويسلبوا
الراجلين المقدسين .

وفي المناسبة التي نحن بصددتها نرى المتآمريين ينسلون
في منتصف الليل والقمر هلال وكل منهم يتخذ طريقاً مختلفاً

نحو المكان المعين . وكان الرجال الثمانية يمثلون مختلف الحرف الشائعة في طيبة الغربية فهناك « حمبي ور » عامل المحجر و « حمبي عو » الحجار ثم نجاران هما سستخ نخت وايرن آمون وعامل زراعي يدعى آمون م حب وسقاء يدعى خع أم وأس وأخران . وكان هدف حملتهم الشنيعة احداث المقابر الهرمية الصغيرة من العصور السابقة هي مقبرة الملك « سخم رع شدتاوى » ابن رع « سو بك أم سا أف » وقد دفن مثل غيره من ملوك ذلك العهد (الأسرة السابعة عشرة حوالى ١٧٠٠ - ١٥٨٠ ق م) فى قبر متوسط المظهر يحوى غرفا نحتت فى الهضبة الصخرية تحت مبنى هرمى من اللبن .

ومن الطبيعى أنه ليس من السهل افتراض اغتصاب مدخل مثل هذا المدفن فى ليلة واحدة . والواقع أن هؤلاء اللصوص الذين رأيناهم بدأوا عملهم منذ عدة أيام ليلا ونهارا حين كان هذا الجزء من الجبانة متروكا دون حراسة من وقت الى آخر . . وبالقرب من هرم الملك « سسوبك أم سا أف » كانت توجد مقبرة محفورة فى الهضبة الصخرية لأحد العظماء المدعو نب آمون وقد مهدت هذه المقبرة الوسائل لاتمام العملية ، اذ استطاع رجال العصاية تحت اشراف « حمبي ور » رجل المحاجر « وحمبي عو » الحجار من أن يعملوا جاهدين فى حفر سرداب فى جدار هذه المقبرة الصخرية يوصل الى الهرم المجاور . ولم تكن هذه هى أبسط الوسائل للدخول الى مقبرة سو بك أم سا أف فحسب بل كانت أكثرها سلامة كذلك لأنهم كانوا يستطيعون متابعة عملهم فى مقبرة نب آمون وهم فى مأمن من أنظار المارة . ولما كان العمل الشاق قد انتهى فلم يعد باقيا سوى السرقة وكانت تكفى ليلة واحدة لتفتيش المقبرة الهرمية وحمل الكنوز التى تحتويها .

واتخذت العصاية مسالك مضللة حتى استطاع أفرادها أن يتجمعوا فى القاعة الخارجية من مقبرة نب آمون . وأخذ

حمبى ور معه ثلاثة مشاعل من أحد أركان القاعة سلم اثنين منها لأحد الرجال بعد أن أوصاهم مشددا بالتزام الصمت الكامل . ثم اضاء هو المشعل الثالث والتقط عددا من الأكياس الجلدية التى كانت مخبأة كذلك فى نفس الركن ثم وزعها على رجاله وأمسك بالمشعل أمامه وبدأ يزحف فى السرداب الذى كان ينفتح عند منتصف منظر ملهون رائع النحت على جدار مقبرة نب آمون هشمة اللصوص فى قسوة . ووصل حمبى ور بعد خمس دقائق قضاها زاحفا على يديه ورجليه إلى غرفة قبر الملك سوبك أم سا أف التى اضاء ظلمتها الحائكة مشعلة الذى يحمله معه . وحالما شق الآخرون طريقهم إلى الغرفة مخلفين خع أم واس وحده وراهم فى مقبرة نب آمون ليقوم بالمراقبة أضىء المشعلان الآخران من المشعل الذى يحمله حمبى ور ، وقف اللصوص يستطلعون ما حولهم .

وكان يرقد فى هذه الغرفة ذات الحرارة الخائفة الملك سوبك أم سا أف وقد نحت له تابوت ضخم من صخر الجبل فى الغرفة ولكنه لم يكن منفصلا عنها وكان الغطاء قد أزيح فى اليوم السابق من مكانه وظهر بداخل التابوت الحجيرى تابوت داخلى من الخشب المفطى بالذهب (لوحة ٣٣) أعتنى بزخرفته وتزيينه برسوم ريشية ونقشت عليه أدهية بالهروغليفية امتدت على سطحه . وكان وجه التابوت يمثل صورة الملك الميت ، والعينان مطعمتان بالأوبسديان الأسود والمرمر الأبيض وكان يرتدى لباس الرأس المخطط الخاص بالفراعنة الذى يطل من مقدمته الصل الملكى برأسه .

وقد بدأ عدد من اللصوص يرتعدون فرقا حين تأملوا السكون الذى يطبق على بيت الموت وتذكروا اللعنات القاسية التى يفوزها صاحب القبر بمن يتعدى عليه وهاك مثلامها :

« كل من يعتدي على سكنى أو يحطم غرفة دفنى أو يسحب جثتى فإن « كا » رع سوف تماقبه وسوف لا يورث أملاكه الى أولاده وسوف لا يكون قلبه سعيدا فى الحياة وسوف لا يلقي ماء فى الجبانة وسيقضى على روحه الى الأبد » .

وكان خلود الرجل أو المرأة فى العالم الآخر يتوقف غالبا على حفظ جسده المادى بعد الموت فإن تناوله الفساد فإن فناءه محتوم ومن هنا كان الذعر الذى يحل بالأتقياء من المصريين عند تفكيرهم فى جريمة سرقة القبور . وحتى هؤلاء اللصوص القناائمون الآن فى غرفة دفن الفرعون سو بك مقاصدهم وبدأوا يرددون الرقى الواقية أو يلتمسون العفو من أوزيريس وأنوبيس ولو لم يكن زعيمهم حمبى ور على ارادة نفاذة لارتدوا على أعقابهم وهربوا واستطاع رجل المعاجر أن يلم شعثهم فى همس تارة وتهديد تارة اخرى حتى استمادوا شجاعتهم واستطاعوا أن يتابعوا عملهم الذى سرعان ما انغمسوا فيه فاغتصبوا غطاء التابوت الخشبى وسحبوا الجثة من مكانها وكان رأسها مكسوا بقناع فاخر يغطيه الذهب سرعان ما نزعوه وأخذوا منه الأوراق الذهبية . أما الكفن الذى يلف الجثة فقطع بسكين حتى ظهرت من تحته الجثة فى لفائفها ثم فكوا اللفائف بقدر ما استطاعوا من سرعة وأخذوا يختطفون ما بينها من تمائم مكسوة بالذهب تمثل عين حوريس مربوطة فى الرقبة وكانت الجثة كلها مغطاة بالذهب فجردوها حتى تركوها عارية ثم قطعوا أوصالها حتى يستخلصوا الدمالج الذهبية المطعمة بالأحجار الثمينة التى وضعت حول الذراعين والساقين وخواتم الجملان التى كانت تحيط بأصابع الملك الميت .

أما الرجال الذين لم يكسونا ينهبون الجثة فكانوا ينتزعون الذهب والفضة والأحجار الكريمة التى كانت تزين التابوت الداخلى ، وأخيرا انتهى الأمر وجمعت النباء فى أكياس جلدية كانت قد أحضرت لذلك الغرض ومن بينها الأدوات الصغيرة من أثاث المقبرة الذى كان بالفرقة ، والذى رأوا أن له بعض القيمة ، وبعد أن انتزعت من التابوت

الخشبى كل زينته الشمينه مزق شر ممزق ، وكوم فى وسط
الغرفة مع حطام الموميا وكتلة الأربطة الكتانية . ثم دس
حمبى ور مشعله تحت الكومة التى تحولت للتسو الى شعلة
متأججة ، ثم انسحب وأعوانه الى السرداب ومنه الى مقبرة نب
أمون الصخرية . وقد ذهبت فى الدخان والنار مؤونة الملك
سوبك أم سا أف التى كان يحتفظ بها من أجل خلوده ، وهمس
خع أم واس وهو الذى كان قد ترك للمراقبة فى مقبرة نب
أمون « كل شىء على ما يرام . لم يقترب أحد من هذا المكان »
فأجاب حمبى ور : « حسنا . لنعد كما آتينا فى طرق متفرقة
والليلة القادمة أن سارت الأمور على الوجه الذى نرجوه -
سنأخذ الذهب من غرفة الملكة » واختفى فى الظلام بعد ذلك .

واجتمع الرجال فى الليلة التالية قرب المقبرة ، وكان
حراس الجبانة على ما يظهر يركزون جهودهم فى وادى الملوك
كنتيجة لخطاب حمبى ور الذى أرسله بامضاء مجهول .
وكانت غرفة مقبرة الملكة « نوب خع اس » زوجة « سوبك أم
سا أف » تجاور غرفة مولاها ، ولكنه كان من الضرورى
اقتحام مدخل اليها من ناحية أخرى واتبعت نفس الطرق
التي اتبعت فى الليلة السابقة فيما يتصل بالنهب والتخريب ،
ثم عادت العصاية الى الكوخ الذى يعقد فيه أفرادها
اجتماعاتهم آمنة وأفرغوا الفنائم من أكياسهم الجلدية
وبدأوا يقسمونها الى ثمانية أنصبة متساوية .

ولم يكادوا يفرغون من ذلك ويشرق الفجر على التلال
حتى سمعت هممة أصوات خارج الكوخ ، فوقف الرجال
على أقدامهم ذعرا وقبل أن تتاح لهم فرصة اخفاء الغنيمة
كسر الباب نتيجة ضربات عنيفة متوالية ، ودخل اثنا عشر
رجلا من المازوى السود مندفعين الى داخل الكوخ وهرب
ثلاثة أو أربعة من اللصوص عن طريق باب مفتوح ، ولكن
رجال بوليس آخرين استطاعوا القبض عليهم للتسو وكانوا
يطوفون الكوخ . أما بقية أفراد العصاية فوضعوا فى القيود .
ولم يكن مدير البوليس ساذجا كما تصور حمبى ور ولم

يخضع بتضليله اياه عن طريق الخطاب المزيف . ورغم انه بحث بغالبية رجاله لمراقبة وادى الملوك فانه اعطى فى اليوم التالى اوامر هامة الى فرقة صغيرة بالمرور حول الجبانة كلها اثناء الليل . وقد شهد هؤلاء الرجال للصوم اثناء خروجهم من مقبرة نب آمون بعد اتمام السرقة فأسرعوا الى القيادة لا بلاغها الامر وهكذا تم القبض على أفراد العصاية .

وعندما تم تقييد المجرمين الثمانية فى أيديهم وأرجلهم بالحبال وربطوا الى بعضهم البعض أخذهم رجال البوليس ومعهم زوجاتهم وأولادهم وأقاربهم الذين قبض عليهم البوليس جمعهم من القرية المجاورة كانوا جميعا يصرخون ويصخبون . ولم يكن البوليس المصرى يستحق ان يحمل اسمه ان لم يؤد واجبه . على الوجه الأكمل فيقبض على كل من له ... ولو صلة بعيدة ... بالفاعل الأصلي ، وحين ارتفع روع فوق الجبال عند الشروق كان الجميع مسجونين فى رحبة معبد رمسيس الثالث فى مكان أحكم اغلاقه . وقد سجلت بعد ذلك اسماؤهم والاتهامات الموجهة اليهم كتابة وارسلت الى الوزير .

وكان الوزير فى مصر القديمة على رأس ادارة القضاء وكان يشرف شخصيا على المحاكمات الهامة . وليس من المؤكد قيام محاكم دائمة فى الوقت الذى تتناوله بالحديث بل يظهر أنه فى مثل قضية سرقة المقابر كان الأمر يعد خطيرا حتى أنه كانت تعقد محاكم تحقيق خاصة يشرف عليها فرعون نفسه .

وكان من المعتاد اخطار الوزير شخصيا بمثل هذه الجرائم فورا ان كان فى مصر العليا فان لم يكن فعلى البوليس والموظفين الآخرين ان يبحروا بمستنداتهم الى حيث يكون ، وفى الحالة التى نحن بصددنا كان الوزير ومعه كبار موظفى الدولة يقيم فى طيبة . ليتحرى الحالة المشسنة التى وصلت اليها كل الجبانة .

وتبعاً لذلك نرى أنه بعد بضعة أيام يحضر المسجونون أمام المحكمة التي عقدت في المعبد الكبير لامون في الكرنك وكانت هيئة المحكمة مكونة من أربعة قضاة والوزير خع ام واس الذى يمثل شخص الملك ثم الساقى الملكى نس امون وأمير طيبة المدعو بيسيور ثم مناد . وكان كل قاض يضع حول عنقه تمثالاً ذهبياً صغيراً لـ «ماعت» معلقاً فى سلسلة ذهبية . وماعت هى الالهة الصدق ، ولذا فإنها كانت تعتبر المعبود الحامى للعدالة . وكان القضاة من المراتب العالية يعتبرون كهنة لها .

وكان السجين الأول فى قائمة الاتهام هو حعبى ور رئيس العصاية وحين وقف أمام القضاة ذوى الوجوه العبوسة قرأ عليه الكاتب الاتهام بصوت عال ثم طلب اليه أن يقرر بعد اليمين ان كان هذا صحيحاً أم لا . ولم يكن فى المحاكمات المصرية محكمون أو محامون وكان على المتهم ان يدافع عن نفسه . وأقسم حعبى ور بحياة فرعون أنه لم يرتكب هو أو زملاؤه الجريمة ولم يكذب يقول ذلك حتى رفع الوزير اصبعه فانطلق رجلان ضخمان تبعاً للإشارة وهجما على السجين وطرحاه أرضاً ووجهه الى أسفل وجاء رجلان آخران أخذاه يضربانه فى غير رحمة بسعف النخيل وبعد أن استمر ذلك بضع دقائق بدأت شجاعة حعبى ور تخسونه فصرخ قائلاً « كفى . . . سأحدث » وتوقف الضرب للتو واعترف هو أنه « سرق شيئاً » من مقبرة سوبك أم سا اف . ولكنه لم يعترف اعترافاً كاملاً مؤملاً أن يكون فى هذا الكفاية .

ولكن السلطات كانت تدرى أى نوع من الناس تتعامل معه وكانت طرائقهم منتجة قاسية . فجاء بمقرعة وبديء فى ضربه حتى التمس مرة أخرى التوقف وأضاف بعض التفاصيل الى اعترافه السابق . ولكنها لم تكن اعترافات كاملة إذ أقر أمر اغتصاب المقبرة ولكنه حاول اخفاء أسماء شركائه . . . ولم يكن ذلك ذا جدوى فانتقل البوليس الى

ثالث المراحل وأقسامها وحيث بدأه خشبية (١) بيضية الشكل ووضعت في القدم اليمنى للمسجون ثم أديرث الأداة في وحشية حتى بدأت مفاصل حمى ور تتسكسر . وقضى الألم العنيف نتيجة التعذيب على آخر محاولات المقاومة وحين حدث لديه نفس الشيء والتسوت بنفس الطريقة اعترف اعترافا شاملا بجريمته وجريمة زملائه .

وعومل السبعة الآخرون بنفس الطريقة حتى يتبين القضاء ان كانت الاعترافات تتفق واعترافات حمى ور . ثم سئل الشهود الذين قبض عليهم في نفس الوقت بعد ان ضربوا . وسرعان ما أفرج عن غالبيتهم وبعد يوم أو يومين حمل اللصوص يصحبهم الوزير خم ام واس والساقى نس آمون عبر النهر الى الجبانة حيث اجبروا على ان يمثلوا أمام قضاتهم المنتظر الكامل للجريمة .

وهكذا ثبت الاتهام تماما وحكم عليهم بالاعدام . وسجل الاتهام والحكم بأمر القضاة كتابة وقدم الى فرعون لالتماس الموافقة على ذلك لأن السلطان على الحياة والموت كان له وحده . وفي الوقت نفسه سجن اللصوص في سجن معبد آمون في الكرنك . واستطاع أحدهم وهو النجار ستخ نخت الفرار ولكن سرعان ما قبض عليه وأعيد بعد بضعة أيام .

وأخيرا بعد ثلاثة أسابيع - لأن فرعون لم يكن في طيبة - أعاد الرسول الأمر الذى يحمل الخاتم الملكى وهكذا جاء يوم التنفيذ . وكان منظرا يشمأ ذلك لأن الجرائم العادية كانت عقوبتها فصل الرأس أو وسيلة أخرى مماثلة شريفة أما جريمة تهشيم الميت فأنها كانت تلاقى مصيرا أشد هولا لأن أولئك الذين سلبوا الآله الطيب سو بك أم سا أف أحد الأسلاف المقدسين لفرعون الحي وزوجه الملكة من أمهما في الخلود يجب أن يدفعوا ثمن آثمهم كاملا . كانت ساحة

(١) ترى أفرع الأسرى الأجانب في الحروب مقيدة في مثل هذه الأداة .

التنفيذ قطعة أرض واسعة خارج طيبة أقتيد اليها المجرمون الثمانية في حصر الظهيرة وهم مربوطون الى بعضهم البعض بالحبال وكان يصحبهم في رحلتهم هذه الأخيرة زوجاتهم واطفالهم الذين ملأوا الجو بعويلهم المحزن . ووضعت في ساحة التنفيذ ثمانية (خوازيق) خشبية رفيعة روعي في أطرافها أن تكون حادة بالغلة الدقة والى جانب كل خازوق ثقب غائر في الأرض وحيء أولا برئيس العصاة حصى ور ليتغذ فيه الحكم أولا . . وكان منظرا دفع الكثيرين الى أن يديروا وجوههم رعبا الى الناحية الأخرى . . أمسك بالفريسة أربعة رجال أشداء اثنان من ذراعيه وأخران من قدميه . كما كان هناك رجلان آخران لم يعيرا صراخه التفاتا أدخلوا الحد الرفيع من الخازوق في جسمه عنوة ثم وضع الخازوق في الحفرة وعليه حصى ور لا يستطيع حراكا . وعومل زملاؤه نفس المعاملة حتى تم وضع ثمانية خوازيق في الشمس المحرقة تحمل فوقها ثمانية مخلوقات بشرية . ولنسدل ستارا على هذه المرحلة من الموت البطيء لننتقل الى أشياء أخرى .

سارت الأمور من سييء الى أسوأ في « الجبانة العظمى الجلييلة للملايين الستين » وقد بذلت جهود كبيرة خلال حكم الملوك الكهنة للأسرة الحادية والعشرين لايقاف حملات سرقة المقابر ولكن يظهر أنها لم تكلل بنجاح كبير . وقد جهد الكهنة الأتقياء الدين ولوا عرش مصر في محاولة علاج انتهاك حرمة المقدسات . وحين كان يثبت أن قبرا ملكيا أمكن فتحه وسرقته وأتلفت جثة صاحبه كانوا يحاولون اصلاحها وإعادة ربطها ووضعها من جديد في تابوتها أو تجهيز تابوت جديد يثبت عليه بالحبر واقع الأمر . ثم تحصل المومياة ومعها ما بقي من أثائها الجنزى في سرية كبيرة الى مقبرة أخرى يكون اللصوص لم ينتبهوا اليها .

على هذه الصورة كان المصير المخزى لفراعنة الامبراطورية
العظام فقبورهم التي أنفقوا الكثير من الجهد والنفقات في
اعدادها دنست في عنف وقسوة بالغين وأجسادهم نقلت من
مخبأ الى مخبأ حتى تستنقذ من تدمير محتسوم * ثم وضعت
الموميات الملكية أخيراً في مقبرة : مقبرة أمنحتب الثاني
في وادي الملوك ومقبرة أخرى في الدير البحري وظلت
كذلك لا يزعيها أحد مدى ثلاثة آلاف سنة حتى كشف أمرها
في نهاية القرن الماضي ونقلت ثانية ولكن الى متحف بولاق
في هذه المرة حيث وضعت في خزانات عرضت فيها *

الفصل الثامن

كنوز الماضي

« إن الحديث عن قدماء المصريين وحياتهم وعاداتهم لا يكون كاملا الا ببعض الاشارة الى الأدوات الصغيرة التي كانوا يستعملونها ويصنعونها في كميات كبيرة والتي تكشف لنا عن أفكارهم ومقدرتهم »

وتقدم اليوم الحفائر المنظمة فيضا ضخما من هذه الأشياء التي متاحف العالم ، ولعله من الخير أن نعرف الطريقة التي تقوم بها مثل هذه الحفائر .

إن الوسائل التي تتبع تختلف باختلاف طبيعة الموقع الذي يكشف عنه فقد يكون معبدا حجرياً لم تبق منه الا أحجار الأساس أو مقبرة صخرية يتطلب الأمر البحث عن مدخلها أو جبانة تضم مئات المقابر . ومهما يكن الموقع الذي يختار فإن الأبحاث يجب أن تجرى في نطاق علمي يحد إذا كان الهدف الوصول الى أكبر قدر من المعلومات . ولقد ولت الأيام التي كانت البعثات من المكتشفين تحتفظ بالجزء وحده مما تعثر عليه وتلقى جانبا ما تظنه غير ذي أهمية . . . والمتعة الخيالية لا تزال ذات نصيب في أعمال الحفائر ولكن الحفار الذي قرأ في الروايات عن هذا العمل ويتوقع اليوم أن تكون أعمال الحفائر أجازة استجمام طسويلة سرعان ما يوقظه السواقع في عنف ذلك لأن الأمر يتطلب عملا شاقا

ويجوز ترتيبا لا تغيير فيه كما يحتاج الى نشاط وتركيز مطلق بالنسبة لأصغر التفاصيل . أما الجزاء فواف ان استطاع بعد ذلك أن يضيف لمسات خفيفة الى لوحة الحضارة المصرية .

ولنقدم مثلا لذلك الكشف عن تل العمارنة وهو الذى أدى الى كشف المدينة المصرية الوحيدة الكاملة المحفوظة حتى اليوم ذلك لأنه من المعروف أن المنازل المصرية تنقرض بسبب أن المصريين كانوا يبنون بيوتهم - وكل المباني الأخرى غير الدينية - من اللبن وحين كان ينهار أحد هذه البيوت كانت تسوى أنقاضه ويبنى فوقها بيت آخر . وهكذا تجد مدينة تبني على أنقاض أخرى بدلا من أن تظل قائمة مدى العصور كالمعابد الحجرية . ولكن الأمر لم يكن كذلك فى تل العمارنة لأن ظروفًا خاصة دعت الى قيام مدينة كاملة هناك كانت عاصمة مصر وظلت دون أن تمس حتى يومنا هذا .

ولقد تحدثت فى الموجز الذى قدمته فى بداية هذا الكتاب عن تاريخ مصر عن فرعون هو امنحتب الرابع المعروف باسم اخناتون وهو الذى جهد فى ادخال عبادة قرص الشمس والاعتراف به كاله واحد فى الوقت الذى ألغى فيه عبادة بقية المعبودات المصرية واستقر رأيه على هجر مدينة طيبة عاصمة الاله آمون رع وعاصمة مصر ليقطع كل علاقة بالماضى ويقيم عاصمة جديدة فى مكان آخر . وكان الموقع الذى اختاره ناحية يعرفها الأوربيون اليوم باسم تل العمارنة وهى تقع على بعد ٢٥٠ ميلا الى شمال طيبة حيث تتراجع المرتفعات فى الضفة الشرقية للنهر تاركة خليجا من الصحراء يحدده شريط من الأراضى الزراعية الخضراء (لوحة ٣٤ شكل ١) وقد بنى فى هذه الناحية مدينته المسماة « أفق القرص » وأحيى احتفالات ضخمة تمجيدا لالهة فى الوقت الذى كانت تهدد الأخطار الامبراطورية المصرية فى آسيا . وبعد موت اخناتون هجر خلفاؤه الدين الجديد وعادوا الى

طيبة اما لانهم لم يكونوا قادرين على متابعة الصراع أو لانهم لم يكونوا راغبين فى اطالة امده وبعد بضع سنوات هجرت « أفق القرص » تماما وتركت البيوت والقصور والمعابد والمباني العامة الأخرى لتغطيها رمال الصحراء تدريجيا .

« هذه المدينة المخربة هي التي زودتنا بأكبر قسط من المعلومات عن المنشآت المدنية للمصريين القدماء » والوصف الذي قدمناه لبیت « نسامون » فى الفصل الثانى يعتمد اعتمادا كليا على كشف تل العمارنة ورغم أنه يحتل بضع صفحات فى روايته إلا أنه يتطلب صبرا طويلا لكشف حقيقته « فى موسم ١٨٩١ - ١٨٩٢ قام السير فلندرز پيتري باول حفائر علمية منظمة فى تل العمارنة . وقبل الحرب العالمية الأولى قامت بعثة ألمانية بالحفر فى ناحية أخرى من المدينة وعثرت - من بين ما عثرت عليه - على مصنع متال يحوى مجموعة نصفية للملكة نضرتيتى والاسرة المالكة محفوظة الآن فى متحف برلين واستطاع الانجليز بعد الحرب ان يحصلوا على امتياز الحفر » وتابعت جمعية استكشاف مصر اعمالها هناك منذ عام ١٩١٩ عاما بعد عام وظلت تكشف على التوالي عن عاصمة الملك المهرطق عن معلومات أخذت تتزايد فيما يتصل بالحياة اليومية عند قدماء المصريين (لوحة ٣٤ شكل ٢) .

وجدران المنازل المخربة فى تل العمارنة ذات ارتفاع ملحوظ (لوحة ٣٥ شكل ١) وحيث لا يكون الأمر كذلك لا يصعب تكوين فكرة عن تخطيط البيوت . وعلى ذلك فإن البعثة العلمية يجب أن تضم مهندسا معماريا يسجل تخطيط كل مبنى تخطيطيا مفصلا أثناء كشفه ويدخله فى مجموعة تخطيطات النواحي المختلفة للمدينة . ما عملية الحفر نفسها فتتم بواسطة عمال مدرين من الفلاحين يضاف اليهم متطوعون من القرى المجاورة ولكن يجب أن يكون أحد الأعضاء الأوربيين للبعثة أو بعضهم موجودا ليشراف على سير

الأمور بطاقات وليسجل في مذكراته ما يسترعى التفاته .
وفي المساء تعمل بطاقات للكتالوج لكل ما عشر عليه خلال
اليوم وتمطى أرقاما مسلسلة . كما يدرس كل الضغار الذى
يعشر عليه بالمنازل وكذا حبات الخرز والمعلقات وتقارن بما
هو معروف منها فان عشر على طراز جديد ترسم بمقياس
هندسى . هذا الى أن الكتابات والنقوش يجب أن يتم نسخها
ودراستها بواسطة عالم لغوى كفاء . وقد يعشر على قطع لها
أهميتها فى تل العمارة وتكون هشة ، ولذا فان معالجتها
تتطلب حذرا زائدا خوفا عليها من أن تتهشم نهائيا . مثال
ذلك أن الدليل الذى مكن الأثريين واستطاعوا به أن يعيدوا
زخرفة سقف بيت مصرى تناولناه بالوصف فى صفحة ٥٧
وما يليها كان كما يأتى : لما تجول البيت الى انقراض أنهار
من سقفه وسقطت الكتل الخشبية الى أرض الغرف . وتحلل
الخشب بمرور الوقت ولكن الملاط الطينى الملون ظل على
حاله وغطته الرمال ولذلك فانه عند متابعة الحفر يجب بذل
أقصى العناية والانتباه حتى يحافظ على آثار اللون على
الأرضية وحين يعشر عليها يجب أن ينبه العمال المتمرسون الى
تنظيفها ورفع الرمال بفرشاة . فان روعيت هذه الدقة فان
قطع الملاط الساقطة من السقف والتي كانت تغطى الكتل
الخشبية تتكشف محتفظة بزخارفها ذات الألوان الوضاعة .
واللوحة (٣٥ شكل ١) تبين الغرفة الرئيسية الوسطى للبيت
وهى الغرفة التى عشر فيها على هذه القطع كما يبين (شكل ٢)
الأرض من زاوية أقرب فى مكانها .

أما حين يعشر على حبات خرز فانه يجب استدعاء الأثرى
قورا لأن ما عشر عليه قد يكون عقدا أو قلادة على خيطها
وهو قد يتمكن عند ازالته للرمال فى عناية أن يجد الخرز
لا يزال باقيا بترتيبه (بنظامه) الأصلى . وهو أن يسجل
ذلك فى كراسته فانه يستطيع أن يعيد نظم الخرز تماما
على الصورة التى كان عليها فى العصور القديمة . والقلادة
المرسومة فى (لوحة ١٤ شكل ٢) أعيد نظمها بهذه الكيفية .

ولعل الفخار هو أهم ما يعنى به الحفار من بين أدوات
الأقدمين فالألوانى والقصور التى كانت تصنع فى أعداد
هائلة يعثر عليها فى آثار الحضارات القديمة عند الكشف
عنها . والآثرى الذى يدرك تمام الإدراك مختلف أنواع
الفخار الذى استعمل فى العصور التاريخية المختلفة يستطيع
أن يقدر للتو تاريخ الموقع الذى يكشف عنه ففى مكان مثل
العمارنة وهى مدينة كان يسكنها جيل ضخم من الناس عثر
على عدد كبير من الألوانى والقطع الفخارية فى المنازل وكان
فحصها وترتيبها أمرا شاقا كما يستطيع السكاتب أن يقرر
ذلك من وراء تجربته الشخصية إذ مارسه فى موسم ١٩٣٩
والفخار المصرى على أية حال مبعث لذة خاصة وهو يبلغ قمة
فنية ملحوظة فى أنواعه الجيدة .

ولم تكن عجلة الفخار قد تم اختراعها فى عصر ما قبل
الأسرات (قبل ٣٣٠٠ ق.م -) ولكن الفخارين استطاعوا
رغم ذلك أن ينتجوا إنتاجا طيبا . ولعل خير القطع وأجملها
من ذلك العصر هى الألوانى اللامعة السوداء أو الحمراء أو
الحمراء ذات الشففة السوداء . كما أن الأدوات البترقالية
المزينة بالرسوم الحمراء للرجال والحيوانات والقوارب التى
تبحر فى النيل أو يستخدم فيها عدد من المجساديف يمكن
اعتبارها هامة وإن لم تبلغ من الجمال مرتبة الأنواع سالفه
الذكر . وأما الألوانى الحجرية لعصر ما قبل الأسرات فهى
مدهشة حقا وقد كانت تصنع باستخدام المشاقيب الخشبية
أو الحجرية التى تغذى بأوكسيد الألومنيوم البلورى الشديد
الصلاية أو مسحوق الصنفرة وبلغت هذه الصناعة ذروتها
فى أثناء عثر عليه فى هيراقونبوليس مصنع من الستيايت
الأسود والأبيض وارتفاعه ١٦ بوصة وقطره قدمان ولكنه
بلغ من الرقة حداً ليتمكن حمله بأصبع واحدة فى حين أن
كتلة بنفس الحجم قد تزن أربعمئة رطل .

وقد استعملت عجلة الفخار فى عهد الأسرة الرابعة
وقد بدأت صناعة الفخار تنحط منذ إدخالها على حين بدأت

صناعة الألوانى الحجرية تزداد جمالا واتقاناً • ولعله ليس هناك سوى أشياء قليلة تزيد جمالا عن ألوانى المرمر التى يرجع عهدا الى الدولة القديمة وخاصة اذا سلطت عليها أشعة الشمس • وأن نحن استثنينا الألوانى الفخارية الحمراء الداكنة الخاصة بالفترة ما بين الأسرتين الرابعة والسادسة فأنت تكاد تقرر أن جاذبيتها لا تتكرر قبل الدولة الحديثة حين شاع استعمال طراز بزخارف ملونة • فالأكواب التى تميل الى الحمراء والألوانى التى ترجع الى عهد الأسرة الثامنة عشرة والمزينة بصفوف من أوراق اللوتس الزرقاء والوضاء وكذا القدور التى اتخذت هيئة الحيوان أو رعوس الالهة حاثور تليق جميعا بالأهداف التى صنعت من أجلها فى استخدامها فى الولائم والمناسبات الخاصة بالاحتفالات • ولكن الفخار عاد الى مرتبة الانحطاط مرة أخرى فى آخريات الدولة الحديثة وبدأ يتحول الى خشونة ملموسة واضحة •

ولعل ما أظهر فيه المصريون براعة واضحة هو فن التزجيج الذى قد يعوض عدم نجاحهم فيما يتصل بالفخار فى العصور التاريخية • فقد كشفوا قبل الأسرة الأولى طريقة تزجيج الأحجار ثم نجحوا فى التقدم بهذه العملية حتى أصبحت لهم شهرة خاصة فى تزجيج المركبات التى تعرفها تحت اسم القاشانى والمكونة من مادة رملية صوانية تربط جزئياتها مادة صمغية من نوع ما وتغطى بطبقة زجاجية لامعة ملونة • وأجمل ألوان التزجيج التى وصلتنا هو الأزرق وهذا اللون بالإضافة الى اللون الأخضر هما أكثر الألوان شيوعا • وقد يرع المصريون فى هذا الفن حتى لنراهم يخلفون غرفة جدرانها مغطاة بألواح القاشانى الأزرق كما هى الحال فى هرم ومقبرة الملك زوسر فى سقارة ويضعون خرزا أو معلقات من نفس المادة فى صورة فاكهة أو زهور مثل ما عثر عليه فى تل العمارنة أو جعلان مزججة جيدة الصنع منحوتة من حجر السيتاتيت •

وأن نحن استثنينا حبات الخرز فأننا نجد أن أكثر ما وصلنا من الأدوات المزرجة هو الجعلان وتماثيل الأوشابتي .
والجعل هو نموذج للخنفساء المقدسة المسماة Scarabaeus Sacer
ويصنع من الحجر أو مركب معين يزجج بمسك ذلك .
وقد استعمل كختم في بدء الدولة الوسطى (حسبوا إلى ٢٠٠٠ ق م) حين حل محل الأختام الأزرار التي شاع استعمالها في النصف الأخير من الدولة القديمة وخلال عصر الفترة الأولى ومحل الأختام الاسطوانية التي كانت تصنع من الحجر أو مركب ينقش عليه الرسم المطلوب وتلف فوق العلمى قبل أن يجف فيختتم ما يراد ختمه بها والتي شاعت خلال المرحلة الأولى من التاريخ المصرى وظل استعمالها سائدا كذلك فى بابل وآشور وإن اختفت من مصر عند قيام الأسرة الثانية عشرة . أما الجعل فقد أخذ استعماله ينتشر من الأسرة الثانية عشرة حتى الأسرة الثلاثين وقلما يعود اليوم أحد زوار مصر منها دون أن يحمل معه أحدها تذكارا لزيارته .

وقد بينا من قبل فى أن الخنفساء أو الجعل كانت تقدر كرمز لاله الشمس ومن أجل هذا فإنها كانت تميمية لها قوتها وكان استعمالها فى مبدأ الأمر كختم مساوية لهذه الأهمية ، ذلك لأن كبار الموظفين فى عهد الدولة الوسطى نقشوا على قواعدها أسماءهم وألقابهم ونقوشا أخرى لطيفة وبمرور الزمن أصبحت دلالتها كتميمية لها أكبر قيمة فى نظر الناس فبدءوا يعلقونها لتكون مجلبة للحظ الحسن أو للحماية ضد الأرواح الشريرة ونقشت على قاعدتها صور الالهة الرئيسية أو صيغ يفترض فيها جلب حسن الطالع الى حاملها كما أن مجموعة منها كانت تكون جزءا من المعونات الجنزية لكل مصرى متوسط الحال فى العصر المتأخر .
والجعلان تلبس ضمن عقود أو توضع فى خواتم تلبس فى الأصابع . (ولوحة ٢٦ شكل ١) تقدم مثالا طيبا لذلك . فالجعل موضوع فى خاتم من الذهب ويحمل اسم والقباب « بتساح

موسى الكاهن (السم) ورئيس الصنائع الفنانين (١) « .
وكان فى اهتمام السياح بالجمالان اغراء بالغش والتدليس
حتى لنرى المئات من القطع المزورة تنتجها مصر فى كل عام .
وعلى السائح الذى ليست له دراية تامة بالجمالان ان يرفض
كل ما يقدمه له التراجمة من العريان ويستحسن لو استشار
أحد الاخصائيين قبل الشراء . ومن السهل الكشف عن
التزوير بفحص طريقة القطع أو التزجيح ولكن بعض القطع
يجاد تزويرها حتى ليخدع بها الخبراء أنفسهم والعدد
الضخم من الجمالان الزرقاء التى تباع فى الأقصر وكذا
الجمالان برءوس أبى الهول هى بغير استثناء مزيفة (وقد
عرض على الكاتب يوما اثنان منها بما يعادل الخمسة
قروش)

أما تماثيل الأوشاشى فقد تناولناها بالوصف من
قبل ولعل من الطريف أن نتابع تاريخها فى شئ من
التفصيل . فأسلاف هذه التماثيل كانت من النماذج الخشبية
التي توضع فى المقابر من الأسرة السادسة حتى نهاية الدولة
الوسطى . وتمثل الخدم أثناء عملهم فى خدمة مولاهم مثل
الخيازين وصانعى الجعة والجزارين وهم يقطعون ثورا ،
والنساء وهن ينسجن القماش والقوارب يجدف فيها
البحارة . ولهذه التماثيل أذرع متصلة وهى جذابة طريفة ،
وهناك مجموعة طيبة منها معروضة فى الغرفة المصرية
الرابعة من المتحف البريطانى ، أما الهدف من استعمالها
فكان امكان حلولها بطريقة سحرية محل الخدم الذين كانوا
يقومون على خدمة الميت خلال حياته ويشرفون فى العالم
الآخر على احتياجاته ، أما دلالة تماثيل الأوشاشى التى شاعت
أولا خلال الأسرة الثامنة عشرة فتختلف عن ذلك كثيرا .
ذلك لأن المصريين كانوا يعتقدون أن حياة الأبرار فى العالم
الآخر ستكون صورة سماوية من حياتهم على الأرض ، وهكذا

(١) أى كبير كهنة بناح

تصوروا سماء تشبه أرض مصر ، ولما كانت الزراعة أساس الحياة في مصر ، فإن الأمر يكون كذلك في العالم الآخر . وهذه الفكرة تبينها اللوحات الممثلة لمملكة اوزيريس في كتاب الموتى وفيها ترى بلادا تتخللها القنوات كما هي الحال في مصر ، كما نرى حقول القمح والشمير التي يحصدونها الموتى ، وكل هذا لا يأسى به بالنسبة للفلاحين كما تصور المصريون ، ولكن الأمر يجب أن يختلف بالنسبة للنبيسلاء والمعلماء حين يكلفهم الآلهة بالعمل في الحقول والسخرة . . أن مجرد التفكير في ذلك الأمر كان مدعاة للثقوز لدى جمهرة المتعلمين من المصريين ، كما نستطيع أن ندرك ذلك من النص الذي قدمته على لسان سويك حوثب من قبل ، ولذا اخترعت تماثيل الأوباشتي لتكون ضمانا ضد هذا الاحتمال الفظيع .

وليس من المؤكد معرفة معنى كلمة أوشابتي وقد قيل فيها انها قد تكون مشتقة من الفعل « أوشب » بمعنى « أجاب » ومن ثم تعني « المجيب » أي « ذلك الذي يستجيب لدعوة الميت » ، والفصل السادس من كتاب الموتى الذي طالما نراه محفورا أو منقوشا على صدر التماثيل والذي قدمت ترجمة له من قبل يبين في وضوح مهام هذه التماثيل ، فهي تعمل محل صاحبها حين يصدر له أمر اوزيريس أو أوامر الآلهة الأخرى بالعمل في الفلاحة من أي نوع . وعلى ذلك فإن الأوشابتي يمثل الميت نفسه في هيئة المومياء (لوحة ٢٨) ويحمل أدوات الحفر وملة . أما اذا كان المتوفي امرأة فإنه يكون على شكل الأنثى ، وأما ان كان ينحصر فرعون فإنه يوضع على رأسه لباس الرأس والصل علامة الملكية .

وتماثيل الأوشابتي للأسرة الثامنة عشرة والنماذج الجيدة للأسرة التاسعة عشرة كانت تصنع من الخشب أو الحجر الجيد النحت . ومن الأمثلة المعروفة أوشابتي كاهنة آمون الموسيقية المصنوع من الحجر الجيري وكذلك التماثيل الخشبية للموظف حوى (الشكلان في لوحة ٢٨) وسرعان .

ما تفشت صناعة الأوشابتي من القاشاني ونستطيع أن نلمس جمالها ودقتها في النماذج الزرقاء المزججة للملك سيتي الأول وخاصة رقم ٢٢٨١٨ في المتحف البريطاني * وفي خلال مدة حكم أسرة الكهنة (الأسرة الحادية والعشرون) كانت هذه التماثيل رديئة الصنع وان غطيت بطبقة عجيبية مزججة لها في نفس اللوحة السابقة صنعا للملك «باى نجم» الثاني أحدهما من الطراز المعتاد يرى فيه الملك في هيئة المومياء ، والآخر من طراز آخر يمثله في صورة الأحياء مزودا بالسوط حتى يشرف على نظام السخرة * وهذا الطراز الأخير شائع جدا في هذه الفترة * وقد صنعت في الأسرة السادسة والعشرين أعداد كبيرة من تماثيل الأوشابتي من القاشاني وهي من طراز يختلف تماما عن الطراز الشائع في المصور الأخرى ، إذ هي مزودة بقاعدة في أسفل الناحية الخلفية ، أما التزجيج فلوونه أخضر تفاحي وخير أمثلته يعد انتاجا فنيا جدا كما في تمثال « باخاعاس » المصور في نفس اللوحة * .

ورغم ان التزجيج عرف منذ عصر ما قبل التاريخ فان استعمال الزجاج لم يصبح امرا شائعا حتى الاسرة الثامنة عشرة حين نجد أواني جميلة من الزجاج المتعدد الألوان (كالمصورة في لوحة ١٦ شكل ١) ولما كان فن نفخ الزجاج لم يعرف إلا في عصور الرومان فان هذه الأواني كانت تصنع بطريقة شاقة فكان الزجاج يسحب أولا على هيئة عصي من ألوان مختلفة (عثرنا على أمثلة منها في موقع مصنع زجاج قديم في تل العمارنة) ثم يشكل قالب (حشو) من مادة رملية متماسكة وتسخن بعد ذلك العصي الزجاجية ثم تلف حوله حتى تمتزج معا * .

ويمكن الحصول على النموذج المطلوب بسحب الأشرطة مختلفة الألوان وهي في حالة الانصهار بواسطة أداة معدنية تحرك الى أعلى وأسفل * . وحين يبرد الزجاج يمكن تكسير القالب الداخلي (الحشو) وهكذا ينتهي صنع الاناء * وحيات

الخرز الزجاجية المتعددة الألوان من هذا العصر جذابة جدا كذلك وهى تشبه حبات الخرز الزجاجية الفينيسية فى الوقت الحاضر .

وبلغت مهارة المصريين حدا فائقا فى قطع الأحجار شبه الكريمة سواء اكانت قطعاً منفصلة أم بقصد استخدامها فى التطعيم . أما الأحجار الكريمة مثل الماس أو اللؤلؤ فلم يعرفها المصريون وكان أكثر الأحجار شيوعاً واستعمالاً هى الأميثيست والعقيق واليشب والزمرد واللازورد والفيروز والسماقى (بورفيرى) والزجاج الصخرى (الأوبسديان) وغيرها .

وأجمل حبات العقيق ترجع الى الدولة القديمة ، اذ للحجر مظهر سحائبي . وفى الدولة الوسطى يسترعى نظرنا جمال العقود المصنوعة من حبات الأميثيست ومن أجملها ما تحمل رقم ٣٤٩٦٧ بالمتحف البريطانى المصنوعة من حبات مستديرة من الأميثيست والذهب على التوالي ومن عين حوريس من الذهب تتوسط العقد وبعض صور المقابر تمثل صانعى الحلى أثناء قيامهم بعملهم فنجد من بينهم أحساناً من يعملون فى ثقب أو صقل حبات الخرز وكان المثقب يستعمل فى الحالة الأولى .

ومن أهم ما كشف عنه السير فلندرز بترى وپرنثون حلى مصرية قديمة ترجع الى الأسرة الثانية عشرة عثر عليها فى مقبرة الأميرة « سات حاتحور عنت » بالقرب من هرم سنوسرت الثانى فى اللاهون ومن بينها تاج ملكى وصدرتان رائعتان بلغت احدهما القمة فى صناعة التطعيم بالأحجار فى مصر القديمة ويمثل الرسم المبين عليها الخانة الملكية للملك سنوسرت الثانى « خع خبر رع » فوق رمز ملايين السنين ثم هناك رجل راكع يمسك بسعف نخل عليه علامات حز، وعلى جانبيه الخانة الملكية صل تدلى منه علامة عنخ أو رمز الحياة وخلف هذه المجموعة صقرا حوريس بحجم القطعة كلها يضعان قسرس الشمس فوق الرأس . ومعنى هذا الرسم إذن أمنية يقصد

بها أن يمنح حوريس إلى سنوسرت عمراً يمتد إلى الأبد .
وأما قاعدة الصدرية فمن الذهب ثبتت إليه فروع ذهبية
رفيعة لتكون الأقسام اللازمة لتثبيت التطعيم المكسور من
٣٧- قطعة منها ١٩٥ من الفيروز و ١٤٠ من اللازورد و ٣٥
من العقيق واثنان من العقيق الأحمر . وليس هذا هو كل
شيء بل أن القاعدة حفرت بتفصيلات كاملة بحيث يستطيع
رؤية القطعة في جمالها في الناحيتين وليس يستطيع صانع
حلي قديم أو محدث (١) أن يقوم بصنع مثيل لها في حالتها
الراهنة وهي معلقة في قلادة من حبات الأميثيست الكروية
أما من ناحية الروعة الخالصة فإن محتويات مقبرة توت
عنخ امون التي أذهلت العالم الحديث في الستين الأخيرة
تكاد تكون منفردة منقطعة النظير ورغم أن الحلي من تصميم
أثقل من نظيره في الدولة الوسطى ولا يتفق مع الذوق المبسط
للعصر الحديث فإن المجموعة كلها رمز للمهارة المصرية في
هذه الناحية وأهم ما بها التابوت الداخلي المصنوع من الذهب
في سمك يتراوح ما بين ٢/٤ و ٣/٤ ملليمتر وقد صنع
بحيث يمثل الملك في صورة أوزيريس وعلى رأسه غطاء
الرأس الملكي من القماش المخطط الذي يبرز منه رمز الملك:
العقاب والصل . وفي يديه المعقودتين على صدره يمسك
بعضا الراعي والسوط رمزي السلطان الملكي . والتابوت
مغطى بنقش ريشي ونقش على الجزء السفلي ايزيس ونفتيس
مجنحتين . ولعل أعجب ما فيه هو الزخرفة المضافة بالمينا
ذات الفواصل وهي تمثل الالهتين « نخبت وأوتو » في هيئة
عقابين يلفسان الملك بأجنحتهما المنشورة وهما مطعمتان
بالأحجار شبه الكريمة . والتابوت قطعة من الفن الرائع
الذي يمثل دقة الصناعة عند الصائغ وصانع الحلي وهو أش
يجمع بين طياته خلاصة لكل مجد مصر القديمة (٢) .

(١) يمكن مشاهدة صورة ملونه لها بوصفها الكامل من غيرها من الحلي في كتاب

Labun L. The Treasure by Guy Brunton.

(٢) في لوحة ٣ زوج من الدمالج المطعمة برسو وتناولناها بالوصف في صفحة ٣٤ .

الفصل التاسع

روح مصر

عرضت في المقدمة ملخصاً قصيراً لتاريخ مصر يستطيع القارى أن يعود اليه من وقت لآخر حين يطالع أجزاء هذا الكتاب ، وأنا لم أحاول في الفصل المذكور أن أعرض أكثر من ملخص عاى لأهم الأحداث التاريخية . وقد حاولنا بعدئذ أن نتعلم شيئاً عن الحياة في مصر القديمة ، وأن نرى مجد الفراعنة وعادات رعائهم ، وأن نفهم عبادة الآلهة والاستعدادات للحياة فيما وراء المقبرة . وفي هذا الفصل الأخير أود أن أضع أمام القارى فكرة عامة عن الملكية والدولة خلال الحقب الثلاث العظيمة من الحضارة المصرية .

منذ أكثر من قرن مضى كان ماضى مصر كتاباً مغلقاً . ولم يكن يستطيع أحد أن يقرأ كلمة من النقوش الموجودة على الآثار المصرية ، ولم تكن الحفائر قد بدأت بعد . بل كان كل ما نعرفه عن التاريخ المصرى والدين والمعادات « نتيجة ما كتبه الأقدمون من الكتاب أمثال هيرودوت وديودور وسترايون ممن زاروا مصر في فترة انحلالها ولم يروا سوى نهاية حضارتها ، بل وأكثر من ذلك لم يكن لديهم من المعدات ما يكفى للقيام بعملهم ، إذ كانوا يجهلون قراءة الوثائق القديمة للبلاد فاعتمدوا على أحاديث تبادلوها مع المواطنين . وقد داروا في أنحاء البلاد كسياح وسجلوا ما رأوا وما

سمعوا ، ومن هنا كانت المعلومات التي توصلوا الي جمعها - رغم طرافتها وأهميتها الكبرى بالنسبة لنا - لا تستطيع أن تجعلهم يكونون صورة حقيقية عن مصر القديمة فقد كان المصريون متلا بالنسبة لهم «أكثر الناس تدينا» إذ أن المعابد الضخمة وجماهير الكهنة المشغولين دائما في الأعمال المقدسة والعقيدة التي سادت عن الحياة في العالم الآخر والاستعدادات الضخمة للمقبرة . . كل هذه الأشياء دفعت هؤلاء الكتاب الى أن يعتقدوا أن المصريين قوم فيهم كآبة ، لأن أفكارهم تتركز في أسرار الوجود العميقة غير مكترئين بالشئون الدنيوية .

وقد ظلت هذه الفكرة سائدة خلال العصر المسيحي ، إذ ملأت أسرار مصر عقول الناس بالرهبة والعجب ، وظلت هي سرا خافيا بالنسبة لهم . . . ولكن بعد أبحاث شافاة قام بها علماء مختلفون ودراسات قام بها الشاب الانجليزى توماس يونج تتصل باسم بطليموس في الكتابة الهيروغليفية من نقوش حجر رشيد تبعه ايضاح كامل بواسطة شامبليون في كتابه المشهور *Lettre M. Decier* الذى نشر عام ١٨٢٢ مبينا فيه طريقة ومشكلة الكتابة الهيروغليفية ، وهو الأمر الذى كان يظن دهرًا طويلا أنه لا يستطيع الوصول اليه أمكن نهائيا حل المشكلة . ومنذ ذلك اليوم لم يعد الأمر سوى مسألة زمن تترجم فيه المستندات وتدرس حتى يستطيع العالم أن يحصل على بيانات تساعد على دراسة مصر . وقد تبع معرفة الهيروغليفية القيام بحفائر منتظمة ، ومنذ ذلك الوقت حتى اليوم ازداد ثراء متاحف العالم بالقطع المصرية ذات الأهمية الأثرية والفنية . وتعرض لنا اليوم مادة ضخمة نستطيع عن طريقها - أن تذرعنا بالصبر - أن نصل الى فهم واضح للماضى .

« وأول معالم التاريخ المصرى هي مجموعة الآثار التي خلفتها الأسرة الرابعة ، وهي أهرام الجيزة وأبو الهول مع ما يحيط بها من مقابر . وكان يظن منذ بضع سنوات أن تطور الحضارة من الأسرة الثالثة الى الأسرة الرابعة تطوّر

مفاجيء سريع ، ولكن الكشف سوف الحديشة للمباني المحيطة
بهرم زوسر في سقارة أثبتت أن الفن والعمارة في عهد
الأسرة الثالثة قد وصلا الى قمة عالية ، ورغم ذلك فإن آثار
الجيزة لا تزال تحدد الذروة التي استطاعت الحضارة أن
تصل اليها في تلك الفترة البعيدة والتي بدأ الاضمحلال
في أعقابها .

وترتفع أهرام خوفو وخع أف رع ومنكاورع بقممها
الى السماء فوق صخور الهضبة على الضفة الغربية للنيل عند
حافة الصحراء ، وأكبرها هرم خوفو الذي كان المصريون
يسمونه : « أخت خوفو » أي أفق خوفو ، وهو أعجبها بناء .
وبالقرب منه هرم خع أف رع المسمى « ور خع أف رع ، أي
خع أف رع عظيم وهو يظهر للوهلة الأولى كأنما هو أكثر
ارتفاعا من سابقه ، لأن المستوى الذي قام عليه أعلى من
مستوى هرم خوفو . أما الهرم الثالث المسمى « كاورع
مقدس » ، فهو أصغر من سابقه ، وكان يوجد أمام الوجه
الشرقي لكل هرم في العصور القديمة معبد يقوم فيه كهنة
يعنون بأحياء طلقوس الخدمة التي تتضمن حمل الطعام
والشراب والقوى السحرية الى الفرعون الذي يرقد في أعماق
هرمه . ومن كل معبد يهبط طريق الى مبنى تصل اليه القوارب
في الفيضان ، وأكثر هذه المباني حفظا حتى اليوم الطريق
الخاص بهرم خع أف رع ومبنى الدخول في نهايته المعروف
عادة باسم « معبد أبي الهول » ، لأن أبا الهول يقسم الى
جانبه ، وهو أثر عجيب يعدل في طرافته الأهرام نفسها
وتحيط به الأسرار منذ آلاف السنين . وآيو الهول أسد
برأس ملك مصري ، وكان يفترض أنه يمثل فرعون . وكان
يمثل كذلك الاله حوريس في هيئة الأسد ، وقد اختلطت
الفكرتان . ويغلب على الظن أن أبا الهول بالجيزة نحت خلال
حكم الملك خع أف رع ، وقصد بوجهه أن يجيء صورة
تمثل ذلك الملك . وكانت الفكرة في ذلك - شأنها في هذا

شأن الأهرام - أن يكون بالغ الضخامة لدرجة أن شعبية من الصخر الطبيعي نحتت بحيث تمثل الشكل المطلوب .

وهكذا تظل أهرام الجيزة ، وهي أصلا إحدى عجائب العالم السبع ، أشد آثار الماضي تأثيرا في النفس ، إذ أن السائح لا يلبث أن تأسره هذه الأبنية الضخمة سواء شهدها في ضوء النهار الساطع أو جال حولها في الليل حين يسبح عليها القمر المكتمل بريقا فضيا أو تطلع نحوها من قمة تلال المقطم عند غروب الشمس حين تظهر قرمزية في بحر من الذهب .

وقد يرى بعض الناس في الأهرام رمزا للأناية جهد في إقامته الجماهير بمرق الجبين تمجيذا للملوك . . وقد ظل هذا الرأي سائدا لآلاف السنين منذ زار هيرودوت مصر خلال القرن الخامس قبل الميلاد ، كما لا يزال يعتنقه الكثيرون حتى اليوم . . ولكن الفكرة ليست عادلة تماما ، ذلك لأن الأهرام هي الثمرة المنطقية للعقيدة المصرية في الملك .

وقد ذكرت في مقدمة هذا الكتاب أنه خلال الفترة الأولى من الدولة القديمة كان النبلاء العظام يعيشون في البلاط ويحكم مقاطعاتهم مندوبون مفوضون يديرون شؤونها من قبل فرعون ، وبمرور الزمن ازداد النبلاء قوة واستطاعوا أن يسيطروا على سير الأمور في مقاطعاتهم المحلية مباشرة . ورغم أن سلطان فرعون ظل مطلقا من الناحية النظرية ، إلا أن كيانه كان يعتمد أكثر ما يعتمد على ولاء النبلاء الذين يكونون بلاطه ، وحين ازداد نفوذ النبلاء قام نظام إقطاعي كان من نتيجته أن أصبح لسيادة المقاطعات أثرهم على العرش . وفي خلال القسم الأول من الدولة القديمة استطاع الملوك أن يبلغوا من القوة حدا يمكنهم من الوقوف في وجه المؤثرات المضادة وتمثل أهرام الجيزة ذروة سلطان فرعون الشخصي .

وحول الأهرام ترى مقابر « مصاطب » النبلاء مرتبة
فى شوارع كمدينة للموتى . لقد كان شاغلوها يخدمون
فرعون فى حياته وهم الآن لا يزالون يمثلون بلاطه فيما
وراء القبر . وأود لو أن القارىء احتفظ فى ذهنه بدلالة
هذه المجموعة الممثلة فى الهرم القائم الشامخ مرتفعا ومن
حوله المقابر فهى صورة رمزية للدولة المصرية خلال تلك
الفترة الأولى العظمى من حضارتها . . . القبر الضخم لفرعون
ومقابر رجال بلاطه ، وتفرد الملك فى سيادته الخارقة
للطبيعة والبلاط يسنده ويدعم مركزه وإن كان يستطيع
فى أى وقت أن يكون مصدر تهديد وأن نحن أردنا أن نلقى
نظرة متفحصة نحو فراعنة الدولة القديمة فإن تمثال خع
أف رع المصنوع من الديوريت والموجود بالمتحف المصرى
يستطيع أن يقدم لنا الكثير . . . أنه يمثل الملك على عرشه
فى الصورة التقليدية ويده اليمنى على ركبته ولباس الرأس
الملكى من القماش فوق رأسه وقد نحت بأعلى ظهر العرش
صقر حوريس يحمى رأسه (الملك) بجناحيه . . . ولعل أكثر
ما يلفت النظر هو الوقار المطلق ، إذ أن التعبير الذى يقدمه
لنا هذا التمثال الحجرى ينبع عن سيادة واطمئنان ملكى
كامل . . . أننى أريد أنؤكد هذه الصفة « اطمئنان » ذلك
لأنه رغم أن التمثال يتحدث عن سلطان « خع أف رع » غير
المحدود فإن هذه القوة هنا تمثل فى هدوء مطلق « فجع أف
رع » ليس بشرا بل هو الهى مقدس يصحب الآلهة وهو غير
قابل للتحويل أو الفناء وهو حين يجلس هناك على عرشه فى
عظمة تظلمه أجنحة المعبود الحارس للملكية تظهر نظمرته
المهيبة لنا كأنما تخترق صحراء الجيزة الى مدينة الموتى
الخالدة .

ولكن ليس يكفى أن نقول أن المصريين قنعوا بالسماح
لسلسلة من الملوك أن يحكموهم ، ذلك لأن المعتقدات الدينية
الرئيسية كانت مرتبطة بالملك . وكان فرعون بوصفه ابن
آله الشمس وصورته الجسدية يعتبر أكبر الوسطاء أثرا بين

الناس والآلهة وهو الكاهن الأكبر بحكم مركزه وكان يقوم من الناحية النظرية بإداء كل الخدمات الدينية في كل المعابد وأن كان في واقع الأمر يترك لندوبيه من الكهنة المحليين القيام بهذه الأعمال . ومع ذلك فإن هناك احتفالات دينية هامة كثيرة كان من الضروري أن يقوم بها هو شخصيا وخاصة ما يتصل منها بالتقدم الزراعي في البلاد . وكانت حياة الملك مرتبطة ارتباطا وثيقا برعاياه ويزراعة المحصولات التي يعتمدون عليها في حياتهم . وكانت مصلحته هي مصلحة الدولة وبعد موته - حتى حين يخلفه فرعون آخر - كانت سلامة الملك الميت حيوية بالنسبة لرعاياه فكان يجب أن يحفظ جسده ويدفن حيث لا تمتد له يد مدنية تنتهك حرمة في هرمه الخالد ويقوم على خدمته هيئة كهنوت دائمة مخصصة لأحياء هذه الطقوس السرية التي يأملون أن تحصل روحه على الخلود كنتيجة لها . وكان تقدم البشر يرتكز على الملك الحي والملك الميت .

وبانهيار السلطة المركزية في نهاية الأسرة السادسة وظهور الفوضى على أثر ذلك تلاشت ثقافة الدولة القديمة . فحارب البارونات بعضهم البعض وحدثت على الأغلب غزوة آسيوية من نوع ما وانهارت مؤقتا الحضارة المصرية . فأهمل شأن الأهرام والمعابد الخاصة بعظماء الملوك الفايين وطرد كهنتها وخيم جو من الاضمحلال والخراب فوق آثار الدولة المنهارة . وليس من عجب أن تعكس آداب تلك الفترة نظرة التشاؤم وذلك حين أدرك الناس أن النظام الوطني للأمور لم يكن وطيذا في واقع الأمر وأن مصر كانت في حاجة ماسة إلى مخلص . . وحتى المعتقدات القديمة التي تتصل بالحياة بعد الموت تأثرت تأثرا واضحا ولم يعد المرء يحس ضمانا لروحه أو أمنا لنفسه بعد أن رأى القبور مخربة والشعائر الجنزية معطلة .

وترجع لهذه الفترة وثيقة من الأدب المصري سماها علماء الآثار « صراع بين المنتحر ونفسه » وهي تكشف لنا

عن خبيثة رجل قاسى الآلام حتى أفعمت نفسه وتاق الى التخلص من حياته ولكن روحه تغريه على العدول عن ذلك . والنص عسير الفهم ولكن اعتراض الروح ومحاولتها صرفه عن الانتحار يكاد يتركز فى أن صاحبها فقير وان طقوس الدفن والقرايين سوف يهمل أمرها لأنه . . حتى مقساير الملوك مهمة اليوم فتتقاول روحه « أولئك الذين شادوا مبانيهم بالجرائيت وصاغوا قاعة فى الهرم وتوصلوا الى أحسن ما يمكن الوصول اليه . . حين أصبح البناة آلهة (أى الملوك موتى) ها هى ذى موائد قرايينهم فارغة وهم كالمتعبين الذين يموتون على السدود بغير خلف . . جرفهم الطوفان وحرقتهم حرارة الشمس وأسماك ضفة النهر تتحدث اليهم (١) » وأنه لخير أن يطرح التفسير فى العالم الآخر جانبا وأن يستمتع بهذه الحياة .

وهناك موضوعات أخرى من نفس العصر تصف الارتباك الذى حل بالبلاذ « حين نال النساء العقم وليس هناك حمل . ولم يعد خنوم (٢) . يشكل الرجال بسبب ما آل اليه أمر البلاد « حين » ماتت الابتسامة على الشفافة وبرى الأسى فى الأرض كلها مصحوبا بالعويل « أه لو وجد « الريان » ليقود الأمور ويوجهها وجهتها السليمة « أين هو اليوم ؟ أهو نائم ؟ أنظر ! ان قوته لا تبين (٣) » .

وأخيرا جاء الخلاص بانتصار بيت انتف الذى كان يحكم اقليم أرمنت الى جنوب طيبة وتوحدت مصر مرة أخرى تحت قيادة الأسرة الحادية عشرة وبدأت الحقبة العظمى الثانية للحضارة المصرية وهى المعروفة بالدولة الوسطى .

وجابهت الأسرة الجديدة من الملوك صعوبات شتى من كل جانب لتقر سلطانا مركزيا قويا وهى نفس الصعوبات.

(١) ترجمة أرمان وبلاكان السابقة .

(٢) الاله الذى يشكل اجساد الناس على عجلة الفخار .

(٣) ترجمة أرمان وبلاكان السابقة .

التي لقيها أسلافهم في الدولة القديمة . . ألا وهي القوة
الخطرة للسلالة الإقطاعيين . ذلك لأنه في خلال فترة
الاضطراب التي أعقبت انهيار الدولة القديمة أصبح سلطان
هؤلاء النبلاء غير محدود وليس لنا أن نتصور أن سيادة
الحكام الجدد القادمين من الجنوب كان من الممكن أن تؤمن
أو تباشر دون احتكاك مستمر بالحكام المحليين المتعددين .
ورغم ذلك فإن الفراعنة أخذوا يكسرون من شوكتهم حتى
استطاع سنوسرت الثالث أخيراً في الأسرة الثانية عشرة أن
يقضي على نفوذهم .

« خلف آخر ملوك الأسرة الحادية عشرة رجل يدعى
أمنمحات هو مؤسس الأسرة الثانية عشرة التي وصلت
الحضارة المصرية للدولة الوسطى ذروتها في عهدها . وكان
عصرًا عظيمًا لتقدم الفن وربما كان أزهى عصور الأدب
عامة ويطلق علماء الآثار على لغة هذه الفترة « الكلاسيكية »
التي تعقد المقارنة بينها وبين اللغة المصرية القديمة والمتأخرة
وهما السابقة واللاحقة لها . وأن نحن استطعنا أن نبلور
في أذهاننا الأفكار التي يقدمها هذا العصر فلنفضل كما فعلنا
بالنسبة للدولة القديمة ولنطالع بعض التماثيل . . . ولعل
أروعها هنا وأكثرها إشعاعاً هي تماثيل الملوك أنفسهم . .
كان سنوسرت الثالث أشهر فراعين الأسرة الثانية عشرة وكذا
ابنه أمنمحات الثالث ولوحتا (٣٦ و ٣٧) من هذا الكتاب بهما
صورتان لتمثال لسنوسرت المحفوظ بالمتحف البريطاني
والرأس ربما كان لأمنمحات مأخوذة من مجموعة ماك جرجور
ويحسن القارئ صنعاً لو قام بدراستهما عن كثب وقارن
بينهما وبين تمثال خع اف رع » .

ما أبعد الفارق بين الاثنين ! إن المعبود الجليل العظيم
الذي يتنفس في أحجار تمثال « خع اف رع » نرى بدلاً منه في
صورة سنوسرت وأمنمحات طابع التجربة البشرية . هؤلاء
الفراعنة بشر . . . يدركون القوة التي تحت أيديهم وقد
عقدوا العزم على استغلالها إلى أبعد الحدود . . أن وجه

سنوسرت فيه وحشية وفيه عنف وفمه يوحى بالارادة الحديدية والعزم الذى لا ينثنى . . أن هنا جنديا عظيما اخضع النوبة حيث استمرت عبادته مدى عدة قرون كاله . ورجل الدولة الذى استطاع أخيرا أن يسحق النبلاء .

« أما صورة أمنمحات الثالث من ناحية أخرى المصنوعة من الأوبسيديان وهو أصلب المواد فتمثل وجهها أشد كآبة مليئا بالقوة يشير الى عقل مستنير ولكنه مع ذلك وجه رجل أدرك أن « الكل باطل » . أما عيناه الثقيلتان المليئتان بالاحتقار فترجع بنا الى سلفه أمنمحات الأول مؤسس الأسرة الذى تنسب اليه القطعة الأدبية المعروفة تحت اسم « تعاليم أمنمحات » والتي يظهر منها أنه بعد حياة كرسى لاقرار الأمن والتقدم فى مصر هاجم الملك ذات ليلة فى غرفة نومه جماعة من المتآمرين ضد العرش وفشلت المؤامرة وعول أمنمحات على اشراك ابنه سنوسرت الأول فى حكم البلاد ثم الانسحاب من الحياة السياسية » ووجه الى ابنه الحديث التالى الذى يقطر أسى ومرارة :

« أنت يا من صرت الهنا (أصبحت ملكا) أستمع الى ما سأقوله لك حتى تغدو ملكا على البلاد وحاكما على ضفتى النهر وحتى تصنع خيرا مما يؤمل فيك . احترس من أعوانك . . لا تقربهم لك ولا تبق منفردا . . لا تأمن بجانب أخيك ولا تعرف لنفسك صديقا ولا يكن لك مقربون . . أن ذلك لا جدوى منه (١) » .

« لا تعرف لنفسك صديقا » أفى الاستطاعة التعبير فى وضوح أكثر من ذلك عن القاعدة التى استنها أولئك الذين كانوا يسوسون الأمور اذ ذاك ؟ ألم تثبت صحة ذلك الرأى مرات لا تحصى خلال تاريخ البشرية ؟ لقد كاد اهمال أمنمحات فى العمل بها يودى به « لأن من طعم منى احتقرنى ومن مددت له يدي أثار المخاوف » ولم تكن تعنى شيئا

(١) هذه الفقرات وكذا الفقرات التالية من ترجمة أرمان وبلاكمان السابقة .

الحكومة القوية التي جهد في بنائها والتقدم الذي آمن به مصر كنتيجة لإدارته الحازمة « أن صـورى بين الأحياء وأنصبتى فى التقدّمات بين الرجال * * ومع ذلك تأمروا على » وحين أوى فرعون الى غرفة نومه ليلا هاجموه فجأة « حدث الشر الكرى حين لم تكن الى جانبى » .

ورغم أن المحاولة أخفقت الا أن أمنمحات آمن بأن حاكما شايأ قويا يجب أن يسيطر على الموقف ولذا فإنه تنازل عن سلطانه لابنة سنوسرت * * ولقد كان يحس خيبة الأمل فى عصره غيره من الناس الذين ليسوا بملوك ولكن أمنمحات أحس بها احساسا كاملا « لقد عملت فى البدء وستحكم انت فى النهاية » .

ولنرجع الى تماثيل الأسرة الثانية عشرة التى نستطيع بها أن نفهم أكثر من ذى قبل العصر الذى تمثله * أن مصر الآن دولة تربط أجزاءها أرادة قوية لرجل اله * أن الفكرة الخاصة بمعبود هادىء مستقر على رأس شئون البلاد لم تعد مقبولة ، ذلك لأن فرعون استطاع أن يحكم الدولة بعد صراع عنيف وتجارب مريرة وسيفعل ذلك حتى النهاية وكأنما يحدثنا تمثال الأوبسيدات لأمنمحات الثالث قائلا « أنا الملك وأنا اله * أطيفونى والا قضيت عليكم » .

« وبعد أن سقطت الدولة الوسطى وتحطمت وانتقلت سياسة الأمور فى مصر مدى فترة طويلة الى الغزاة الأجانب المعروفين بالهكسوس طرد هؤلاء أخيرا واستعاد السلطان والنظام القديم أمرار طيبة * * وقد جاءت بمولد الصراع ضد الهكسوس الساعة الكبرى فى التاريخ المصرى » .

لقد تناولت بالوصف فى المقدمة أشهر أحداث الأسرات الثامنة عشرة والتاسعة عشرة والعشرين التى قامت خلالها الامبراطورية الأولى والثانية ولدينا تفصيلات عن أحداث هذه الفترة أكثر مما لدينا عن غيرها فالوثائق المكتوبة كثيرة نسبيا ، والتماثيل وصور الملوك والملكات وعظماء الرجال

وافرة • أن فرعون الآن صاحب صولة لا في مصر وحدها بل في العالم الشرقي • أن جزية الشعوب تتدفق على خزائنه ، وملوك البلاد الأجنبية وأمرأؤها يقدمون له الولاء ويلتمسون رضاعه • أنه لم يعد يعنيه الكفاح في الداخل بل إخضاع الأقاليم خارج حدوده •

ولقد حدثت تغيرات ملموسة في الأدب والفن في ذلك العصر • • أما العقيدة في فرعون كمميسود عال كما يظهر نفسه في تمثال «خع أف رع» من الدولة القديمة ، فأمر لم يعد بالصورة التي نعرفها ، ولكن الملك كما يظهر للمصريين في الدولة الحديثة تراه أقرب لهذه العقيدة من أي واحد من الملوك الذين كانوا يحملون اسم امنمحات أو سنوسرت • ورغم أن مجال نشاطه كان أوسع من أسلافه في الدولة القديمة إلا أن الحياة التي كان يقضيها في الحملات الخارجية والخرافة عن الآلهة المظلمن تبدأ مرة أخرى تسيطر على النفوس ففرعون يكسب المعركة تلو المعركة ويخضع المدينة تلو المدينة ، والمحبوب من الآلهة الذين يمهّدون له السبيل يسير من مجد إلى مجد • • وحين تسوء الأمور أحيانا فإن الوهم يظل قائما • • والأمر يستوى لدينا بالنسبة للصورة المثالية لفرعون التي تقدمها لنا الآثار سواء قنع الملك منذ نهاية الأسرة الثامنة عشرة بامبراطورية آسيوية ليست سوى جزء من الامبراطورية السابقة أو تطلب الأمر حملات متصلة منذ منتصف الأسرة التاسعة عشرة لصد العدوان الخارجي عن مصر نفسها • ويتعاون الفن والأدب على أن يضيفي على الملك صفات تصوره كأنما هو نفس المعبود المظلمن القوي الذي لا يقهر ، أما الواقعية التي كنسنا نراها في الدولة الوسطى والتي لم تكن تتردد في تسليط ضوء فاحص على السياسة والدين فقد انقضى أمرها •

« وليس من شك أنه طرأ تغير كبير على مركز فرعون في الدولة الحديثة في مصر نفسها ، إذ اختفى النبلاء الثائرون في العصور الماضية وأشرف على إدارة الشؤون في

البلاد موظفون يمينهم الملك وأخذت الهسوة بين الفرعون ورعاياه تتسع اتساعا واضحا . كما أن الصسورة الالهية للدولة المصرية التي ظلمت دائما من الأمور المميزة في مصر أخذت تزداد وضوحا حتى أخذ فرعون يتحول شيئا فشيئا إلى أداة في يد كهنة آمون رع » .

ومن المؤكد كذلك أن هذه العقيدة في الملكية وصلت ذروتها في عهد رعمسيس الثاني وهو سيزوستريس اليونان الأسطوري . وقبلما نجد معبدا في مصر لا يحمل اسمه وفي كل ناحية نرى التماثيل الضخمة له تطل علينا . وقد اعتاد علماء الآثار المحدثون أن يسخروا من رعمسيس وإن يصوروه « كشخص اجوف » استنطاع عن طريق الإعلان عن نفسه أن يفرض شخصه وأعماله على تاريخ مصر بحرمان أسلافه العظام في الأسرة الثامنة عشرة . وكان شيوخ الرأي وتكراره في الخطاب والمقالات والمحاضرات مما أدى إلى احتقار الدارسين لمصر القديمة لرعمسيس وأعماله وائني أعتقد أن هذا الرأي ليس ظلما فحسب بل أراه باطلا كذلك وائني أدعو القارئ إلى الاستماع في أناة إلى وجهة نظر أخرى عن رعمسيس .

اعتلى ملك الوجه القبلي والوجه البحري وسر ماع رع ستيب أن رع ابن رع رعمسو المحبوب بن آمون العرش حوالي عام ١٢٠١ ق م وقد أظهر للوهلة الأولى ما يشير إلى حكم ممتاز . وكان من غير نزاع أرشق الفراغنة الذين حكموا مصر ، وقد امتزجت هذه الروعة الملكية بنشساط وافر لا مثيل له ، وهناك تمثال من الجرانيت في تورين يمثله وهو شاب وتظهر به ملامحه المصوغة في رقة وأنفه الأقنى ولم يشأ النحات في الدولة الحديثة أن يلمح النار التي تتأجج فيه حين جعل هذه الملامح ذات تأثير رفيع محبب هذه النار تار المطامع التي تخلق وتصور هي التي تميز رعمسيس من بين ملوك مصر وترفعه في أذهان البشر إلى مرتبة الخالدين كملك لمصر بغير منازع .

« حين ولي رعمسيس عرش مصر كان هناك بعض الأمل في استعادة الامبراطورية الآسيوية التي ضاعت في اخريات الأسرة الثامنة عشرة ، وفي متابعة الحملات التي اشهرها ابوه سيتي الاول ضد فلسطين وسوريا واتجه رعمسيس بقصد تحقيق هذا العمل الذي بداه ابوه سار نحو الشمال بجيشه في العام الخامس من حكمه ليلقى أشد أعدائه مراسا في سوريا وهم الحيثيون . وبلغ الصراع أشده في معركة قادش المشهورة على الأورونت وهي التي ذكرناها من قبل والتي كادت تنتهي بالهزيمة بسبب قلة تجربته وتهوره ، ولكن روح فرعون التي لا تغلب حولت الكارثة الى نصر ، اذ استطاع بمعونة حرسه أن يشن على الحيثيين تلك الغارة الساحقة التي خلد ذكرها المصريون فيما بعد في ملحمة رائعة » ولا بد أن رعمسيس كان يبدو الها حين بدأ يهاجم أعداءه وهو في عربته التي تجرها خيوله المظلمة ، وريشها لا يستقر فوق رأسها ، وقوسه الكبير يرسل السهم تلو السهم نحو قلوب « أولئك التعساء الذين لا يعرفون الله » وتصفه الملحمة كأنما هو :

« يطل بغير مثيل ذراعاه قويتان وقلبه جسور . جميل الصورة مثل أتوم » . .

منتصر في كل الاراضي . لا يستطيع احد ان يرفع سلاحا ضده . هو حافظ لجنده ودرع لهم يوم القتال . هو حامل قوس لا نظير له وهو أقوى من مئات الألوف مجتمعين . . . لا يستطيع الف رجل أن يقضوا أمامه . ويصيب الأغماء منه آلاف حين يتطلمون نحوه . هو يبعث الرعب حين يصرخ عاليا أنه يجعل قلوب الأجانب تهن كما يفعل الأسد المتوحش في وديان الصحارى . . انه هو الذي ينقذ جيشه ويحمي خزائنه ويخلص جيوشه . . قلبه كجبل من التبر . . . انه الملك رعمسيس (١) » .

(٥) ترجمة ارمان وبلاكمان السابقة .

ورغم ذلك فإن العرب كانت سجالا وكانت خسائر
الجنائين بالنفس الضخامة ورغم أن رعمسيس تابع الصراع
مدى عدة سنين ضد الحيثيين إلا أن أقدامهم كانت من الثبات
في سوريا بحيث كان يصعب اقتلاعها ومن هنا لم يكن أمام
مصر سوى أن تقنع بالتمسك بفلسطين وحدها . وأخيرا
نرى أنه في السنة الحادية والعشرين من حكمه تتوقف
الاعتداءات بينه وبين الحيثيين وتعد معاهدة سلم هي أول
معاهدة دولية عرفت في التاريخ وهكذا نرى أن مصر كقوة
عالمية تجد أمامها في الميدان ندا وسيأتي وقت قريب نراها
لا تطمع في توسيع رقعة الامبراطورية بل تضطر الى الدفاع
عن كيائها ضد العدوان الأجنبي .

ولا بد أن خيبة الأمل كانت شديدة بالنسبة لرعمسيس
أنه كان يعدل وربما يفوق أسلافه في الأسرة الثامنة عشرة
من ناحية المطامع والعزيمة وهو كان يستطيع في ظروفهم
أن يبعث بجيوش مصر الى أيعد مما فعلوا . . ولكنه ولد في
عصر غير عصرهم مما جعل الظروف لا تساعد على تحقيق
أحلامه . وكان لا بد له أن يجد مخرجا لنشاطه الذي يفوق
نشاط البشر .

ومن هنا كان عصر البناء الذي يحيرنا حتى في عصرنا
الحديث فقد اقام في أنحاء مصر المعبد بعد المعبد ، والتمثال
الضخم وراء التمثال الضخم في أحجام لم يعرفها التاريخ
المصري وهي ترجمة لرغبات فرعون في الخلق وجدت منفذها
لها في الأحجار ففي طيبة في مصر (لوحة ٢١ شكل أ) أو
في « أبو سمبل » في النوبة البعيدة تذهلتنا تماثيل رعمسيس
بأحجامها البالغة الضخامة وهي قائمة تمسك بشنمائر
أوزيريس أو تمثل الملك جالسا وتاج مصر المزدوج فوق
رأسه . ونراه يقص من أن لآخر أنباء معركة قادش التي
أمر بتقشها على جدران المعابد ويعاود ذكر أعماله التي تنم
عن جرأة بالغة في ذلك اليوم ولم يقتصر نشاطه على بناء
المعابد فقط ففي الركن الشمالي الشرقي من الدلتا نراه

يقوم بإنشاء مدينة جميل منها عاصمة له سماها « بيت
رعمسيس العظيم في الانتصارات » وهي « رمسيس »
التوراة في الغالب ويقول أحد شعراء تلك الأيام الخوالي
« ما أجمل يوم حضورك » .

« وما أرق صوتك حين تتكلم » . حين شيدت « بيت
رعمسيس » المحبوب بشرفاتها الجميلة وقاعاتها الخلابة من
اللازورد والفيروز . المكان الذي تستقر فيه عرباتك . .
والمكان الذي يحتله مشاتك والمكان الذي تستقر فيه في
الميناء سفن جيوشك حين تحضر لك الجزية (١) » .

« هذا النشاط البنائي المذهل في ضخامته وتنفيذه هو
أحد التعبيرات المادية عن شخصية رعمسيس الجبارة الذي
اضطر إلى اللجوء إلى التعبير عن نفسه بقدر ما وسعه حين
لم يستطع أن يمارس نشاطه كشخصية دولية وقضى السنين
يفكر في ماضيه الحربي وفي الاحتفال بيوبيلات فخمة وفي
تصميم وإنشاء مبان حجرية أكثر مما فعل وقد حول كوريث
لمجد فراعنة مصر على أن يصبح أعلاهم ذكرا . . ولقد نجح
في هذه الناحية . فلما مات في نهاية الأمر بعد حكم امتد
سبعة وستين عاما وخلف ١١١ ابنا و ٥١ فتاة كاد يطمس
ذكرى أولئك الحكام . . ومن هذا الحين يعرفه العالم كله
« أوزيماندياس ملك الملوك » « الملك الشمس » لمصر
المقديمة » .

(١) ترجمة أرمان ويلكمان السابقة .

موريس بين مزاير
صناع الخلود

زيجموت دير
جذاليات عن الاخراج

جوناثان ريلي سميت
العملة الصليبية الاولى وفكرة
الحروب الصليبية

الفريد ج - يتر
الكنايس القبطية القديمة في
مصر ٢ ج

ريتشارد شافت
رواد الفلسفة الحديثة

أرنيم ترانشت
من كتاب الأسماء المقدس

الحاج يونس المصري
رحلات تاريخية

هربرت هيلر
الاجتماع والهيمنة الثقافية

برتراند راسك
السلطة والفرد

بيتر نيكرلر
السياسة الشيوعية

أدوارد ميرر
عن النقد الأدبي في أمريكا

ماتال لوبس
م - الرواية

ستيفن أورمنت
التاريخ من شملتي جوانية ٢ ج

موني سراج واخرون
السياسة العربية من الخليج الى
المحيط

مانس بكاره
ألمهم يصنعون البشر ٢ ج

جانير محمد الجزار
ماصيريفت

د - إيراز كريم الله
من هم التقار

ج - س - غريز
الكاتب الحديث وعمله
٢ ج

سورينال عيد الملك
حديث للنهر
من رواقع الآداب الهندية

لوريندر تود
ممثل الى علم اللغة

أسمق عظيموف
الشموس المتغيرة
أسرار التصوير قولا

مارجريت روت
ع - بعد الجملة

د - بياره فودج
الأزهر في ألف عام

ستيفان رانسيما
العمليات الصليبية

٤ - ج - ولر
معالم تاريخ الإنسانية
٤ ج

جوستاف جرونيان
حشرة السلام

د - عبد الرحمن عبد الله الشيخ
رحلة يبركون الى مصر والمجاز
٣ ج

جلال عبد الفتاح
الكون ذلك المجهول

أرنولد جزل واخرون
الطفل من الخامسة الى العاشرة
٢ ج

يادى أوبيرد
أفريقيا - الطريق الآخر

د - محمد رينهم
فن الزواج

برنسلو مانيوسكي
السحر والعلم والعين

أدم ش
السياسة الأمريكية

فاسي - آره
ألمهم يصنعون البشر

د - عبد الرحمن عبد الله الشيخ
يوسيات رحلة فاسكو داجاما

أيرس شاتومان
كولنا المتحدة

مورداري
السلطة الجوهرة

مارتن فان كريفند
حرب المستقبل

غرانسيين ج - برحين
الإسلام التطبيقي

عبد - ماس
البحرية المصرية من د - د - م
السياسة

ج - كازميل
تبسيط الطاعيم الهندسية

توماس ليبهارت
من الأيام والليالي

أدوارد دوبرنو
الفتير المتجدد

رونيام د - مافور
ع - هي الجولوجيا

كريستيان ساليه
السياسة في السياسة الفرنسية

بول رادن
خطايا نظام التجم الأمريكي

جسورج - سفايش
بين قولا - ترين - راي - مافور
٢ ج

يانكر لافرون
الرواياتية والواقعية

محمود سامي عطا
التفكير المعاصر - راي

جوزيف - ن
رحلة جوزيف ياني

ستافو جيه - مافور
أشواج الإسلام الأمريكي

ماري ب - ماش
المسرح الأمريكي والكوميديا

جوزيف - مافور
فن الفرجة على الأنتم

كريستيان ميريس فوبلكر
المرأة القروية

جوزيف بندهام
مركز تاريخ العلم والاختراع
أمر الصدا

ليونارد دافيد
تاريخية التصوير

ت - ج - مافور
كلون الزراعة

وودولف فون هابسبرج
رحلة الأمير رولف الى الشرق
٢ ج

مالكوم براندون
الرواية اليوم

رايم ماريند
رحلة ماركو بولو ٢ ج

موني بيرين
تاريخ أوروبا في العصور الوسطى

ديفيد سمير
نظرية الأدب المعاصر - راي - مافور

أسمق - مافور
النم والفاق كافي

روناك دافيد لايب
الحكمة والتفكير والصداقة

كارل برين
بحثا عن عالم المثل

فرمان كلارك
الأنتم السياسي للعلم
والكنولوجيا

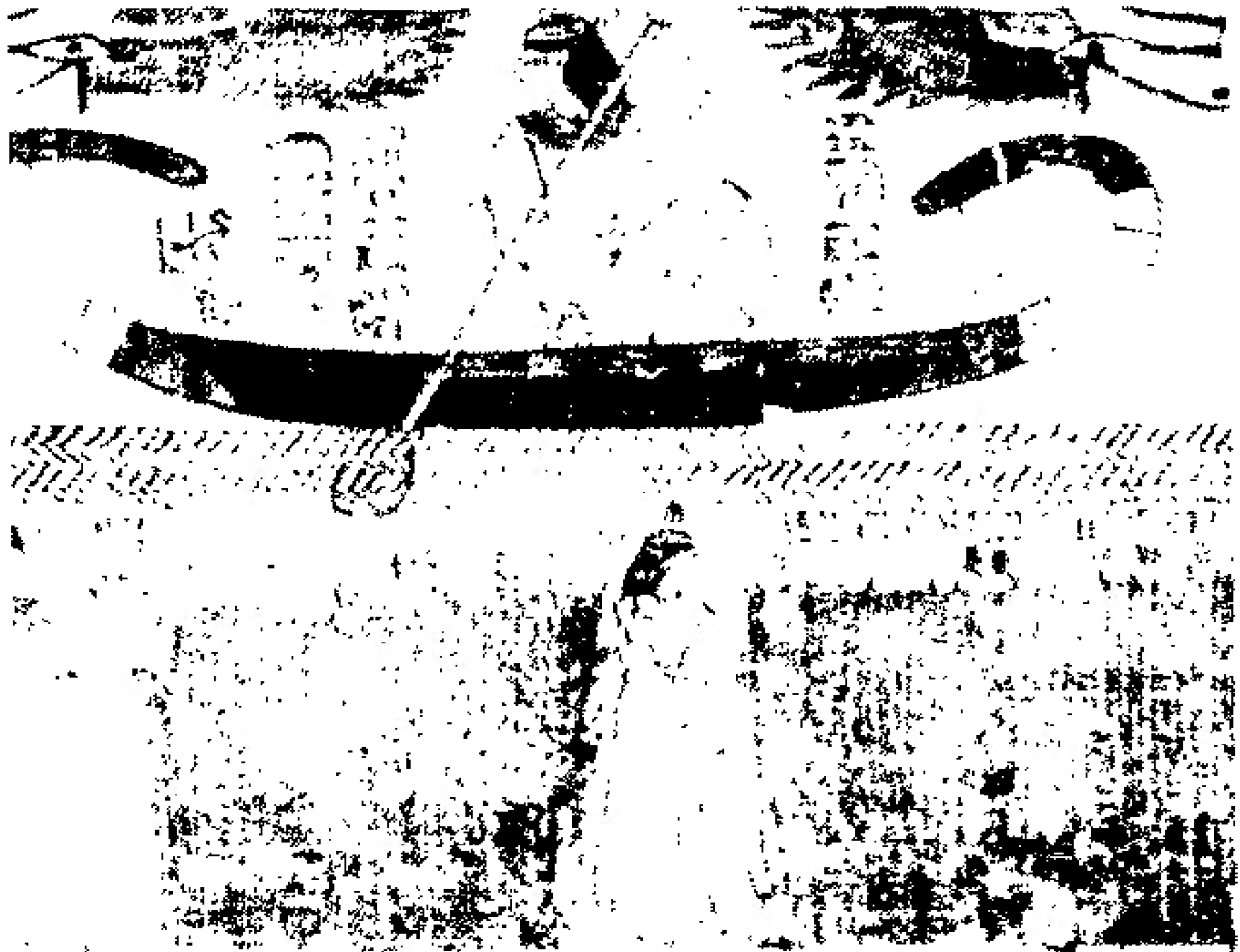
السيد عمر الدين السيد السلالات على الزمن الآتي	وغيره هوغو الملك على مصر	روبرت سكرتس وآخرون التي التي النيل العلمي
ممدوح عطية المهاجع القوي الاسرائيلي والامن القوي العربي	جيمس هنري دوسك تاريخ مصر	ب- من ديفيد المفهوم الحديث للسكان والزمان
د- لويجوسكانيا العبي	بول داليز التناقض الثلاث الأخيرة	س- حواره اشهر الرحلات الى غرب أفريقيا
تيفر ايفانس مجلد التاريخ الادبي الانجليزي	عوزيف وعاري ليندمان دينامية الفيلم	و- بارتولك تاريخ الترك في اسيا الوسطى
ميربرت ريد التربية عن طريق الفن	ج- كرنتر الحضارة الفيلينية	بلانيسير تيمانيانو تاريخ اوريا الشرقية
وليام نونز معجم التكنولوجيا المصيرية	فرست كاسيرو في المعرفة التاريخية	جابريل حاجارميا بلوكين الجنرال في المساحة
الغير توفار تصول السلطة ٢ ج	كست ا- كفس رئيس الثاني	هنري برجمون الشمس
يوسف شراوة مشكلات القرن الحادي والعشرين والعلاقات الدولية	جان بول سارتر وآخرون مختارات من المسرح العالمي	مستفي محمود سليمان الزكزال
رولاند حاكسون الكيمياء في خدمة الانسان	روزالند - وجاك يانيس الطفل المصري القديم	م- و- تونج تسمير المهنس
ج- جيمس الحياة أيام الفراغة	نيكولاس ماير شروك هوانا	و- جوني الميليون
جرج كاتمان قانا لتسمير الحروب ٢ ج	ميجيل دي لينس الفتيان	ستيفر هوسكانيا الحضارات الصناعية
عصام الدين زكريا التطويع بروتون	جوسيني ذبي-لورانس موسوليني	General تاريخ الشعوب العربية
انرا ل- هوجل المهزة اليابانية	انور جرائير موشار	محمود قاسم الادب العربي الكواكب الفرنسية
	مختارات من الفكر الاسباني	

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٣٣٥٠ / ١٩٩٧

ISBN — 977 — 01 — 5122 — X

هذا الكتاب محاولة لرسم صورة بسيطة واضحة للحياة في مصر القديمة في أوج ازدهارها. في عهد الدولة الحديثة حينما أضحت مصر إمبراطورية مترامية الأطراف وهي الفترة الواقعة بين بداية الأسرة الثامنة عشرة ونهاية الأسرة العشرين. وقد اختار المؤلف لها شكل القصة حيث نسخ عن المعلومات التاريخية مجموعة من القصص حول أشخاص حقيقيين أو خياليين ذلك حتى تكون سهلة ويسيرة على القراء الغير متخصصين.



To: www.al-mostafa.com